عـن تاريخ اللغـة العربيـة (٢)

د. مسـعود بوبـو
جامعـة دمشـق

٣ ـ العربية والعصر الجاهلي★ :

المقصود بالعصر الجاهلي عند العرب ، الفترة الممتدة الى قرن ونصف أو قرنين من الزمن قبل مجيء الإسلام ، وما سبق ذلك يكتنفه الغموض ، وغالباً ما يُعرف بالجاهلية الأولى عند علمائنا .. وأما المقصود بلفظة « الجاهلية » دلالةً فمختلف عما هو شائع عنها اليوم في أذهان الناس من انطباع عام ، لغوياً واجتماعياً . وعند البحث المدقق في كتب اللغة والنصوص يقف الباحث على معانٍ متعددة للجاهلية ، كالطيش ، والغضب ، والنزق ، او السَّفه والحُمق والحميَّة .. ونستخلص دلالتها المتطورة من النصوص ، أو نلتمس معناها من خلال الاستخدام اللغوي ، وبالتدرج الزمني . يقول صاحب « لسان العرب » في ذلك : « أرض مجهولة : لا أعلام بها ولا جبال ، وإذا كان بها معارف أعلام فليست بمجهولة ، يقال : علونا أرضا مجهولة ومَجْهلاً .. وأنشد :

قلتُ لصحراءَ خلاءٍ مَجْهلِ   تغوَّلي ما شئت أن تغوَّلي (١)

اي : ضللي واهلكي . وقال ايضا : « وارض مجهل : لا يُهتدى فيها ... وأنشد سيبويـه :

فلم يَبْقَ إلا كلُّ صفواء صفوةٍ   بصحراء تيه بين أرضين مَجْهلِ

الصفواء : حجر عريض أملس ، والمجهل : المَضلَّة .. وقيل ايضاً : « وناقة مجهولة : لم تُحلب قط . أو غُفْلة لاسِمَة عليها »(١) .

ونجد مثل هذه الصورة في قول سُوَيد بن ابي كاهل :

فركبناهـا علـى مَجْهولهـا   بصلاب الأرض فيهنَّ شَجَع (٢)

اي : سرنا فيها على جهل بمسالكها وأعلامها . وقوله : بصـلاب الأرض : أي بخيل صلاب الحوافر ، وأرض الفرس : حوافرها ، والشَجَع : جنون من النشاط .

★ ـ كنا قد نشرنا في العدد (٣٣ و ٣٤ ، أيلول ـ كانون الاول ١٩٨٩) القسم الاول من هذا البحث وهذه تتمته . (المجلة) .

وغير خفي هنا ، أن هذا المفهوم المبكر للجهل ، الذي اشتقت منه الجاهلية ، يدل على الجهل بمسالك الأرض ، وتعذّر الاهتداء أو المعرفة بالمفاوز بغير دليل يَطْمئن اليه؛ وهكذا يكون المرء في متاهة أو مَضَلَّة . ولكن هل مفهوم الضلال والضياع هنا يتجه الى المعنى الحسي وحده ؟ أعني الى فكرة الاهتداء بالنظر ؟! لا ، بل يشمل الجهل ذهنياً ، وهذا ما ذهب اليه ابن فارس الرازي حين نصّ على أن (جهل) تنصرف أصلاً الى معنيين : « أحدهما خلاف العلم ، والآخر : الخفة وخلاف الطمأنينة »(٣) .

ويمكن أن نلتمس مصداق ذلك في قول الشاعر ابن أحمر :

ودهم تُصاديها الوَلائدُ جِلّةً　　إذا جَهِلَت أجوافُها لم تَحَلَّمِ(٤)

تصاديها هنا : تداريها . وجهلت أجوافها : اشتد غليانها . وكذلك يقال : جهلت القدر : اشتدّ غليانها(٤) . وشبيه بهذا قول خُراشة بن عمرٍو العَبسي :

فلا قوم إلاّ نحن خيرُ سياسةً　　وخيرُ بَقِيّاتٍ بَقِينَ وأوّلا

وأطولُ في دار الحِفاظِ إقامةً　　وأربَطُ احلاماً إذا البَقلُ أجهلا (٥)

أربط أحلاماً : لا يجهلون . وأجهل البقل : حمل الناس على أن يجهلوا ، كأنَّ نموّه ذكّرهم بالثأر فاهتاجوا . ومن مثل ذلك قول النابغة الذبياني :

دعاكَ الهوى واستجهلتك المنازلُ　　وكيف تَصابي المرء والشيب شاملُ(٦)

استجهلتك المنازل : استخفّتك فتصابيت ، وذلك لا يلائم شيبك . وقال عمرو ابن كلثوم التغلبي :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا　　فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا ، معناه فنهلكه ونعاقبه بما هو أعظم .. وقال بعضهم : أراد بقوله « فنجهل » فنجازيه ، فسمّى المجازاة على الجهل جهلاً »(٧) .

والمتأمل هذه الشواهد وأمثالها يستخلص أن مدار الجهل فيها على الخفة وشدة الغضب ، وسرعة الحركة ، والهياج والغليان . أو ردّة الفعل التي تبدو للفاحص المدقق كالمنعكس الشرطي ، أو كالاستجابة الغريزية لمحرض خارجي . فهذه جهالة التسرّع والطيش والنزق ، حتى ليقترب (جاهلها) من الجنون . وقد امتدّ مثل هذا التصوّر في نفوس بعضهم الى المرحلة الإسلامية ، كما يبدو في قول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانةً　　وتخالنا جِنّاً إذا ما نجهلُ

ولكنه بدا جهلاً أقل حدة حين مازجه الحِلْم . وارتباط فكرة الحلم ـ لفظاً أو معنى ـ بالجهل قضية تستوقف من يتتبّع نشأة هذا المفهوم العام للجاهليـة ، وحين تلتمس شواهد هذا التصوّر في النصوص يبدو لك الحلم كالكابح الذي يحاول تهذيب النفوس والعقول وتقييد رعونة الأهواء والبَدَوات ، وكأننا أمام جاهليـة تحاول أن تكون أخف انفعالا ، وأقل تطرّفاً . وهذا أشبه بأن يكون اتجاهاً أعان عليه تحكيم العقل ، أو صقلته الخبرة المتحصلة من توالي الأيام والتجارب بتقدم السن ، فالجهل غالباًما لازم الشباب ، قال النابغة الذبياني :

فإنْ يكُ عامرٌ قد قال جهلاً — فإنّ مَظِنّةَ الجهل الشباب(٨)

وعامر هذا هو عامر بن الطفيـل العامري . ومظنة الجهل الشباب : يريـد أن الشباب مقرون به الجهل ، ملازم له ، فمظنة الشيء : الأمر الذي لا يكاد يطلب فيـه إلاّ وجد به ، وما جهل الشباب إلاّ بسبب من قلـة المعرفـة والخبرة ، وهذا ـ مـع حميّةالشباب ـ يدفع الى الطيش والتهوّر ، في حين يكون العالم الحليم أكثر أنـاة وتحسباً للعواقب .

ويقول عوف بن عطية التَّيمي (من تيم الرّباب) :

وقالت كُبَيْشةُ مِنْ جهلها : — أشيباً قديماً وحِلْما مُعارا(٩)

أي : « تقدّم شيب راسك ولا حِلْم لك ، كأنّ حِلْمك ليس معك »(٩) ، بل هو معار . وتتكرّر الأمثلة النصيّة التي يستعين فيها العقل العربي على الجهل بالحلم ، أو يستحضر فيها الحِلْمَ الجهلَ فيبدوان مقترنين لأمر ما . من ذلك قول كعب بن سعد الغَنَـوي :

ولن يلبَثَ الجُهّال أن يَتَهَضّموا — أخا الحلم ما لم يستعن بجهول(١٠)

يتهضموا : يظلموا ويغصبوا . يقصد الحليم الذي لا يستعين بالجهول . ومـن مظاهر هذا الحِلْم القرين للجهل فضيلة الصفح ، ولا يكون الصفح إلا من جهة الأقوى، أو القادر ، فكأنّ الحِلْم صار عندهم أرجح كفّة ، وأدعى الى قبول التوم من الجهل ، نلمس ذلك في قول مُضَرِّس الفقعسيّ :

إنّا لنصفحُ عن مَجاهِلِ قومنـا — ونقيمُ سالفةَ العدو الأصْيَدِ(١١)

وقول عَلْباء بن أرقـم :

وصفحتُ عن ذي جهلها ورفدتُهُ — نُصحي ولم تُصِبِ العشيرةَ زَلّتي(١٢)

يعني إن زلّ كفى نفسه ولم يحمّل عشيرته زلته . وربما دعا الى مثل هـذا

الصفح الإدراك الواقعي لضرر الجهل ، ونلمح شيئا من ذلك في قول النابغة الذبياني :

بنو عامرٍ خالوا بني أَسَدٍ ... يا بؤسَ للجهل ضرّاراً لأقوامِ(١٢)

أي تركوهم ، فيا بؤساً لهم بجهلهم ، وشدّ ما كان الجهل ضرّاراً للناس ، كأنه شأفة يجب استئصالها ، أو مرض ينبغي للقوم أن يشفوا منه ولقد أدرك ذلك الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى حين قال في مدح هرم بن سنان وقومه :

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم ... وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعلُ
وإن جئتهم ألفيتَ حولَ بيوتهم ... مجالسَ قد يَشفى بأحلامها الجهل(١٤)

ومن أبرز صور التلازم بين الجهل والحلم قول مهلهل بن ربيعة يخاطب الحارث ابن عباد :

يا حارِ لا تجهلْ على أشياخنا ... إنّا ذوو السَّوْرات والأحلامِ(١٥)

والسَّورات : جمع سَوْرة ، وهي الرفعة والمنزلة ، والحِدّة أو السطوة ..

وللجاهلية وجه آخر طرَفاه الجهل والعلم بمفهومهما العام ، وخير ما يصور هذا الوجه الآية الكريمة : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(١٦) . وقد حفظ لنا الشعر شيئاً من ذلك كما في قول عنترة :

هلاّ سألتِ الخيلَ يابنةَ مالكٍ ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلَمي(١٧)

وقول السموأل بن عادياء (ويقال إن البيت منحول قاله عبدُ الملك بن عبد الرحمن الحارثي) :

سَلي إن جهلتِ الناسَ عنّا وعنهمُ ... فليس سواءً عالِمٌ وجهولُ(١٨)

مفهوم الجاهلية يمثل طورا متقدما — إن جاز التعبير — بالقياس الى ما وقفنا عليه من شواهد ؛ فهنا لا تطالعنا صورة النزق والحدة والانفعال التلقائي . أجل نتذكر قول صاحب « اللسان » : « أرض مجهولة : لا أعلام بها ولا جبال .. » ولكن للجهل والعلم هنا أفقاً أوسع ، ومدلولا أعمّ يتعدى الاهتداء بالنظر الى الاهتداء بالنظر والعقل، كأنها جاهلية بلغت سن الرشد فصارت تحتكم الى الفكر والتفكير ، أو تختبر بهما . ويتضح هذا المفهوم في الآية الكريمة : « يَحسَبُهم الجاهل أغنياء من التعفف »(١٩) فالقصد هنا الى الجاهل بحالهم ، لا الجاهل الذي هو ضد العاقل ، بل هذا الجهل يبدو نقيضا للخبرة والعلم .. وأخيرا طبع مفهوم الجاهلية بطابع اسلامي، وصارت تعرف من وجهة نظر اسلامية ، أو برؤية اسلامية . وقد قيدّ هذا ابن منظور حين عرض لقول النبي لأبي هريرة وقد عيّر رجلا بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية »(٢٠) فَفسر مدلول الجاهلية

بأنه : « الحال التي كانت عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله، وشرائع الدين والمفاخرة بالانساب والكبر والتجبر وغير ذلك »(٢١) .

ولقد بدا المعيار الاسلامي لتقويم الجاهلية معتمدا خاصة على عدم المعرفة والعلم، وعلى رفض ما للجاهليين من مظاهر لا يرضى عنها الاسلام ، ولا يقر الناس عليها ، ومن هنا جاء التعبير الاسلامي « الجاهلية الجهلاء » مؤكداً بالكلمة الثانية ــ الجهلاء ــ كلّ ما في الاولى من جهل ، كقولهم « ليلة ليلاء » . وترتب على هذا نمو فكرة ذم الجاهلية مرحلة وسلوكاً ووعياً ، كما يستنتج ذلك من حديث ابن عباس : « من استجهل مؤمناً فعليه إثمــه »(٢٢) .

يستخلص من هذا أن مفهوم الجاهلية والجهل قد تطور من الدلالة اللغوية التي لا تخلو من عموم ، الى الدلالة الاسلامية التي أوشكت أن تضفي عليه سمة المصطلح. والذي يعنينا من الجاهلية بصورة خاصة فكرة الربط بين اللغة العربيــة والتاريخ العربي، أو تلمس الاصول الاولى التي كونت الشخصية العربية المستقلة ، او الهوية الجماعية للعرب ، بلاداً وقوماً ، حتى نقف بالتالي على الخطوط العريضة لوضع اللغة سواء أكانت موزعة في لهجات ، أم موحدة يتخاطب بها العرب ويتفاهمون . ولكــن، ما يتصل بهذا الموضوع في ما يسبق العصر الجاهلي يكتنفه الغموض كما سبق القول ، الا أن بعض المصادر التاريخية ، بل ربما الكثير منها يؤكد أن أقسام شبه الجزيرة العربية كانت في حالة اتصال دائم فيما بينها أدى الى التقارب ، بل التجانس بين سكان هذه الاقسام في أكثر من جانب من جوانب حياتهم ، على الرغم من توزعهم في تجمعات قبلية ، أو إمارات ، أو دويلات . ولعل أقدم الإشارات الصريحة الى العرب كمجموعة لها شخصيتها الجماعية ما عثر عليه من ذكر لهم في النقوش البابلية التي يرجع تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد ، من ذلك نقش عثر عليه بين السجلات الخاصة بملوك الدولة الآشورية والدولة البابلية الحديثة في عهد الملك الآشــوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق.م) . وفي هذا النقش حديث عن حملة قام بها الآشوريون ضــد « يواتع ملك العربيــة » وذلك بقيادة آشور بانيبال(٢٣) . ومن ذلك ايضــاً نص حول علاقة الآشوريين بالعرب يذكر أن الملك تجلات بيليسر الثالث (٧٤٤–٧٢٧ ق.م) قد اجتاح ١٥ مدينة للملك « ايديبعلي » العربي ، وانه قتل (غنم) من الملكة سمسي ، ملكة بلاد العرب ٣٠ ألف جمل(٢٤) . ويرد ذكر العرب كقوم تحت تسميات عديدة متقاربــة في النصوص الآشورية من بينها: Aribi , Arabas أو Arubu , Arybas التي ترد في نص آشوري (٧٠٣ ق.م) من عهد سنحريب كصفة أو كنسبة بمعنى عربي(٢٥) .

أما بالنسبة للبلاد أو السكان فان صفة العربية تظهر « بشكل محدد ومتواتر في كتابات المؤرخ اليوناني هيرودوتس Herodotos في أواسط القرن الخامس قبل

الميلاد وتستمر من بعده سواء عند الكتاب اليونان أو الرومان أو البيزنطيين حتى ظهور الاسلام(٢٦) . وتسمية بلاد العرب Arabia عند هيرودوتس تعني — الى جانب شبه الجزيرة — كل القسم الداخلي من سورية (بادية الشام) وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التي تعرف أحيانا باسم صحراء العرب »(٢٧) . وفي فترات تاريخية لاحقة تتعزز هذه التسمية أو الصفة العربية حتى تصبح هوية جماعية أو علما على البشر الذين يسكنون شبه الجزيرة العربية وما جاورها ، ثم تصبح بديلا من الهوية العشائرية أو القبلية الضيقة أو الخاصة ، والمهم في هذا المجال أن الشعور العام والعلاقات الخارجية والنظم الاجتماعية ولغة التفاهم ، كل ذلك أضفى عليهم التسمية العربية ، وميزهم من غيرهم حتى جعلهم يعتزون بهذه التسمية في بعض المناسبات كيوم ذي قار ويوم الفيل .. مما يشير الى أنهم كانوا يتكلمون لغة تكاد أن تكون معروفة عند الجميع وان اختلفت بعض لهجاتها قليلا عن بعض . ولعل هذا التصور هو الذي جعل علماءنا القدامى يقولون على الجزيرة العربية وأهلها انها: « تسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربي فيها شائع وان تفاضل »(٢٨) .. وهذا أمر متقبل ، لان العلاقات التجارية والاسواق الادبية ، واتخاذ مكة رمزاً دينيا ، ونقطة التقاء موسمية — كل ذلك يحملنا على الاقتناع بوجود لغة عامة موحدة ، أو تكاد أن تكون كذلك ، تتكلمها طبقة واسعة في المناسبات العامة ، وعند استخدام لغة الشعر والامثال والخطب استخداماً فنيا ينحي جانبا اللهجة المحلية الخاصة المستعملة في الحديث اليومي والمخاطبات .. تلك اللغة الفنية العالية كانت اذن وليدة الاختلاط والانتقال والتعامل والأخذ والعطاء وتحكيم الذوق في انتقائها كخلاصة مزيج من خصائص معظم اللهجات العربية . وربما لأن المكيين كانوا أكثر تعاملا مع غيرهم، تجاريا ودينياً وأدبيا — كانت بيئتهم ، حكما مهيأة ومناسبة لاحتضان اللغة الموحدة التي نزل بها القرآن الكريم فيما بعد ، مما دفع بعض المؤرخين الى التعجيل بالقول إن القرآن نزل بلغة قريش حصرا ، وما ذلك بدقيق تحقيقا ، انما نزل بلغة مصطفاة من تلك اللهجات كلها ، متأثرة بها كلها ، متضمنة مظاهر من خصائصها ، وبها خوطب أصحاب تلك اللهجات جميعا ، وبها قرؤوا القرآن وفهموه ، وانصتوا اليه فيخشوع وإيمان عميقين. وفي هذا الصدد يقول الدكتور ابراهيم أنيس على تلك اللغة أنها : « أقدم ما نستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية ، هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض ، واستقل كل منها بصفات خاصة ، ثم كانت تلك الظروف التي هيأت لبيئة معينة ، في شبه الجزيرة ، فرصة ظهور لهجتهاثم ازدهارها، والتغلب على اللهجات الاخرى »(٢٩) .

وربما كان للعامل التاريخي كبير الاثر في تمركز العربية حول مكة وما جاورها ، ونعني بهذا العامل أن العرب في الجنوب كانوا قد غزوا من قبل الاحباش في أواسط

القرن الرابع الميلادي ما يقرب من عشرين عاما . ثم عاد هؤلاء فاستولوا سنة (٥٢٥ م) على اليمن نحو خمسين سنة ، أي أن العرب صاروا أمام خطر في الجنوب . وكان عرب الشمال مهددين بالروم والفرس من الشمال والشرق . وأمام هذين الخطرين الخارجيين تنامت فكرة التمركز والتجمع العربي في وسط الجزيرة العربية، وبدأت شخصية العرب اللغوية تنمو وتتكامل بالتجاور والاستقرار والاستقلال في شبه وحدة متجانسة أو متحالفة لدرء خطر أعداء الجنوب والشمال . ويبدو أن لهجات القبائل تقاربت وتمازجت في ظل هذا الاستقرار النسبي مما ساعد على قيام حركة شعرية متنامية بلغة أدبية عامة هي اللغة العربية الفصحى التي وصلتنا بعد صقل وتطور ، وسعة اختلاط وتفاعل . ولا يعني هذا أن العرب كانوا قبل ذلك منتشرين وموزعين في جماعات منعزلة تفصل بعضهم عن بعض حدود منيعة يصعب تخطيها ، او كان بينهم تفاوت لغوي كبير يحول دون التفاهم بلغة واحدة ، أو يحتاج الى مترجمين ، فان المصادر المعنية بهذا الامر لم تقرر ذلك صراحة ، وان المصادر العربية العليا التي تصور طبيعة الحياة اللغوية القديمة (كالشعر والقرآن والحديث) قلما تشير الى ذلك التفاوت اللغوي الحاد بين عرب الشمال والجنوب مثلا ، بل ان ذلك التقسيم الى عدنانيين وقحطانيين كان تقسم أنساب واخوة يرجعون الى أصل واحد ، ولم يكن تقسيما يستند الى حقائق الاختلافات اللغوية اذا أردنا تحري الحقيقة في هذا الجانب خاصة . صحيح انه في أقاصي جنوب شبه الجزيرة العربية (داخل اليمن وظفار وحضرموت) .. كانت « الحِميرية » هي الغالبة في التخاطب اليومي ، ولعل هذا ما جعل أبا عمرو بن العلاء يقول :

« ما لسان حِمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » (٣٠)

ولكن مثل هذا الحكم لا يخلو من مبالغة اذا ما فهمناه بهذا القطع التام وبمعزل عن قصته أو مناسبته التي يسوقها السيوطي عن ابن دريد فيقول :

« خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صَعْصعة الى ذي جَدَن (من أقيال حِمْير) فاطلع الى سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثِبْ ، (أي : اقعُدْ) فقال : ليعلم الملك اني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار : الطَّفْر (القفز) ، فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم »(٣١) .

ومتأمل هذه القصة ـ كما سيقت ـ يلحظ أنها لا تخلو من صبغة الوضع ، أو التعمّل والتكلّف ، من ذلك: فلما رآه الملك اختبره . ففيم كان هذا الاختبار ؟! أفي اللغة ليعرف مدى إلمامه بكل مفرداتها أو الفروق بين لغتيهما ؟ أم في الشجاعة ليرى إن كان الرجل يجرؤ على الوثوب ؟ ثم : إن كان يختبره فلم استغرب فعلته قائلا : ما شأنه ؟

وبعد ، فمجمل الخبر يدلّل على التفاهم اللغوي ، لا التفاوت اللغوي ، يستخلص هذا من قول الرجل : ليعلم الملك أني سامع مطيع ، وفي قول الملك : ما شأنه ؟ وفي قول القوم : إن الوثب في كلام نزار : الطفر .. ثم في قول الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم (إلاّ إذا كان هذا الخبر مترجما عن الحميرية ! . وما أحد قال ذلك) .

وفي قول القَيْل هناك رواية أخرى هي : (ليست عندنا عربية كعربيتهم) ويرجح ابن سيده تلك الرواية بقوله : « وهو الصواب عندي ، لأن الملك لم يكن لِيُخرج نفسه من العرب »(٣٢) .

وإن أخذنا بصحة هذا الخبر بما فيه ، فان ذلك ليس دليلا على اختلاف لغوي حاسم ، لأن الحوار كان مفهوما كما هو واضح من السياق ، ولكن الرجل لم يفهم مدلول لفظة « ثِب » التي لا يمكن أن تكون ــ وحدها ــ معياراً للحكم بوجود لغتين مختلفتين ، وإلاّ قلنا بمثل هذا الاختلاف عندما لم يعرف عمر بن الخطاب معنى « التخوّف » في قوله تعالى : (أويأخذهم على تخوّف)(٣٣) ، أو عندما لم يعرف معنى « الأبّ » في قوله تعالى : « وفاكهة وأبا »(٣٤) .. بل كل ذلك عربي ، وعبارة : « ولا عربيتهم كعربيتنا » التي تتناقلها كتب اللغة عن القيل اليمني وعن أبي عمرو بن العلاء هي عربية أيضاً لأن أحداً منهما لم يقل « ولا عربيتهم كحِمْيَرّيتنا » ، والأمر لا يعدو أن يكون لوناً من اختلاف اللهجات في الجماعة الواحدة « ذلك لأن العرب وإن كانوا كثيراً منتشرين ، وخلقاً عظيماً في أرض الله غير متحجرين ولا متضاغطين ، فانهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة ، فبعضهم يلاحظ ويراعي أمر لغته ، كما يراعي ذلك من مُهِمّ أمره »(٣٥) . على ما يقول ابن جني . ولعل هذا من أفضل ما قيل في الموضوع .

وربما كان من المفيد هنا أن نقف على وجهات نظر المستشرقين وآرائهم في تصورهم لظروف تكوين العربية الفصحى في إطار العصر الجاهلي وبيئاته ولهجاته اللغوية حتى نقرّب ذلك التصور السام إلينا بتضافر الآراء والاجتهادات . وملخص هذه الاجتهادات هو أن العربية الفصحى لهجة مركبة من لهجات القبائل التي كانت منتشرة في الحجاز ونجد وإقليم الفرات وغيرها من المناطق المشهورة في الجزيرة العربية ، وهي لهجات كانت وجوه الاختلاف بينها قليلة مما ساعد على تركيب نواة اللغة العامة منها ، كما يرى المستشرق «نولدكه» . على حين يذهب «جويدى» الى أنها ليست لهجة قبيلة بعينها ، ولكنها مزيج من لهجات قبائل نجد ومن جاررهم ، ويقول : « ويعتقد المرء أن لغة الشعر في عهود ما قبل الاسلام هي لغة موحّدة في جميع الأمكنة التي سكنها الجاهليون »(٣٦) . ويذهب « نالينو » الى أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتمّ تهذيبها أيام حكم كنده في منتصف القرن الخامس ، ثم صارت اللغة الأدبية

السائدة بين العرب . ويذهب « هارتمان » و « فولرز » الى أنها لهجة أعراب نجد واليمامة بعد أن أدخل الشعراء عليها تغييرات كثيرة . في حين يرى « بروكلمان » أنها لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذّتها جميع اللهجات ، وأنها استوعبت كل خصائص الأصل اللغوي السامي أكمل استيعاب وإن لم تحتفظ في جميع نواحيها بأقدم الصيغ والقوالب . وأخيراً يرى « بلاشير » أنها لغة وسطى لها خصائص اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها ، وهي لهجات القبائل التي كانت تنزل في منطقة محصورة بين مكة والبحرين وضواحي المدينة حتى شمال الحيرَة ، وهي قبائل قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طيّىء ، وأيضاً قريش(٢٧) .

وعلى الرغم مما تنطوي عليه هذه الآراء من اعتدال ، وتركيز حول دائرة بشرية وجغرافية معلومة ، فان بعضها يبدو متأثراً بتقسيمات اللغويين العرب المتأخرة التي صنّفت مراتب الفصاحة في اللغة تبعاً لمعايير تتصل باللحن وبالاحتجاج ، وبالمكانة الدينية لمكّة وقطانها ، وتلك التصنيفات كانت تتخذ من قضية الاختلاط بالأعاجم مقياساً للأصالة أو السلامة اللغوية . وتأثراً بهذه الاعتبارات المتأخرة تتردد في آراء المستشرقين تحديدات جغرافية يدخل فيها عَزْوُ نشأة العربية الفصحى الى قبائل بأعيانها ، على جهة الحصر ، من بينها (بعض كنانة) و (بعض طيىء) ؛ وكأن بقية أبناء القبيلتين كانوا يتكلمون لغة أخرى حين ابتعدوا قليلاً عن مركز استيطان القبيلة الأصلي .

وثمة مسألة مهمة أخرى تلحَظ في آراء أولئك المستشرقين هي مصطلح «اللهجة» أو اللهجات ، فالعربية عندهم « تركبت » من لهجات ، أو هي « مزيج » من اللهجات أو « تولدت » من إحدى اللهجات النجدية ، أو « غذّتها » جميع اللهجات ، أو لها « خصائص » اللهجات . . إلا ما كان من « بروكلمان » الذي رأى أنها « لغة فنية » فوق اللهجات ، وإن غذتها اللهجات كلها . ولعل هذا هو الأقرب الى القبول في ما يتصل « بفنية » العربية ، تلك الفنية التي جعلت منها على أيام الجاهلية « لغة مقدسة » ، أي غير شعبية بل خاصة بالصفوة من المتحدّثين بألسنة قبائلهم ، وبالكهنة والعرافين والمنجمين والاطباء والخطباء والشعراء ، في المناسبات «الرسمية»، وأن هؤلاء — ما عدا قريشا وبعض القبائل التي حافظت على هذه اللغة المقدسة — كانت لهم لكنات ورطانات وعاميات في أقوامهم(٢٨) .

وإننا لنقف على إشارات وشواهد من أقوال القدماء تؤيد ذلك ، كقول الفرّاء : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات جميع العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلَتْ لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ »(٣٩) .

فالعرب تلتقي كل عام ، وقريش يسمعون (لغات جميع العرب) ، ويستحسنون لغة مصطفاة ، منقاة من شوائب اللهجات المحلية .. كما يسوق لنا السيوطي قولا مشابها ، يقول : « كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها . ومن هنا كثرت الروايات في بعض الابيات »(٤٠) .

وينبغي أن يستوقفنا قوله : أن العرب كانت (ينشد بعضهم شعر بعض) أي أن لغة مشتركة فوق « مستوى » العامة من العرب كانت محل تداول في الانشاء الادبي ، لغة فوق لهجات التخاطب ، وفوق لغة الحياة اليومية لدى القبائل الكثيرة(٤١) ، ولكنها مع ذلك كانت مفهومة عند عامة تلك القبائل ، قاصيها عن قريش ، ودانيها منها ولهجات تلك القبائل على اختلافها لم تكن مستغلقة متأبية على الفهم ، بل كانت كلها – كما يقول ابن جني – حجة ، والناطق بها – على قياس لغة من لغات العرب – مصيب غير مخطىء(٤٢) ، مع الاقرار بوجود لهجة أفضل . وفي ضوء هذا كله يمكننا أن نتفهم قول السيوطي السابق « ومن هنا كثرت الروايات في بعض الابيات » على أنها روايات تأخذ بأعلى مراتب الفصاحة ، وتراعي السلامة اللغوية التي كانت محل اجماع وقبول، والا استنكرت ، أو صنفت مع « اللغات » أو اللهجات .

وعلى ذلك ، فما تلك اللهجات التي ألح على ذكرها المستشرقون والمحدثون والقدماء ، وأطالوا الحديث عنها بصفتها تنطوي على ظواهر لغوية تختلف عن تلك اللغة المثالية المشتركة ؟!

الحواشي

(١) اللسان / جهل .

(٢) المفضليات : ١٩٣ (تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، ط ٥ (دار المعارف بمصر) ، واللسان / جهل .

(٣) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس / جهل تحقيق عبد السلام هارون ط البابي الحلبي (القاهرة ١٩٦٩) .

(٤) معجم أساس البلاغة / جهل ، تأليف الامام جار الله الزمخشري ، تحقيق عبد الرحيم محمود (دار المعرفة ، لبنان ١٩٧٩) .

(٥) المفضليات : ٤٠٥ .

(٦) ديوان النابغة الذبياني : ١١٥ ، (تح: محمد أبو الفضل ابراهيم (دار المعارف بمصر ١٩٧٧) .

(٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ٤٢٦ ، (لأبي بكر محمد بن القاسم الانباري، تحقيق عبد السلام هارون ، (دار المعارف ١٩٨٠) .

(٨) ديوانه : ١٠٩ ، واللسان / ظنن .

(٩) المفضليات : ٤١٣ ، المتن والحاشية .

(١٠) الاصمعيات : ٧٦ لعبد الملك بن قريب الاصمعي ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، ط ٤ ، (دار المعارف بمصر ١٩٧٦) .

(١١) اللسان / جهل .

(١٢) الاصمعيات : ١٦٢ .

(١٣) ديوانه : ٨٢ .

(١٤) شرح ديوان زهير : ١١٣ ، صنعة أبي العباس ثعلب ، (ط القاهرة ١٩٤٤) .
(١٥) الاصمعيات : ١٥٦ .
(١٦) الزمر / ٣٩ .
(١٧) شرح المعلقات السبع للزوزني : ٥٩ ، ط٢ (القاهرة ١٩٥٩) .
(١٨) حماسة أبي تمام : ١١٠/١ ، تح أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط٢ ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٧) .
(١٩) البقرة / ٢٧٣ .
(٢٠) صحيح البخاري : ٤/١ — ١٩/٨ (طبعة دار الشعب بالقاهرة) .
(٢١) اللسان / جهل .
(٢٢) جاءت عبارة : (قوم يجهلون) في خمس آيات ، و (الجاهلون) في ست آيات ، و (يعملون السوء بجهالة) في ثلاث آيات . وغالبا ما يتجه المدلول في هذه الآيات الى العقول التي لم تنعم بنور العلم والمعرفة . وذكرت كلمة (الجاهلية) في أربع آيات ، بدت مذمومة في ثلاث ، ودلت على فترة زمنية في الآية : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) ولا يخفى ما فيها من ذم .
(٢٣) العرب في العصور القديمة : ١٥٢ للدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى (دار النهضة العربية — بيروت ١٩٧٩) وانظر الصفحات ٣٦ — ٣٧ ، ٢٢٩ ، ٢٨٠ ، ٤٠٣ .
(٢٤) نفسه : ١٥٦ ، وص ٣٦١ . وانظر : (الحضارات السامية القديمة : ٢٠٢ تأليف سبتينو موسكاتي، ترجمة الدكتور يعقوب بكر (دار الرقي ، بيروت ١٩٨٦) .
(٢٥) نفسه : ١٩٦ .
(٢٦) العرب في العصور القديمة : ٣٦ — ٣٧ .
(٢٧) نفسه : ١٩٨ ، وانظر الحاشية ٢ في الصفحة نفسها . ولعل أول اشارة أو ذكر لشبه الجزيرة العربية ورد في الاوديسة لهوميروس (القرن التاسع ق.م) وكذا في بعض مسرحيات (ايسخولوس) في القرن الخامس قبل الميلاد.
(٢٨) معجم البلدان لياقوت الحموي ، مادة : جزيرة العرب (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٠٦) . وانظر صفة جزيرة العرب للهمداني: ١ ، تح محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي (مطبعة السعادة ١٩٥٣) وتح محمد بن علي الاكوع ، (دار اليمامة ، الرياض ١٩٧٤).
(٢٩) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٧ (ط القاهرة ١٩٦٠) للدكتور ابراهيم أنيس .
(٣٠) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي: ١١ (دار المعارف بمصر) .
(٣١) المزهر في علوم اللغة العربية وأنواعها للسيوطي : ٣٩٦/١ ، وانظر الخبر بشيء من الاختلاف اللفظي في « الصاحبي في فقه اللغة » لابن فارس : ٥١ ، تح الدكتور مصطفى الشويمي (بيروت ١٩٦٣) .
(٣٢) انظر لسان العرب /٢٩١/٢ (ط بولاق) .
(٣٣) سورة النحل / ٤٧ .
(٣٤) سورة عبس / ٣١ ، وانظر : « مقدمتان في علوم القرآن » : ٢٧١ (لابن عطية ومجهول نشر وتصحيح آرثر جفري (مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٥٤) .
(٣٥) الخصائص : ٤١٥/١ (ط . دار الهلال بمصر ١٣٣١ هـ) .
(٣٦) محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الاسلام : ٥٥ ، اغناطيوس غويدي ، ترجمة ابراهيم السامرائي (دار الحداثة ، بيروت ١٩٨٦) .
(٣٧) انظر : دراسات في الشعر الجاهلي : ٥٩ — ٦٠ للدكتور يوسف خليف (القاهرة ١٩٨١)، تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان : ٤٢/١ (ط دار المعارف) ، تاريخ الادب العربي — العصر الجاهلي : ١٣١ — ١٣٢ للدكتور شوقي ضيف (ط ٣ دار المعارف).
(٣٨) وانظر : كلام العرب : ١٥٨ — ١٥٩ للدكتور حسن ظاظا (اسكندرية ١٩٧١) .
(٣٩) المزهر : ٢٢١/١ ، وانظر : فقه اللغات السامية لبروكلمان : ٢٩ حيث يقول :

(٤٠) « ويستخدم كل شعراء هذه البلاد لغة مشتركة ، هي لغة الشعر بالطبع ، مع أنهم ينتمون الى قبائل مختلفة » .

(٤٠) المزهر : ٢٦١/١ .

(٤١) انظر أيضا : دراسات في فقه اللغة : ٥١ للدكتور صبحي الصالح (بيروت ١٩٦٢) و « في اللهجات العربية » : ٤١ للدكتور ابراهيم أنيس (القاهرة ١٩٥٢) و « فصول في فقه العربية » : ٧٤ ، ٦٩ للدكتور رمضان عبد التواب (القاهرة ١٩٧٣) .

(٤٢) الخصائص : ٤٧٧/١ (ط دار الهلال) . ويقول اغناطيوس غويدي :
« ... ان امرأ القيس ينتسب الى قبيلة (كنده) وهي في الاصل من العربية الجنوبية من قبائل (قتبان) ، وأن النابغة من قبيلة (ذبيان) وهذه القبيلة من غطفان ، أي انها من مضر ، وان عمرو بن كلثوم من تغلب المتحدر من ربيعة ، غير أن شعر هؤلاء جميعهم يفهم منه لغة واحدة » محاضرات في تاريخ اليمن : ٥٥ (مرجع سابق) .

استدراك

احيلت الي رسالة القاريء السيد مهند الحسيني التي يقول فيها انني في البحث الذي نشر في العددين ٢٣ ــ ٢٤ لعام ١٩٨٩ ــ قد (صنفت اللهجة العربية مع الفرع الجنوبي الغربي) ثم يقول : « الا أن د. مسعود بوبو عاد في الصفحة ١٧١ ليقول : بأن أشهر لهجات اللغة العربية الشمالية هي العربية البائدة » . ثم يضيف : « وهنا نلاحظ أنه بينما صنف اللهجة العربية ضمن الفرع الجنوبي الغربي يعود ليتناقض مع نفسه ليصنفها مع الخط الآرامي الذي هو بدوره من الفرع الشمالي الغربي .. » .

ولا تناقض البتة ، انما القارىء الكريم لم يدقق في قراءة البحث ، فالامر غاية في الوضوح والجلاء . اذ جاء في الصفحة (١٧٠) من البحث العنوان :

٣ ــ **الفرع الجنوبي الغربي** . ويقسم الى قسمين أساسيين هما :

الحبشية ، والعربية . والعربية [هذه] تقسم الى : جنوبية وشمالية .

فهذه العربية الشمالية قسم من انشعاب الفرع الجنوبي الغربي الى ↖ جنوبية / ↙ شمالية

وهذه ــ عندما عرف أصحابها الكتابة ــ كتبت آثارها المبكرة على أيدي جنوبيين يمنيين عرفوا الخط المسند ، وآراميين وانباط شماليين هم الذين أخذت عنهم أخيرا الخط . ولا يخفى أن الكتابة أو الخط شيء ، واللهجة شيء آخر .

د. مسعود بوبو

الأبناء ، منذ دخولهم اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري

دراسة لأوضاعهم السياسية والاقتصادية

د. عبد المحسن مدعج المدعج

جامعة الكويت

المقدمة :

إن كثيراً من الظواهر التاريخية الهامة في بلاد اليمن لم تحظ بعد باهتمام كاف من الباحثين ، فالبحوث التي كتبت حول بعض الفترات او الأحداث اليمنية انصبت غالبيتها على مواضيع واسعة شملت تواريخ ممالك ودويلات كاملة وقدمت دراسات غلب عليها طابع الشمولية . وقد انعكس هذا المسار سلباً على بعض الظواهر المهمة في التاريخ اليمني إذ مرّ عليها الدارسون مرور الكرام ولم يلموا إلا ببعض جوانبها ، مما جعل بعض المواضيع المهمة تظهر على شكل نتف في الدراسات الشمولية وتفقد اهميتها وقيمتها التاريخية . ومن هذه الظواهر التي لم تعط حقها ظاهرة وجود الجالية الفارسية في بلاد اليمن والتي اتفق على تسمية افرادها بالأبناء .

ولا يخفى على الباحثين الذين تعاملوا مع تاريخ اليمن ، في الفترة الواقعة بين دخول الجنود الفرس البلاد عام ٥٧٥م الى نهاية القرن الثالث الهجري ، ان افراد هذه الجالية لعبوا دوراً أساسياً في كثير من الأحداث التي مرت بها اليمن ، السياسية منها والاقتصادية ، الأمر الذي جعلهم يبرزون كجالية فعالة في المجتمع اليمني بعامة ومجتمع صنعاء بخاصة طوال هذه الفترة . وفي علمنا لا توجد حتى هذا التاريخ دراسة مخصصة لتتبع النشاط السياسي والاقتصادي لهذه الجالية . اما الدراسات الحديثة التي تطرقت لتاريخ اليمن في هذه الفترة فقد عرضت للابناء بشكل عابر وتحدثت في بعض الأحيان عن دورهم في حدث محدد(١) أما المؤرخون الأوائل الذين تطرقوا لتاريخ اليمن في تلك الفترة فمقصرون أيضاً في هذا الأمر ، شحوا علينا بالإشارات التاريخية الكافية لهذه الجالية ، وما أوردوه من معلومات جاء معظمها مشوشا وغير واضح . ولا نعلم السبب في عدم حرص أولئك المؤرخين على تدوين احوال هذه الجالية بشكل واف ، وفي حين يكثرون من الإشارات لدور هذه الجالية في بعض الأحداث ، نجدهم أحيانا اخرى يغفلون ذكرها لفترات طويلة من الزمن .

ولذلك جاءت معلوماتنا عن هذه الجالية متناثرة في المصادر اليمنية والاسلامية الأخرى ، ومعظمها وارد بشكل عابر عند الحديث عن ظاهرة معينة أو حدث محدد. ومن المؤكد أن المؤرخين لم يكونوا يقصدون كتابة تاريخ مستقل لهذه الجالية عندما يذكرونها وإنما كان ذكرها يجيء في سياق أخبار تاريخية أخرى .

ما دفعنا لدراسة أحوال هذه الجالية هو ما لمسناه من دورها في صنع القرار السياسي في بعض الأحداث التاريخيةفي بلاد اليمن، وهيمنتها السياسية والاقتصادية على بعض المدن المهمة فيها . وليس من الصدف أن يبقى الأبناء طوال هذه الفترة محافظين على مصالحهم ومدافعين عنها في منطقة تعج بالنعرات القبلية والصراع على السلطة . وفي هذه الدراسة سوف نحاول تسليط الضوء على الأوضاع السياسية والاقتصادية للأبناء في بلاد اليمن منذ دخولهم البلاد عام ٥٧٥م الى نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وسيكون القسم السياسي مقسماً الىجزئين : الأول مخصص لدراسة أوضاعهم السياسية في الفترة السابقة لدخول الاسلام الى اليمن (٥٧٥ — ٦٣٢ م) ، والثاني أحوالهم السياسية في العصر الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، كما آثرنا أن نفرد جزءاً لتغطية أوضاعهم الاقتصادية .

تسميتهم بالأبناء :

أطلق المؤرخون الأوائل مصطلح الأبناء على أفراد الجالية الفارسية في بلاد اليمن ، والذين كانوا بالأساس يمثلون بقايا الجنود الفرس الذين أرسلوا على دفعتين الى هذه البلاد من أجل محاربة الأحباش وطردهم منها وتثبيت السلطة الفارسية فيها . ولم يتفق الباحثون على سبب اطلاق هذا المصطلح عليهم فذهبوا مذاهب شتى في تفسيراتهم ومنها أن هذه التسمية أطلقها عليهم سيف بن ذي يزن حين خطب قومه بعد انتصاره على الأحباش ، وأوصى في آخر خطبته خيراً بالجنود الفرس الذين كانوا معه واصفاً إياهم بأبنائه(٢) ، وذهب آخرون الى أن هذه التسمية تعنى فقط أبناء الجنود الفرس المنحدرين من أمهات يمنيات(٣) . ويورد بيوثروفسكي(٤) عددا من الافتراضات حول هذه التسمية دون)ن يعطي رأيا واضحا حولها ، فيذكر أنها ربما تكون على أبناء الفرس أو أبناء الاحرار ، أو أبناء الدهاقين ، ثم يقول : « وعليه فان المصطلحين أبناء وأبناء الاحرار غالبا ما كان يقصد بهما (حتما في الاوساط اليمنية) الفرس أنفسهم الذين استوطنوا في اليمن ، وفيما بعد ربما كان يقصد كذلك الجيل الثاني من أبنائهم المتزوجين باليمنيات » .

ولا شك أنه ليس من السهل الجزم في سبب هذه التسمية وكيف أتت ، وربما يكون هذا عائدا الى غموض المصادر الاولية حولها وندرة الاشارات الاخرى المتعلقة

بهؤلاء الفرس وحياتهم في بلاد اليمن . ولكن من خلال الاشارات القليلة ربما نستطيع أن نضع تصورا مبنيا على تصور من سبقنا من الباحثين حول ظهور هذا المصطلح .

ان مصطلح الابناء ليس غريبا على سكان الجزيرة العربية كما لم يكن خاصا بالجالية الفارسية في اليمن ، بل كان مستخدما عند بعض القبائل العربية وبعض الاقوام الاخرى . فبعض من ولد سعد بن زيد مناة بن تميم كانوا يعرفون بالابناء(٥)، كذلك سمي أحيانا المماليك المولودين في مصر وسورية بالابناء(٦) . ولا يختلف اثنان على أن هذا الاسم قد أطلق أيضا على أبناء الفرس في بلاد اليمن ، الا ان السؤال هنا : متى أطلق عليهم هذا المصطلح ؟ ولماذا ؟ .

من الملاحظ أن الفرس في اليمن كانوا يسمون بني الاحرار في السنوات الاولى من وجودهم هناك ، وهذا ما ورد في شعر ابن أبي الصلت الثقفي عند مدحه لسيف بن ذي يزن والفرس الذين معه(٧) . بل ان الفرس الاوائل انفسهم كانوا لا يذكرون مصطلح الابناء في اتفاقياتهم وعهودهم ، فعندما كتبوا حلفهم مع همدان قبل الاسلام نصوا على « الفرس في اليمن »(٨) . واذا كان مصطلح « الاحرار » يطلق على طبقة النبلاء من الفرس(٩) ، « فان الجنود الفرس في اليمن ، وان لم يكونوا من النبلاء ، قد أصبحوا بعد تغلبهم على الاحباش يمثلون عمليا الطبقة الحاكمة في هذه البلاد »(١٠) . ولكن هذا المصطلح لم يستمر طويلا ، فبعد انتشار الاسلام في بلاد اليمن بدأت المصادر تستبدل مصطلح « بني الاحرار » ، بمصطلح « الابناء » ، بل ان هذا المصطلح اصبح في تلك الفترة هو الغالب على أفواه الناس . كان الرسول (ص) وخلفاؤه لا يدعونهم في مراسلاتهم معهم الا بالابناء(١١) ، كما أن أهل اليمن أيضا بدأوا باطلاق هذا المصطلح عليهم منذ أواخر حياة الرسول (ص)(١٢) . كل هذا يؤكد لنا أنه في الفترة السابقة للاسلام كان الفرس يدعون بني الاحرار أو يشار اليهم بكلمة « الفرس » مطلقة ، اما في الفترة التي بدأ الاسلام خلالها في الانتشار فقد عرفوا بالابناء .

مما تقدم ، يتضح أن ما ذكره الباحثون من أن تسميتهم بهذا المصطلح قد أتت من قبل سيف بن ذي يزن ، أمر لا يتفق والواقع التاريخي . أما ما ذكره بعضهم من احتمال اطلاق هذا المصطلح على الفئة التي انحدرت من أب فارسي وأم يمنية فهو أيضا محل اختلاف . صحيح أن بعض الابناء قد انحدروا من آباء فرس وامهات يمنيات ، الا أن هذا لا يعني أن بعضهم لم يكن من أبوين فارسيين ، فهذا طاووس بن كيسان ، الابناوي ، كانت أمه من بنات فارس(١٣) . كما لا يعقل أن تجمع العرب في اليمن وخارجها على تسميتهم بالابناء بسبب أن بعضهم قد انحدر من أمهات يمنيات ، فنحن نعلم أن هذا المصطلح قد أطلق على المجموعتين سواء الذين انحدروا من أمهات يمينيات أو فارسيات . فالمعروف أن باذان عندما عقد حلفه مع همدان نص في اتفاقيته على ان

الحلف يشمل كل الفرس في اليمن ، وبعد مائتي عام نجد هذه الشمولية والاتصال بين أفراد هذه الجالية في الاقاليم اليمنية كافة ،وذلك عندما ثار النزاع بينهم وبعض العناصر المنافسة لهم في أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي(١٤). وبناء على ما تقدم فان مصطلح الأبناء ربما يكون قد جاء تمييزا لهذه الجالية في بلاد اليمن بسبب ارتباطها السياسي والاقتصادي والاجتماعي مع أهل اليمن حيث عدوا واقعا لا يمكن نكرانه خاصة بعد أن ارتبطوا ارتباطا عضويا مع بعض القبائل اليمنية ذات النفوذ سواء عن طريق المصاهرة أو عقد الأحلاف . اما اشتقاق هذا المصطلح فاما أن يكون اختصارا لأبناء الأحرار ، وهي التسمية الأولى لهذه الجالية ، أو أن يكون المقصود به أبناء الجنود الفرس ، أي الجيل الثاني ممن استقروا في بلاد اليمن من أفراد الجيش الفارسي(١٥) ، وربما يكون هذا هو الأقرب الى الصواب ، إذ أن كثيرا من المصادر حين تذكر مصطلح الأبناء تتبع ذلك بتوضيح أنهم أبناء الجنود الفرس الذين أتوا مع سيف ابن ذي يزن الى اليمن(١٦) .

احوالهم السياسية قبل دخول الاسلام الى اليمن :

كان دخول الفرس الى بلاد اليمن بناء على طلب الزعيم الحميري الثائر على الأحباش ، سيف بن النعمان بن عفير بن ذي يزن ، من كسرى أنو شروان ، المساعدة ضد الحكم الحبشي(١٧) ، فكانت موافقة كسرى على طلب سيف الخطوة الأولى في ادخال النفوذ الفارسي الى اليمن . وتجدر الاشارة الى أن موافقة كسرى على التدخل العسكري في بلاد اليمن انما جاءت بمحض الصدفة ولم تكن مخططا لها من قبل ، والدليل على ذلك تردد كسرى في أول الامر في تلبية طلب سيف ، ولما نصحه مستشاروه بالتدخل اكتفى بارسال سجنائه الى هناك ، إذ أدرك أن استجابته لطلب سيف لن تفقده شيئا بل انه في كلا الحالين ، نجاح سيف أو فشله ، سيكون رابحا ، وقد عبر عن ذلك احد مستشاريه حين قال : « أيها الملك ان في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل فلو أنك بعثتهم معه فان هلكوا كان الذي اردت بهم وان ظهروا على بلاده كان ملكا ازددته الى ملكك »(١٨) .

أبحرت القوة الفارسية من المدائن عبر دجلة ثم الخليج العربي حتى رست في ميناء مثوب في حضرموت(١٩) ، حيث نزل الجنود يتقدمهم قائدهم وهرز مع سيف بن ذي يزن . ولم تتفق المصادر حول عدد الجنود ، فقد أورد بعضها انه كان عند نزولهم ساحل حضرموت ستمائة جندي(٢٠) ، وذهبت مصادر أخرى الى أنهم كانوا ثلاثة آلاف وستمائة(٢١) . في حين ذكر ابن قتيبة(٢٢) سبعة آلاف وخمسمائة جندي . والفرق بين هذه الأرقام يجعلنا نقف قليلا لندقق في أصحها او بالأحرى اقربها الى الواقع .

والحقيقة أن الرقمين الأولين لا يتناسبان مع عدد الجنود الأحباش الذي كان ، حسب بعض الروايات يزيد على مائة الف جندي(٢٣) . كذلك فان هذين الرقمين لا يتناسبان مع بروز القائد الفارسي وجنوده خلال سير المعارك أو خلال الدخول الى صنعاء وتتويج سيف(٢٤) ملكا . واذا صحت الرواية بأن سيف بن ذي يزن استطاع أن يجمع من حوله بشرا كثيرا من قومه عند نزوله الى ساحل حضرموت(٢٥) ، فهذا يعني أن العددين الأولين (٦٠٠ — ٣٦٠٠) للجنود الفرس يوحيان بأنه لم يكن لهم أثر في انتصار سيف وبالتالي لم يكن لهم اثر ملموس في السلطة أو اتخاذ القرار في بلاد اليمن . لذا ، فاذا قبلنا بما ورد في المصادر عن أعداد الجنود الأحباش ، وعن قلة أنصار سيف بن ذي يزن من قومه ، واذا سلمنا ببروز القوة الفارسية ، في المعارك ثم تحكم قائدها ، وهرز ، في القرار السياسي ، فان المنطق السليم يحتم علينا ان نقبل ونحن مطمئنين بان القوة الفارسية التي أتت مع سيف (لا بد وأن تكون قوة ضخمة مكونة من عدة آلاف) من الجنود ، وبالتالي تكون الرواية التي جعلتهم سبعة آلاف وخمسمائة جندي هي الأقرب الى الواقع .

لقد صورت لنا الروايات كيفية انتصار القوات الفارسية والحميرية على جنود الحبشة ، وقتل ملكهم مسروق ابن ابرهة الأشرم ، ثم زحف هذه القوات على صنعاء، عاصمة اليمن ، والسيطرة عليها(٢٦) . وبالرغم من أن هذه الروايات كانت شحيحة في عرضها لسير المعارك إلا انها اكدت في أكثر من مناسبة على هيمنة القيادة الفارسية ، ليس على سير المعارك فحسب بل تجاوزتها الى التحكم في تعيين من تراه مناسبا لحكم اليمن . فقد سجل لنا النويري(٢٧) ، رواية قال فيها : « وكتب وهرز الى كسرى بالفتح ، فرد عليه قائلا : اسأل عن سيف بن ذي يزن ، فان كان من ابناء الملوك اقره على ملكه وانصرف عنه ، وان لم يكن من أبنائهم فاضرب عنقه واقم في الأرض متوليا لها » ، أما ابن اسحاق(٢٨) ، فيؤكد على أن وهرز لم يسلم اليمن لسيف إلا بعد جاءه جواب كسرى بالموافقة على تنصيب سيف ملكا والزامه بدفع الجزية والخراج . وقد تم ذلك ، حسب رأي بعض الباحثين ، في عام ٥٧٥م(٢٩) .

وحسب القول أن موافقة كسرى انو شروان على تنصيب سيف ملكا على اليمن لم تكن تعني رفع يد الفرس عن هذا الاقليم ، بل تعني تأكيد نفوذهم فيه . ولا غرو في ذلك فالشروط التي اشترطها كسرى على سيف عند تلبيته لطلبه ، من اقامة جنوده هناك والسماح لهم بالزواج من اليمنيات(٣٠) ، ثم الزامه بدفع الخراج ، الى جانب تتويجه من قبل ممثل كسرى ، تبرهن على قوة النفوذ الفارسي هناك . وقد كان سيف ابن ذي يزن يدرك هذا الامر ويدرك هيمنة الفرس على الوضع منذ الوهلة الأولى لدخولهم اليمن ، لذا عندما تمت هزيمة الأحباش وتقدمت القوة الفارسية الى صنعاء

أظهر سيف ما في نفسه قائلا : « ذهب ملك حمير الى آخر الدهر ، لن يرجع اليهم أبدا »(٣١) . وبالرغم من أن سيف أصبح ملكا على بلاد اليمن ، الا أنه في نظر الادارة الفارسية لم يكن أكثر من وال على هذه البلاد(٣٢) وكان وضعه مشابها لوضع المناذرة في العراق(٣٣) . وحرصا منه على بقاء سلطته في بلاد اليمن ، ترك كسرى جنوده هناك تحت إمرة قائد عينه وهرز قبل رجوعه الى فارس ، وظلت تلك القوة ، بالرغم من عدم ظهور أي نشاط لها أثناء حكم سيف ، تراقب الموقف وتضمن المصالح الفارسية في هذه البلاد . لذا لم يتجاهل الشعراء العرب الذين وفدوا على سيف بن ذي يزن لتهنئته بالانتصار على الحبشة ، الدور الفارسي والاشادة بالفرس(٣٤) . ويبدو أن القوة الفارسية التي ظلت في صنعاء ، بعد تتويج سيف ملكا ، كانت قوة مستقلة لها قائدها مرتبطا مع الادارة الفارسية مباشرة ، أما سيف بن ذي يزن فقد أضحى ملكا على اليمن في نظر القبائل العربية ، وواليا عليها في نظر الادارة الكسروية ، ولم يكن كسرى آنذاك يريد من سيف أكثر من أن يكون راعيا وحافظا لمصالح الفرس في هذا الاقليم . لذا عندما قتل سيف بيد غلمانه الأحباش عام ٥٧٨م ، تدخلت القوات الفارسية الموجودة في صنعاء على الفور لاحتواء الموقف ، وفي الوقت نفسه أرسل قائدها رسالة الى رؤسائه في فارس يخبرهم عن هذا الحدث ، ولشدة حرص الادارة الفارسية على مصالحها هناك ، أعطى كسرى أوامره على الفور لقائده وهرز بالتحرك الى اليمن وأمده بأربعة آلاف فارس ، شقوا طريقهم برآ بسرعة فائقة للحاق باليمن وضبط أمورها (٣٥) . وكان هذا العام ٥٧٨م ، هو العام الذي نستطيع أن نعتبره بداية السيطرة الفارسية المطلقة على بعض المناطق اليمنية ، وقد استمرت هذه السيطرة الفارسية حتى جاء الاسلام وسيطرت القوة الاسلامية على صنعاء في بداية خلافة أبي بكر الصديق . وخلال هذه الفترة التي تجاوزت الخمسين عاما (٥٧٨–٦٣٢ م) هيمن الأبناء على بعض المناطق اليمنية ، وتسلسل ولاة كسرى تباعا على هذه البلاد ، وأضحى الأبناء من أهم القوى السياسية ، إن لم نقل أهمها ، في بلاد اليمن آنذاك .

ويبدو أن السنوات الاربع (٥٧٥ – ٥٧٨ م) التي تواجد خلالها الفرس في بلاد اليمن ابان فترة سيف بن ذي يزن جعلتهم يحرصون على بقائهم فيها ، ولذا ما أن جاءتهم الاخبار بمقتل سيف حتى دفعوا بقواتهم الى هناك . وفي هذه المرة قرر كسرى جعل هذه البلاد تابعة له مباشرة وعين واليا عليها من أبناء فارس ، وكان وهرز – قائد الحملتين الأولى والثانية – هو أول الولاة الفرس في بلاد اليمن(٣٦) . ولسوء الحظ فان المصادر التاريخية قد قصرت ، كعادتها ، في تسليط الضوء على الحياة السياسية لبلاد اليمن خلال فترة الحكم الفارسي ، ولم تحفظ لنا إلا نتفاً من أخبار الأحداث التي كانت تقع في هذه البلاد بين الحين والآخر . وأمام هذه الندرة من الاشارة التاريخية،

يقف الباحث متسائلا ، هل كان الفرس يحكمون الاقاليم والقبائل اليمنية كلها ؟ أم أنهم حصروا نفوذهم في بعض المناطق اليمنية فحسب ؟

من خلال قراءة تاريخ اليمن إبان هذه الفترة (٥٧٨ – ٦٣٢م) ، يتضح بأن اليمن آنذاك شهدت ظهور زعامات محلية ذات سيادة مستقلة على مناطقها ، برز منها ثمانية زعماء عرفوا في التاريخ اليمني ، بالمثامنة(٣٧) ، وكان هؤلاء أشبه ما يكونوا بحكام الطوائف(٣٨) .والى جانب هؤلاء كانت هناك زعامات أخرى مستقلة مثل زعماء نجران ، وهمدان ، ومذحج ، وكنده وبعض القبائل ذات المنعة ، إذ لم نجد في مصادرنا ما يؤكد سيطرة الفرس عليها مع التزام بعض العناصر اليمنية بدفع الخراج الى الوالي الفارسي(٣٩) ، وربما تكون هذه العناصر من سكان الاقاليم التي كانت تحت سيطرة هذا الوالي . وعليه فان الفرس لم يكن لديهم سيطرة كاملة على كافة الاقاليم والقبائل اليمنية آنذاك . وجوابنا بالنفي على السؤال الاول يعني بالضرورة تأكيدنا على أن سلطة الفرس قد حصرت في أماكن محددة من هذه البلاد . ولا يختلف اثنان على أن مدينتي صنعاء وعدن كانتا تداران من قبل الادارة الفارسية ، لا يشاركها في ادارتها أي من الزعامات اليمنية ، ولـذا كان العرب يعتبرون هاتين المدينتين ارض مملكة لا يحتاجون الى أي خفارة عند دخولهم اليها أثناء اقامة الاسواق هناك ، إذ كان الأبناء يقومون بحماية من فيها ومقابل هذه الحماية يأخذون العشر من التجار(٤٠) . وحسبنا أن نقول أن سيطرة الأبناء على هاتين المدينتين لا يعني عدم وجودهم في باقي المدن والاقاليم اليمنية ، بل على العكس من ذلك فان أعدادا منهم قد تركزوا في مدن وقرى يمنية أخرى . فمن المعروف أن كثيرا منهم كان نازلا مدينة ذمار(٤١) ، ومنهم مجموعات أخرى سكنت في بعض القرى الواقعة في المناطق الزراعية ، كما حرصوا على أن يتواجدوا في المناطق ذات الثروات الطبيعية(٤٢) .

ومن الملاحظ أن المصادر قد اختلفت في عدد الولاة الفرس على بلاد اليمن . ففي حين يذهب الطبري مستندا على رواية ابن اسحاق على أنهم خمسة من الولاة ، يرى المسعودي بأنهم ثمانية(٤٣) ، ومع أن هذين المصدرين قد اختلفا في الأعداد ، إلا أنهما اتفقا على أن أول الولاة كان وهرز وأن آخرهم كان باذان بن ساسان . ونحن نقف حائرين أمام هذا الاختلاف ، ولا تسعفنا المصادر باشارات مؤكدة نستند اليها لترجيح احدى هاتين الروايتين . ان فترة الأربعة والخمسين عاما (٥٧٨ – ٦٣٢) ، التي شهدت ولاية هؤلاء فترة ليست بالقصيرة ، وخاصة اذا وضعنا في الاعتبار أن أولهم وهرز ، قد مات بعد عام من توليه على اليمن (٥٧٩)(٤٤) . واذا صحت رواية ابن اسحق أن منصب الولاية على اليمن قد احتكر لوهرز وأبنائه من بعده(٤٥) ، باستثناء باذان ، فان ذلك يبرر القول بأن كسرى قد أقطع وهرز بعض أقاليم هذه البلاد مقابل حفظ مصالحه هناك ودفع خراجها اليه ، خاصة وأن وهرز هذا كان احد أفراد

الأسرة الحاكمة في فارس(٤٦) . لذا عندما غضب كسرى على آخر من تولى اليمن من احفاد وهرز ، المدعو خرخسره واستدعاه الى المدائن ، تدخل عظماء فارس لحمايته ، فلم يستطع كسرى غير خلعه عن اليمن وتولية باذان بن ساسان ، وهو رجل لا يمت بصلة الى آل وهرز(٤٧) .

كانت الفترة التي تولى بها وهرز وابناؤه اليمن فترة غير واضحة المعالم ، فلم نر في مصادرنا اشارة الى نشاط الابناء وأوضاعهم هناك ، وقد لا نجد تفسيرا لهذا الغموض غير القول ان فترة تولي هذه الأسرة قد شهدت هدوءا ، الامر الذي جعلها مستقرة في اقطاعها طوال هذه الفترة . وخلع كسرى لآخر ولاة الاسرة المدعو «خرخسرة» ومحاولته قتله كان حتما بسبب خروج هذا الوالي عن خط آبائه وأجداده في علاقتهم مع امبراطور فارس ، وربما يكون كسرى قد أزعجه تعرب « خرخسره » وميله الى العرب وثقافتهم(٤٨) فخشي أن يستقطب القبائل اليمنية ويستقل بالبلاد . لقد كان خلع خرخسره وتولية باذان على اليمن بداية مرحلة جديدة لتاريخ الأبناء في بلاد اليمن وعلاقتهم مع القبائل اليمنية .

لم تفصح المصادر عن العام الذي تولى فيه باذان اليمن ، وكل ما ذكرته حوله هو أن توليته جاءت في عهد كسرى ابرويز(٤٩) . وربما كان بازان من اقليم اصطخر ، احد الاقاليم المعروفة في فارس ، اذ ذكرت بعض المصادر بأن داذوية الأصطخري كان ابن اخيه(٥٠) ، إلا انه من المؤكد انه قد حصل على لقب المرزبان ، وهو لقب يعني بالفارسية القائم على الثغر(٥١) .

إن الفترة الواقعة بين ولاية هرز ٥٧٨م حتى موت باذان عام ٦٣١م ، كانت بلا شك العصر الذهبي للقوة الفارسية في بلاد اليمن ، خلالها غدا الأبناء من أهم ، ان لم نقل اهم ، القوى المحلية في هذه البلاد . ولم تكن قوة الأبناء طوال هذه الفترة ثابتة ، بل نعتقد أن بدايتها لم تكن كنهايتها ، فالأبناء الذين اتوا مباشرة بعد مقتل سيف وهيمنوا على الاوضاع هناك كانوا مؤسسي هذه القوة التي يبدو انها استمرت الى شطر من ولاية باذان . أما الشطر الثاني من ولاية باذان فقد تدنت قوة الأبناء خلالها ، لكن ليس للدرجة التي تجعلهم غير قادرين على حماية مصالحهم . ان المتتبع للتاريخ الساساني ابان هذه الفترة يدرك تماماً ان حالة التدهور التي كانت تمر بها الدولة في مطلع القرن السابع الميلادي ، نتيجة الصراع على السلطة(٥٢) من ناحية ، وحروبهم مع بيزنطة من ناحية أخرى(٥٣) ، قد ظهرت آثارها على سلطة الأبناء وهيبتهم في بلاد اليمن . فبدأنا نسمع لأول مرة عن تكتل القبائل المجاورة لاقليم صنعاء ضد سلطتهم . ففي منطقة مذاب ، احد أودية الجوف المعروفة ، اجتمع بعض زعماء قبائل مذحج واتفقوا على غزو مركز القيادة الفارسية في صنعاء(٥٤) . ويذهب

بيوتروفسكي(٥٥) الى أن هذا الاجتماع قد تم في بداية القرن السابع الميلادي ، لكنه لا يعطي مصدرا لهذا التحديد ،كما أنه لا يوجد في مصادرنا ــ حسب علمنا ــ ما يناقض ما ذهب اليه بيوتروفسكي .

لقد كانت ردة الفعل على هذا التجمع قوية عند باذان وقومه الأبناء الذين ما أن جاءتهم الأخبار حتى تجهزوا للقاء القوة المذحجية وشاركتهم هذا الحماس جارتهم قبيلة همدان ، فقادهما الى عقد اتفاقية حلف بينهما ، عرفت في التاريخ بحلف همدان والأبناء . ولحسن الحظ ان هذه الاتفاقية قد حفظت لنا في بعض المصادر اليمنية(٥٦)، فهي الى جانب أنها تؤكد طبيعة العلاقة بين الأبناء وهمدان ، فانها تعكس لنا أوضاع الأبناء السياسية وعلاقاتهم مع القبائل اليمنية خلال فترة ولاية باذان .

ولا شك ان تجرا القبائل المذحجية على غزو مركز السلطة الفارسية في صنعاء لأكبر دليل على أن القوة الفارسية لم تعد على سابق عهدها من القوة والهيبة ، لذا اصبحت هدفاً للغزوات المحلية .

ويبدو أن الأبناء في اليمن بدأوا يفكرون في هذه المرحلة في تأمين مصالحهم وتدعيم نفوذهم في البلاد دون الاعتماد على الدعم الفارسي . ولا شك أن الظروف كانت مواتية كي يعملوا على تعزيز قوتهم في البلاد ، فالصراع القبلي هناك كان قد وصل الى ذروته خلال السنوات السابقة للاسلام ، كما كان التنافس بين قبائل الجوف والاقاليم القريبة من صنعاء على اشده ، فدخلت قبائل المنطقة مثل قبائل همدان وخولان ومذحج في صراع مرير(٥٧) ، نتج عنه بروز بعض التحالفات في المنطقة ، كان أهمها حلف همدان والابناء الذي أشرنا اليه . ولا شك أن ارتباط الأبناء مع همدان في هذا الحلف كان نابعاً من ادراكهم بأن بقائهم في اليمن في هذه المرحلة أمر مرهون باستفادتهم من التناقضات السياسية بين القبائل . لذا عندما عرض عليهم الهمدانيون الدخول معهم في خلف لم يترددوا في القبول بل تباشروا فيه واجتمع زعماؤهم مع زعماء همدان ــ من حاشد وبكيل ــ وكتبوا الاتفاقية بينهم(٥٨) . ولعل هذه النقطة بالذات تبرهن على احساس الأبناء بالوحدة في مجتمع قائم على العصبية القبلية لذا كانت علاقتهم مع همدان علاقة حميمة على مر العصور .

وبالرغم من قناعتنا بأن الأبنـاء كانوا في أمس الحاجة الى مثل هذا الحلف ، إلا انهم كانوا شديدي الافتخار بقوتهم ، لذا عاملوا حلفاءهم الجدد معاملة الند للند ، فالاتفاقية بينهم استهلت بالبسملة العربية والفارسية معاً ، فدمجوا قول العرب « باسمك اللهم » مع قول الفرس « باسم ولي الرحمة والهدي » جملة واحدة لتثبت في مستهل الاتفاقية بهذه الصيغة « باسمك اللهم ولي الرحمة والهدى »(٥٩) . وحسبنا أن نقول بأن الابناء بحلفهم مع همدان وعلاقتهم الحميمة مع خولان العالية قد كسبوا

حليفاً لهم على الشدائد واستطاعوا أن يتجاوزوا أزمتهم بتوقف الدعم الفارسي لهم نتيجة الأزمات السياسية التي كانت تمر بها بلدهم الام آنذاك . ولقد استطاع الأبناء بقيادة زعيمهم باذان أن يحافظوا على سلطتهم في صنعاء وعدن حتى بدأ الاسلام يتغلغل بقوة في بلاد اليمن فوجدوا في اعتناقهم له مخرجا من محنتهم في صراعهم مع قبائل مذحج في مطلع العام الحادي عشر للهجرة ، ٦٣٢م ، كما سوف نبين في الصفحات التالية .

ـ أحوالهم السياسية بعد دخول الاسلام الى اليمن :

لقد سبق وأن ناقشنا موقف الابناء من الاسلام ، وعلاقتهم مع الدولة الاسلامية، ثم اسلامهم ، ووصلنا الى أن الابناء باليمن قد دخلوا الاسلام رسميا في الفترة التي كان عبهلة عن كعب ، المتنبىء ، مسيطرا خلالها على صنعاء ، من محرم الى ربيع الاول من العام الحادي عشر للهجرة الموافق ابريل ـ يونيو ٦٣٢م(٦٠) . لقد أثبت الأبناء خلال الاحداث التي شهدتها صنعاء في مطلع هذا العام انهم ليسوا القوة الرئيسية في هذه المدينة فحسب بل انهم أيضاً أصحاب السلطة فيها ، لذا عندما غزاها عبهلة بن كعب وقبائل مذحج كانوا هم الذين تصدوا له وحين أراد قيس بن عبد يغوث السيطرة على المدينة بعد مقتل عبهلة كانوا الذين حملوا لواء المعارضة ضده وأطاحوا به(٦١) .

ان اختيار الخلافة لصنعاء مقرا لولاتها في بداية عهد أبي بكر ألغى رسميا السلطة الفارسية في هذه المدينة ، فأضحى الابناء ضمن سكانها ، الا أنهم ظلوا يتمتعون بنفوذهم السياسي فيها طوال فترة ناهزت الخمسين عاما . ولم يكن بقاء نفوذهم السياسي في هذه المدينة في القرن الاول الهجري ، الا امتدادا طبيعيا لقوتهم في هذه المدينة طوال الخمسين عاما السابقة للاسلام .

وتجدر الاشارة الى انه طوال فترة الخلفاء الراشدين (١١ ـ ٤٠ هـ) لم تسند ولاية صنعاء لاي من الابناء الذين ابعدوا عن ادارة شؤون المدينة ، بل أسندت الى ولاة كلهم من قريش وحلفائها(٦٢) . ويبدو أن الخلفاء كانوا يدركون أن تعيين أي من الابناء على الولاية في صنعاء ربما يثير العناصر الأخرى في المدينة ، خاصة مذحج وانصارها ، فالصراع بين الجانبين لم تمح آثاره في هذه الفترة . كما أن الابناء انفسهم لم يبدوا أي تحفظ على ابعادهم من ادارة المدينة ، فقد كفاهم أن ادارتها قد آلت الى جهة محايدة تحفظ لهم على الأقل حقوقهم(٦٣) . ولكن الابناء رغم خروج السلطة من أيديهم ظلوا مؤثرين في القرار السياسي في صنعاء خلال عهد الخلفاء الراشدين . فعندما امتد الصراع الهاشمي الأموي الى اليمن في مطلع العام الاربعين من الهجرة، باتت قوة الابناء في صنعاء ، حين طلبه والي علي بن أبي طالب هناك ، عبيد الله بن

العباس ، مساعدتهم لصد الجيش الأموي بقيادة بسر بن ابي أرطأة العامري الزاحف الى المدينة ، فلما رفضوا طلبه لم يكن أمامه من خيار غير الهروب من المدينة وتركها للقوة الأموية(٦٤) . ولا شك أن عبيد الله بن العباس لم يطلب المساعدة من الأبناء إلا لإيمانه بأنهم فقط من سكان صنعاء المؤهلين لنصرته والدفاع عن المدينة(٦٥) ، لذلك كان رفضهم لطلبه نهاية الأمر بالنسبة اليه .

ولم تعط المصادر تبريراً واضحاً لتخلي الأبناء عن نصرة عبيد الله بن العباس ، بالرغم من أن بعضهم كان يتشيع لعلي بن أبي طالب(٦٦) ، كما أن هذه المصادر لم تفصح عن طبيعة العلاقة بين الأبناء وبني أمية في هذه الفترة . ولكن الروابط المتينة التي برزت بعد ذلك بين معاوية بن أبي سفيان وزعماء الأبناء في صنعاء ، خاصة فيروز الديلمي ، تجعلنا نعتقد أن زعماء الأبناء في هذه المدينة قد بدأوا يراقبون الموقف وما يدور من صراع بين القوتين الهاشمية والأموية ، ولما رأوا أن كفة بني أمية هي الراجحة، خاصة بعد التحكيم عام ٣٨هـ ، وبعد امتداد نفوذ الأمويين الى مصر وبعض أجزاء العراق والحجاز ، وجدوا أن تعاطفهم مع بني أمية سيعطيهم أملاً في الحصول على ولاية صنعاء واستعادة شيء من نفوذهم السياسي السابق في هذه المدينة . ولشدة تعاطفهم مع القوى الأموية فقد تخلى زعماؤهم عن نصرة وحماية أبناء جلدتهم الذين قتلهم بسر بن أبي أرطأة نتيجة تشيعهم لعلي بن أبي طالب(٦٧) . وكنتيجة لهذا التعاطف كافأهم معاوية بأن خصهم بولاية صنعاء والجند معاً طوال فترة خلافته، وبهذا استعاد الأبناء ، لبعض الوقت ، سلطتهم على المدينة التي فقدوها أكثر من ثلاثين عاماً (١١–٤٢ هـ)كولاة للخلافة الأموية(٦٨) .

وكان موت معاوية بن أبي سفيان عام ٦٠ هـ بداية انحدار سلطة الأبناء في صنعاء فأبعدوا من الولاية في عهد خليفته يزيد الذي أقطع اليمن كله الى بحر بن ريسان الحميري مقابل مبلغ من المال وبعض العبيد(٦٩) . وفي خلافة عبد الله بن الزبير (٦٤–٧٣ هـ) تعاقب على ولاية اليمن تسعة من الولاة اثنان منهم فقط من الأبناء(٧٠). وبعد هذا التاريخ أسقط الأبناء نهائياً من قوائم ولاة اليمن ، ولم تشر المصادر –التي بين أيدينا – الى تولي أي منهم بعد ذلك .

ولم يكن هناك مجال للأبناء أو لغيرهم من أهل صنعاء لتولي الولاية إبان خلافة بني مروان وسيطرتهم على اليمن (٧٣–١٣٢ هـ) ، فقد كان خلفاؤهم يرسلون الولاة من دمشق ، ومعظمهم من آل أبي عقيل الثقفيين أقرباء الحجاج بن يوسف(٧١) . إلا أن هذا لم يمنع بأن يولى بعض الأبناء وظائف اخرى في صنعاء والجند ، إذ تولى وهب بن منبه بيت مال اليمن والقضاء معاً أيام عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ)(٧٢) كما تولى طاووس بن كيسان ثم ولده عبد الله من بعده القضاء لبني مروان(٧٣) . اما من

الناحية السياسية فقد انطفأت نارهم في هذه الفترة ولم يذكر لهم أي دور في الاحداث السياسية التي طرأت على صنعاء ، كمحاولة محمد بن يوسف الثقفي ، والي صنعاء ، حرق المجذومين ، أو اقتحام الأباضية صنعاء وسيطرتهم عليها عام ١٣٠هـ(٧٥) .

وبتولي العباسيين الخلافة عام ١٣٢هـ ، برزت في صنعاء بعض الأسر القحطانية تزعمتها أسرة آل شهاب ، وترجع بنسبها الى حمير(٧٦) ، تصدت للأبناء ونجح زعماؤها في تصدر الزعامة الصنعانية قرابة قرن من الزمان(٧٧) . ويبدو أن الأبناء قد حاولوا الظهور سياسيا خلال هذه الفترة الا أنهم لم يفلحوا ، فقد بدأ الخلاف يظهر بينهم وبين منافسيهم في صنعاء من الأسر الحميرية ، وأدى هذا الخلاف الى الصراع على ملكية الرحبة ، وهي المنطقة الواقعة شمال صنعاء ، مما اضطر والي الخلافة ، علي بن الربيع ابن عبد المدان عام ١٣٣هـ ، الى التدخل وحل الخلاف(٧٨) .

ويبدو أن تولي عناصر كثيرة من قحطان ولاية صنعاء في العصر العباسي الأول(٧٩) كان وراء بروز آل شهاب في هذه المدينة وتغلبهم سياسيا على الأبناء ، وبالتالي كان سببا مباشرا في اثارة العصبية بين الطرفين في أكثر من مناسبة . وقد كان لتحيز القحطانية ضد الأبناء نتائج وخيمة على الوضع الاجتماعي والسياسي في صنعاء ، ومن اهمها اظهار الأبناء عصبيتهم الفارسية ومجاهرتهم بها خلال ولاية محمد بن خالد بن برمك (١٨٣ـ١٨٤هـ) ، الفارسي الأصل ، لأول مرة في تاريخ اليمن الاسلامي . ويبدو أنهم رأوا في تعيين ابن برمك متنفسا لهم فجاهروا بفارسيتهم ونظم شعراؤهم القصائد في مدح البرامكة واظهار مآثرهم(٨٠) وهذا الاندفاع من الأبناء يعكس ردة فعلهم الشديدة في صراعهم مع العناصر القحطانية ، التي جعلت أحد فقهائهم الكبار وقاضي صنعاء في ولاية حماد البربري هشام بن يوسف الأبناوي (١٨٤ـ١٩٤هـ) يستغل القضاء للنيل من القحطانية(٨١) .

وعلى الرغم من أن المصادر لم توضح ممارسات الأبناء واستغلالهم لفترة ولاية محمد بن برمك في تدعيم موقفهم في صنعاء ، الا ان ما أعقب هذه الفترة من سخط العناصر القحطانية عليهم دليل واضح على مضايقة الأبناء لهم خلال تلك الفترة . ويبدو أن ردة الفعل القحطانية اختمرت في أذهان سكان صنعاء منهم طول ولاية حماد البربري والواليين الحجازيين بعده ، حتى اذا ما عيّن يزيد بن جرير البجلي عام ١٩٦هـ ، من أحفاد خالد القسري المعروف بتعصبه لقحطانيته ، شن القحطانية هجوما منظما على الأبناء يقوده والي الخلافة نفسه . فقد أذل هذا الوالي الأبناء اذلالا كبيراً لفت نظر المؤرخين لدرجة انه أجبر كل من تزوج منهم من نساء قحطان على طلاق زوجته(٨٢) . ولضعف هؤلاء لم يستطيعوا عمل شيء تجاه هذا الوالي إلا تسريب خبر للخليفة المأمون(٨٣) الذي كان في تلك الفترة أقرب قلبا آلى الفرس(٨٤) . فكان قرار الخليفة في

هذه القضية صارما وعين في الحال عمر بن ابراهيم العمري ، وهو عدناني من آل عمر بن الخطاب ، وأمره بالقبض على يزيد ومعاقبته على أعماله(٨٥) . وقد اتضح بجلاء ضعف الأبناء في صنعاء من خلال بعض الحوادث اللاحقة التي طرأت على هذه المدينة، وصل بهم الى درجة انهم لم يجرؤوا على دفن أحد علمائهم ، عبد الملك بن عبد الرحمن الذي قتله عيسى بن ماهان والي صنعاء عام ٢٠٠ هـ بسبب قبوله منصب القضاء لابراهيم بن موسى الكاظم عند سيطرة الأخير على صنعاء في مطلع العام نفسه(٨٦) . وكعادة المصادر اليمنية في عدم اعطاء تبرير لتغير المظاهر العامة لأوضاع اليمن واليمنيين ، لم تبين أسباب ظاهرة تدني النفوذ السياسي للأبناء في مدينة صنعاء بعد عهد معاوية وازاحتهم نهائيا من منصب الولاية بعد خلافة ابن الزبير ، ثم عدم قدرتهم حتى عن الدفاع عن أنفسهم في هذه المدينة . وامام هذا الغموض لن يكون امامنا إلا تصيد الاشارات المتناثرة هنا وهناك مع الوضع العام لبلاد اليمن آنذاك لعلنا نجد ما يبرر هذه الظاهرة وتحولهم الى فئة ضعيفة .

كانت الأوضاع السياسية للجزيرة العربية والأقاليم المحيطة بها في مقدمة هذه الأسباب ، فانتشار الاسلام خارج دائرة الحجاز في الجزيرة العربية وخارجها اثر على وضع الأبناء السياسي في بلاد اليمن . فعاصمتهم ومركز قوتهم صنعاء اصبحت مدينة اسلامية حتى ولو في حالة تولي ادارتها أحدهم ، والامبراطورية الفارسية التي بسببها تواجد الأبناء في اليمن قد سقطت وولى عهدها ، وسقوطها في يد الدولة الاسلامية يعني بالضرورة عدم تفكير الأبناء في بلاد اليمن نهائيا باعادة سلطتهم القديمة على صنعاء وغيرها من الأماكن هناك ، ولكنهم في المقابل اطمأنوا على انفسهم واموالهم من اي عدوان داخلي بعد أن أصبحوا من رعايا الدولة الاسلامية واخذوا يمارسون حقوقهم في البلاد كباقي اليمنيين . هذا الى جانب اسباب أخرى اثرت مباشرة او غير مباشرة على تدني النفوذ السياسي للأبناء في بلاد اليمن عامة ، وصنعاء خاصة . من هذه الأسباب :

اولا : رحيل بعض العناصر منهم عن بلاد اليمن واستقرارهم في البلاد المفتوحة، وكان خروجهم إما بدافع المشاركة في الفتوح الاسلامية(٨٧) او بدافع طلب العلم(٨٨). ولكونهم جالية محدودة لا عصبية لها فان رحيل بعض العناصر منهم اثر على وضعهم ، حتى ولو قلّ عدد المرتحلين .

ثانيا : ان وفاة زعماء الأبناء السياسيين والمخضرمين منهم من امثال فيروز الديلمي(٨٩) ، والنعمان بن بزرج(٩٠) كان لها أكبر الأثر على تدني وضعهم السياسي ، خاصة أن زعماءهم من الجيل التالي كانوا أقرب الى الفقه والعلم منهم الى السياسة والادارة(٩١) .

ثالثا : ان استقرار الأوضاع السياسية في صنعاء واختيارها مركز الولاة المسلمين شجع الكثيرين من أبناء القبائل المجاورة على النزوح اليها والاستقرار فيها ، فتجمعت فيها الجاليات الأخرى من الموالي وغيرهم لتشكل كتلا سياسية واجتماعية جديدة . وقد أدى هذا الى اختلاف التركيبة السكانية في صنعاء والى تدني مكانة الأبناء مع مرور الزمن ليصبحوا ، بعد أن كانوا متصدرين القيادة السياسية في هذه المدينة ، مجرد مجموعة من أربع مجموعات رئيسية تقدم كل منها عريفا من عرفاء المدينة الأربعة(٩٢) .

وحسبنا أن نقول أن العوامل السالفة الذكر والتي أدت الى انكماش نفوذ الأبناء في صنعاء ، قد أدت في الوقت نفسه الى بروز زعامات أخرى في المدينة فظهر آل شهاب من الحميريين وهم أعداء الأبناء التقليديون ليتصدروا مجتمع صنعاء سياسيا طوال العصر العباسي الأول . لذا لم نعد نرى في مصادرنا اشارات الى دور سياسي بارز لهم في أحداث صنعاء بعد سقوط خلافة ابن الزبير عام ٧٣هـ . وابتداء من غزو الأباضية لصنعاء عام ١٣٠ هـ وسيطرتهم عليها ، مرورا بدخول العلويين اليها في نهاية القرن الثاني الهجري ، ومحاولات اليعفريين السيطرة عليها حتىهجمات الزيدية والاسماعلية على المدينة في أواخر القرن الثالث الهجري لم يكن للأبناء أي دور يذكر خلال هذه الأحداث ولا نفوذ سياسي ملموس ، ومن أورد ذكرهم من المؤرخين فانما كان يشير اليهم على أنهم كانوا في هذه الفترة من دهماء صنعاء وليس من زعمائها . ولا غرو ، فحلقات الصراع المتصلة بينهم وبين القحطانية في صنعاء أدت بالنهاية الى تفتيت قوتهم وازالة هيمنتهم ، وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري لم يبق لهم قوة يستندون اليها ، فالامبراطورية الفارسية ولت منذ زمن ، والفرس المسيطرون على البلاط العباسي في عهد الرشيد وابنه المأمون استبدل بهم عناصر تركية ، وحلفاؤهم من القبائل اليمنية انشغلوا في حروب مذهبية وقبلية ، فلم يعد لهم إلا الانطواء والابتعاد عن المسرح السياسي في بلاد اليمن .

أحوالهم الاقتصادية قبل الاسلام وبعده :

لم تكن اليمن موضع اهتمام الادارة الفارسية بالرغم من قناعتها بأهميتها بالنسبة للتجارة الدولية آنذاك ، فبعد اليمن عن فارس وقربها من الحبشة جعل الادارة الفارسية تغض النظر عن غزوها . لكن عندما عرض سيف بن ذي يزن الفكرة وأرسل كسرى سجناءه الى هناك ، لم يكن شديد الاهتمام بنتائج هذه الحملة . إلا أنه بعد نجاحها وسيطرة جنوده على اليمن أدرك سهولة السيطرة عليها كما أدرك اهميتها من الناحية التجارية والاقتصادية . وحماسته لارسال أربعة آلاف جندي بعد مقتل سيف ابن ذي يزن دليل على ذلك .

أدركت الادارة الفارسية بعد وصولها الى اليمن اهميتها ، وان بقاءها فيها يعني سيطرتها على طريق التجارة البيزنطية مع الهند وشرق آسيا ، وطريق تجارة الحرير الذي كان الأباطرة البيزنطيون يحرصون على الحفاظ عليه من سنوات(٩٢) . وكان ذلك من أهم الأوراق التي لعبت بها فارس ضد عدوها اللدود بيزنطة ، ولهذا السبب أعطى الفرس اهمية كبيرة لموانىء اليمن ، وخاصة ميناء عدن الذي أضحى ميناء تابعا من الناحية الادارية والسياسية للقوة الفارسية في اليمن(٩٤) .

والامر الآخر الذي أفاد منه الفرس بدخولهم اليمن هو الثروات الطبيعية التي لم يكونوا على ما يبدو ، يتوقعون غزارة انتاجها وكثرتها في هذه البلاد . فقد ذكر ابن اسحاق بأن سيف بن ذي يزن رغّب كسرى في بلاد اليمن وفضتها عندما لم يتحمس الأخير لمساعدته ضد الأحباش(٩٥) . وقد أشار ابن الكلبي الى أن وهرز قد ارسل الى كسرى أموالا وطرفا من اليمن فيها من الجواهر وسبائك الذهب الشيء الكثير(٩٦) . لكن المصادر لا تشير الى انتظام الولاة الفرس في ارسال مثل هذه الاموال كما انها لا تعطينا بيانا بها ، ونتيجة لذلك يقف الباحث حائرا أمام اهمية اليمن اقتصاديا بالنسبة للخزينة الفارسية !!

واذا سلّمنا بأن الادارة الفارسية ادركت أهمية الموانىء اليمنية في التجارة الدولية آنذاك فاهتمت باحتفاظها بها ، فانه من الصعب ان نجزم بأن هذه النظرة نفسها قد راودت حكام فارس بالنسبة للسيطرة على ثروات اليمن . والحقيقة أن حرص الادارة الفارسية على التمسك بالموانىء اليمنية له ما يبرره لحروبها المستمرة مع بيزنطة ، لأن هذا يساعدها على خنق تجارة بيزنطة مع العالم الشرقي . لكننا لا نلمس في العلاقة الفارسية اليمنية اهتماما مماثلا فيما يتعلق بالهيمنة على بلاد اليمن اقتصاديا . والذي يجعلنا نميل الى هذا الراي هو أن واقع العلاقات اليمنية الفارسية في بلاد اليمن ، حيث أسلفنا ان الفرس في بلاد اليمن لم يسيطروا على كافة الاقاليم ، بل كانوا يمثلون احدى القوى المهمة هناك ، لكنهم ثبّتوا سلطتهم بقوة في مدينتي عدن وصنعاء ، فالأولى كان تركزهم بها لضبط حركة التجارة البحرية وخطوطها وهذا بحد ذاته كان الهدف الاساسي للإدارة الفارسية ، أما صنعاء فكانوا قد استأثروا بالسلطة فيها بعد مقتل سيف واتخذوها مقراً لولاتهم(٩٧) .

وجدير بالذكر أن العلاقات الاقتصادية بين الامبراطورية الفارسية واليمن كانت غير واضحة المعالم ، أما العلاقة الاقتصادية بين من في بلاد اليمن من الفرس من جهة والقبائل اليمنية من جهة أخرى فقد ظهرت بجلاء في تاريخ اليمن . ويبدو أن الجنود الفرس الذين أتوا على دفعتين أولاهما مع وهرز وسيف عام ٥٧٥م وثانيتهما مع وهرز نفسه عام ٥٧٨م ، اندمجوا تدريجيا في المجتمع اليمني وتغلغلوا في شعاب اليمن

وأوديتها ، الأمر الذي جعل بعضهم بعد فترة يصبحون من ذوي الأوضاع الاقتصادية الرفيعة في المجتمع اليمني . وحسبنا أن نقول أن تعدد مصادر ثروة الأبناء وبروزهم في مختلف الميادين الاقتصادية ، الى جانب قوتهم السياسية قبل الاسلام وعقدهم الأحلاف مع القبائل ذات النفوذ ، بالاضافة الى الروابط الاجتماعية بين بعضهم وبعض اليمنيين ، كان وراء انتشارهم اقتصاديا في بلاد اليمن .

وقد عدد الحديثي(٩٨) ، مجموعة من المدن والقرى اليمنية التي تواجد فيها الأبناء ،إلا أنه لم يشر الى سبب اختيارهم لهذه الأماكن وكيفية سيطرتهم عليها . ونعتقد أن اختيارهم لهذه المناطق لم يكن عشوائيا ،بل مدروسا ،هدفه الأساسي وضع أيديهم على مناجم الذهب والفضة وانتقاء أفضل المواقع الزراعية . إلا أن تاريخ انتشار الأبناء في هذه الأماكن وسيطرتهم عليها أمر لا تفصح عنه مصادرنا التاريخية ، كما أنها لا تبين ما اذا كان انتشارهم هذا قد تم بالقوة العسكرية أم أنه قد جاء ضمن اتفاقيات مع القبائل النازلة بها آنذاك . وأمام هذه الأسئلة المبهمة وسكوت المصادر ، لا يجد الباحث من حل غير ربط هذه التساؤلات بعلاقة القبائل اليمنية المسيطرة على هذه المواقع ، التي انتشر فيها الأبناء ، مع القوة الفارسية في بلاد اليمن ، ومن خلال ذلك قد يمكن الوصول الى أقرب الاجابات الوافية والتي قد لا تكون بالضرورة الأكثر صحة .

ليس من المعقول أن يكون انتشار الأبناء في هذه المناطق قد تم منذ دخولهم اليمن وهزيمتهم للاحباش عام ٥٧٥م مباشرة ، كما حصل بالنسبة لانتشارهم وتواجدهم في صنعاء وعدن وربما ذمار ، لأهمية هذه المدن السياسية والاقتصادية . فالسبعة آلاف وخمسمائة جندي فارسي الذين أتوا في الحملة الاولى واستقر معظمهم في صنعاء وعدن ، لا يمكن أن ينتشروا بسرعة وكثافة في هذا العدد الكثير من المدن والقرى اليمنية ، ولم يكن عددهم كافيا لتغطية تواجدهم بهذه الكثرة في تلك الأماكن، كما لا يمكن أن يكونوا قد تداخلوا مع القبائل اليمنية بهذه السرعة . ولهذا نرى بأن انتشارهم الفعلي في الاقاليم اليمنية وبعض مدنها بدأ بعد مقتل سيف بن ذي يزن ووصول الدفعة الثانية المكونة من أربعة آلاف جندي بقيادة وهرز . ومع ذلك نعتقد بأن الانتشار في هذه الاقاليم لابد وأنه قد مر بعدة مراحل . فاذا كانوا قد تركزوا في المنطقة الواقعة بين صنعاء وعدن أي في اقليم حمير ، فهذا طبيعي لعلاقتهم الوطيدة مع قبائل حمير من جهة(٩٩) ، وقرب مراكز تواجد قوتهم من بعض هذه المواقع من جهة أخرى(١٠٠) . أما تواجدهم في المناطق الخارجية عن نطاق سيطرتهم ، مثل وادي البون ، والجوف ، ونجران وصعده فربما كان بعد عقد حلفهم مع قبيلة همدان ذات النفوذ في هذه الأقاليم ، أو ربما جاء نتيجة ارتباط بعضهم بأحلاف جانبية مع قبائل هذه المناطق(١٠١) .

ويبدو أن الأبناء قد حرصوا منذ دخولهم اليمن على أن يكون لهم نصيب في بعض المعادن فكان لهم ذلك . فقد تركزوا بقوة في معدن الرضراض ، أهم معادن الفضة في بلاد اليمن ، الأمر الذي دفع الهمداني للقول بأن أهله كلهم من الفرس(١٠٢) ، ولكثرتهم وهيمنتهم على هذا المعدن ، سموا بفرس المعدن(١٠٣) . ويبدو أن ارتباط الأبناء بهذا المعدن بالذات يعود الى ما قبل الاسلام ، ولا يُستبعد أن يكونوا قد ربطوا هذا الموقع ببلادهم فارس مباشرة . فقد أورد لنا ابن المجاور رواية مقتضبة حول الطريق بين الرضراض والبصرة ، يفهم منها بأنه قد ابتدع في عهد سيف بن ذي يزن(١٠٤). وظل الفرس منذ سيطرتهم على الاوضاع بعد مقتل سيف يستثمرون هذا المعدن . ذكر الطبري(١٠٥) ان وهرز ، أول ولاتهم هناك قد أرسل الى كسرى سبائك من الفضة ، عبر الطريق البري المار بديار ربيعة وتميم الى جنوب العراق(١٠٦) . وقد يكون الأبناء قد عدوا هذا المعدن بالذات حكراً لهم ابان قوتهم في الفترة السابقة للاسلام ، لذا كانت آثارهم في هذا المعدن آنذاك أكبر من آثارهم في الفترة اللاحقة لمجيء الاسلام(١٠٧) .

وتجدر الاشارة الى أن هيمنة الأبناء على معدن الرضراض لا يعني عدم تواجدهم في معادن أخرى في بلاد اليمن ، فكثير من المواقع التي ذكروا فيها كانت تعج بمناجم الذهب والأحجار الكريمة والحديد(١٠٨) كزمار ، وهي المعروفة بشهرتها في الذهب منذ القدم(١٠٩) . ووجودهم في صنعاء وعدن جعلهم قريبين من مناجم الحديد التي اشتهرت بها هاتان المدينتان(١١٠) كما أن المنطقة الواقعة بين صنعاء وذمار ، وفيها مراكز تجمع القوات الفارسية ، كانت غنية بالاحجار الكريمة من مختلف الأنواع(١١١) .

حاز الأبناء أملاكا وأراضي زراعية في أخصب أودية اليمن وسكنوا في قراها . وكان تركيزهم على الأراضي القريبة من صنعاء التي عرفت بخصوبتها . ومن هذه المناطق بنى بهلول(١١٢) وبيت بوس(١١٣) والمنطقة الواقعة بين صنعاء ومأرب، وهي بالتالي تعرف اليوم بمنطقة بنى حشيش(١١٤) . وقد عرفت هذه المناطق بانتاجها الزراعي الضخم وتربتها الخصبة التي ليس لها نظير في اليمن حتى قيل عنها بأنها خزانة اليمن(١١٥) . كما ذكر الأبناء في المناطق الخصبة الأخرى من اليمن ، كقرى وادي البون الذي يعتبر من أغنى الأودية اليمنية مثل قرية جوب وعقار(١١٦) ، كما كان لبعضهم أراضٍ زراعية في مدينة ذمار(١١٧) .

وطبيعي أن يحوز الأبناء أراضي في مناطق كثيرة في بلاد اليمن بحكم سيطرتهم السياسية قبل الاسلام والعقود الاولى بعد ذلك ، الا أن المصادر لا تسعفنا في تحديدها ومعرفة أسماء ملاكها منهم ، الامر الذي يجعلنا نواجه صعوبة في معرفة حجمها . لكن

هذه المصادر قد حفظت لنا بعض الاشارات التي جعلتنا نقف على هذه الاملاك خاصة في المدن الهامة . ففي مدينة صنعاء كانت أفضل المواقع عائدة لبعض الأسر منهم، وكان بستان باذان ـ وهو الذي يعرف بالدينباذ ـ من أغنى بساتين صنعاء في زمانه(١١٨) ، كما كانت عائلة بنو جُريش تمتلك قطعة أرض كبيرة في وسط المدينة، فأراد فروة بن مُسيك أن يشتريها ليجعل منها جبانة لاهل صنعاء ومصلى العيد، إلا ان بنو جُريش أبوا بيعها ووهبوها له دون مقابل(١١٩) . وكانت صافية صنعاء وصافية ذمار ، من أفضل صوافي اليمن ، تعود ملكيتها الى باذان الذي ظل مستأثرا بهما طوال حياته ، فلما مات عام ١٠هـ ظلتا غير مملوكتين لأحد فأصفاهما عمر بن الخطاب لبيت مال المسلمين بعد ان بلغه أن ليس لباذان ولد مسلم يرثهما من بعده(١٢٠). كما ظلت بيوت بعض زعمائهم تحتفظ بأسماء أصحابها لمدة طويلة في مدينة صنعاء . ولما وصف الرازي ـ في القرن الخامس الهجري ـ بيوت صنعاء الكبيرة ، ذكر دار فيروز الديلمي ودار وهْب بن منبه(١٢١) . وكانت دور آل جُريش حول جبانة صنعاء(١٢٢) ، من أرقى المناطق في صنعاء وأجملها ولا يسكنها الا عليّة القوم(١٢٣) .

إن قوة الأبناء الاقتصادية في بلاد اليمن إنما كانت نابعة من كونهم شركاء القوة اليمنية للقضاء على الحكم الحبشي ، ومن كونهم ممثلي كسرى، ومن تحالفهم مع بعض القبائل اليمنية . ولا شك انهم أفادوا من وضعهم هذا للحصول على الامتيازات الاقتصادية في هذه البلاد . ويبدو أن الأبناء قد أقطعوا بعض الأراضي من قبل سيف ابن ذي يزن اعترافا منه بفضلهم كما كان يفعل مع بعض القبائل اليمنية المناصرة له(١٢٤) . ولعلّ الكتاب الذي استشهدوا به لتأكيد ملكيتهم للرحبة ، شمال صنعاء، عند تنازعهم مع بعض العناصر الحميرية فيها عام ١٣٣هـ ، كان صادرا عن سيف بن ذي يزن نفسه(١٢٥) . لكن بعد اغتيال سيف عام ٥٧٨م وقدوم القوة الفارسية بقيادة وهرز ثبّتَ الابناء أنفسهم بقوة في المناطق سياسيا واقتصاديا ، لذا عندما ذكر ابن حبيب أسواق اليمن(١٢٦) قبل الاسلام أشار صراحة الى سيطرة الأبناء على سوقي عدن وصنعاء وفرضهم العشور على تجارتها .

لا توضح مصادرنا النشاط التجاري والاقتصادي للأبناء قبل الاسلام ، اما في الفترة اللاحقة له فقد حفظت لنا بعض الاشارات التي نستطيع أن نستشف منها جانبا من هذا النشاط ، وبالأخص الجانب التجاري . ولقد اتضح بجلاء علاقة الأبناء التجارية مع خراسان ، خاصة في تجارة المعادن . ولحسن الحظ أن الهمداني قد حفظ لنا بعضا من الاشارات التي أفصحت عن مدى العلاقة بين تجار خراسان والأبناء أصحاب معدن الرضراض خاصة . وازدهار طريق الفضة بين الرضراض والبصرة ما هو إلا تأكيد للروابط التجارية بين أهل المعدن والشرق . وعلى الرغم من أن المصادر

لا تحدد فترة ازدهار هذه التجارة ، إلا انه من المحتمل أن يكون ذلك ، كما يقول بيوتروفسكي ، خلال العهد العباسي الأول حين وجد الأبناء في العلاقات القائمة بين الخلفاء العباسيين والعناصر الفارسية في الدولة فرصة طيبة لتنشيط تجارتهم في اليمن وربطها ببلدهم الام فارس(١٢٧) . وبهذا يكون الأبناء قد لعبوا دورا مهما في ربط اليمن تجاريا مع خراسان . وخاصة تجارة المعادن ، وتجارة الفضة بالدرجة الأولى التي يملكون الجزء الأكبر من مناجمها في الرضراض(١٢٨) ، فكان التجار من فارس ومن خراسان خاصة يترددون على اليمن ويشترون فضتها ثم يحملونها الى بلادهم(١٢٩) . ولا شك في أن الأبناء قد جنوا ارباحا طائلة من تجارة المعادن والعمل بها، فقد ذكر ان معدن الفضة في الرضراض فقط كان يدر على أهله (ومعظمهم من الأبناء) ما يعادل مليون درهم في السنة في امارة محمد بن يعفر (٢٥٨ ـ ٢٦٢هـ)(١٣٠) .

ويبدو أن ملاك المناجم من الأبناء كانوا يستخدمون الفرس القادمين من فارس كعمال في هذه المناجم إذ كانت هجرتهم من بلادهم الى معدن الرضراض غير منقطعة منذ الفترة السابقة للاسلام وحتىعصر بني العباس(١٣١)، فكان الرضراضأقرب الىخراسان من اي اقليم آخر بحكم الروابط القوية بين سكانه وخراسان. لذا عندما اورد الهمداني الرواية التي قارن بها هذا المعدن مع المعادن الأخرى في البلدان الاسلامية ، كان مصدره في هذه المقارنة أحد عمال هذا المعدن من الخراسانيين الذين لم يكونوا يعرفون من هذه الدنيا غير خراسان ، فقال هذا العامل : « ليس بخراسان ولا بغيرها كمعدن الرضراض »(١٣٢) .

ولا شك في أن انتشار الأبناء اقتصاديا وتعدد مهنهم تسبب في تميز بعضهم بالغنى وكثرة المال ، إلا ان هذه الظاهرة لا تكشفها المصادر لنا باستثناء بعض الاشارات القديمة . فقد تحدثت المصادر عن غنى أسرة بني جُريش بن غزوان الابناوية ، ليس على أنها من أغنى أسر الأبناء فحسب بل على انها من أغنى اغنياء صنعاء ، إذ قدرت ثروتهم بأربعمائة الف دينار(١٣٣) ، وكانوا يتظاهرون بالغنى لدرجة أن احدهم أعطى طبيبا ثمانمائة دينار ثمنا لدواء أعده له(١٣٤) . وقد أدى غنى بعض الأبناء الى ارتفاع المهور في أوساط هذه الجالية حتى وصل المهر عندهم في أواخر القرن الثاني الهجري الى الف دينار ، الامر الذي جعل عامتهم غير قادرين على دفع هذه المهور في الوسط الابناوي(١٣٥) .

ونتيجة لقلة الاشارات التاريخية وغموضها واختصارها للأحداث فانه من الصعب تحديد فترات قوة وضعف الأبناء الاقتصادي في بلاد اليمن ، إلا اننا نعتقد بأن أوضاعهم الاقتصادية كانت مرتبطة بنفوذهم في هذه البلاد ، وأن فترات ازدهارهم سياسيا كان يرافقها ازدهارهم اقتصاديا . فعندما كانوا مسيطرين على بعض المناطق

في اليمن قبل الاسلام ، كانوا في الوقت نفسه يديرون حركة التجارة في أهم المدن اليمانية ، ويملكون أفضل المواقع الزراعية وأغنى المناجم . ولا شك أن تمسكهم بشيء من نفوذهم السياسي خلال عهد الراشدين وصدراً من خلافة بني أمية جعلهم يحافظون على ممتلكاتهم ومصالحهم التجارية هنا ، واستمروا كذلك الى نهاية الخلافة الأموية. وخلال الصدر الأول من الخلافة العباسية أفادوا من العلاقة الحميمة بين الخلفاء العباسيين والعناصر الفارسية بشكل عام ، مما عوضهم عن تدني نفوذهم السياسي ، ونشطت تجارتهم ، وعلى الأخص بعد أن ربطوها مع بلدهم الأم فارس .

ويبدو أن الأزمة الاقتصادية الحقيقية التي مر بها الأبناء بدأت مع النشاط السياسي للقوى المحلية القحطانية والممثلة في أسرة اليعفريين في شبام كوكبان ثم في صنعاء ، وذلك في العقد الثاني من القرن الثالث الهجري . وقد تزامن هذا النشاط مع أفول النفوذ الفارسي في البلاط العباسي مع بداية عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ ــ ٢٢٨ هـ) الذي استبدل بالعنصر الفارسي العنصر التركي . بعدها شعر الأبناء بالعزلة السياسية والاقتصادية معا مما أدى في النهاية الى تدهور أوضاعهم الاقتصادية في أواخر القرن الثالث الهجري . فقد فقدوا في عام ٢٧٠ هـ أهم مصادر ثروتهم في الرضراض عندما هاجمتهم قبائل المنطقة وانتزعوها منهم الى الابد ، فلم يبق أمام الأسر الأبناوية المالكة في الرضراض من خيار إلا النزوح الى صنعاء والتقوقع فيها(١٢٦) . ويبدو أن الأبناء قد أدركوا في نهاية القرن الثالث الهجري بأن ليس لهم بقاء في مدينة صنعاء بعد أفول نجمهم السياسي وتضعضع أحوالهم الاقتصادية، خاصة وأن هذه المدينة أصبحت عرضة لهجمات زعماء القبائل وأهل المذاهب ابتداء من ذلك التاريخ(١٣٧) . ونعتقد أن عددا كبيرا منهم قد نزح بعد ذلك الى المناطق الزراعية القريبة من صنعاء وتركز الكثيرون منهم في بعض قراها مكونين أغلبية سكانها حتى نسبت اليهم بعض القرى ، كقريتي الفرس والأبناء الواقعتين في منطقة خشيش(١٣٨). واغلب الظن أن عملية النزوح والاستقرار بقوة في هذه القرى قد تم بعد عصر الهمداني (ت ٣٣٤هـ) الذي لم يذكر هاتين القريتين في مؤلفاته(١٣٩) . وقد جاء نزوح الأبناء من صنعاء متزامنا مع تدهور أحوال هذه المدينة التي تقلصت مساكنها لتصبح الفا وأربعين بيتا في عام ٣٨١هـ بعد أن كانت في أيام هارون الرشيد مائة وعشرين ألفا ، وفي مطلع القرن الرابع الهجري ثلاثين ألف منزل(١٤٠) . وبالنزوح من صنعاء الى القرى الزراعية حولها يكون الأبناء قد وصلوا الى أدنى مراحل التدهور الاقتصادي خلال فترة تواجدهم في بلاد اليمن ، فتحولوا من طبقة كبار التجار والملاك الى حرفيين وعمال ثم الى فلاحين بسطاء ، ليصبحوا بعد ذلك في عداد المساكين والضعفاء في المجتمع اليمني(١٤١) .

الخلاصــة :

لقد أدرك الأكاسرة أهمية اليمن في السيطرة على طريق التجارة البيزنطية مع الشرق فنتج عن ادراكهم هذا اهتمامهم بهذه البلاد وتثبيت سلطتهم في بعض مدنها ، هذا الاهتمام أتاح للأبناء أن يتمتعوا ابان قوة الامبراطورية الفارسية بدعمها المطلق لهم وبالتالي أن يركزوا أنفسهم بقوة في بلاد اليمن . وخلال هذه الفترة وضع الأبناء أيديهم على بعض المواقع المهمة والغنية في بلاد اليمن كما استطاعوا أن يتغلغلوا في الاوساط القبلية عن طريق الأحلاف والمصاهرة حتى غدوا من أهم القوى في بلاد اليمن من الناحيتين السياسية والاقتصادية . وعند دخول الاسلام الى اليمن كان الأبناء يمثلون السلطة الرئيسة في مدينة صنعاء وعدن ، ولما آلت اليمن الى سلطة الخلافة في بداية عهد أبي بكر الصديق أصبح الأبناء من رعايا الدولة الاسلامية واحتفظوا بحقوقهم وأملاكهم كاملة كما تميزوا بنفوذهم السياسي في عهد الخلفاء الراشدين وفي صدر خلافة بني أمية . ولقد أدى احتكار آل أبي عقيل من ثقيف لمنصب الولاية في بلاد اليمن أثناء تولي بني مروان الخلافة الأموية ، الى ابعاد الأبناء وغيرهم من اليمنيين عن هذا المنصب كما أدى بالتالي الى تدني مكانة الأبناء . إلا أن الأبناء بدأوا في العصر العباسي الأول يحاولون اعادة نفوذهم السياسي في هذه البلاد ولكن دون نجاح حاسم ، حيث ظهرت على المسرح السياسي في صنعاء واليمن بعض العناصر القحطانية التي بدأت تنافس الأبناء على النفوذ السياسي . وبدا النزاع بين الفئتين يظهر على شكل حلقة من الصراع المتصل في هذه المدينة . ولقد استطاع الأبناء في صدر هذه الفترة ابراز أنفسهم اقتصاديا ونشطوا تجارتهم مع بلدهم الأم فارس كما بداوا لأول مرة يجاهرون بعصبيتهم الفارسية معتمدين على النفوذ الفارسي في البلاط العباسي آنذاك . ولكن بعد ابعاد العنصر الفارسي من بلاط الخلفاء العباسيين واحلال العناصر التركية محلهم ، وبعد هيمنة العناصر القحطانية على صنعاء وما حولها بدا العد التنازلي للنفوذ الابناوي في بلاد اليمن حتى وصل الى الصفر في نهاية القرن الثالث الهجري . وكان سقوطهم سياسيا قد ساعد على تضعضعهم اقتصاديا فأصبحت أموالهم عرضة للنهب حتى اضطروا أخيرا الى التكتل في بعض القرى حول صنعاء مكتفين بفلاحة الأرض ، وتحولوا من طبقة حكام وتجار وملاك الى فلاحين بسطاء وعامة مساكين يغلب عليهم الفقر والمسكنة .

* * *

الحواشي

(١) انظر على سبيل المثال : صالح ، تاريخ اليمن في القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، (عصر الولاة) ، القاهرة ١٩٧٥ . الشجاع: اليمن في صدر الاسلام ، دمشق ١٩٨٧ . الحديثي : أهل اليمن في صدر الاسلام ، بيروت ١٩٧٨ .

(٢) الاكوع : محمد بن علي ، الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الاسلام الى ٣٣٢هـ ، بغداد ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، ص ٢٧ .

(٣) الزبيدي : محمد مرتضى ، تاج العروس ، بنغازي ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ج١٠ ص ٤٨ .

(٤) بيوثروفسكي : م.ب ، اليمن قبل الاسلام والقرون الاولى للهجرة ، (من القرن ٤ــ١٠م) نقله عن الروسية محمد الشعيبي ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ .

(٥) الطبري : محمد بن جرير ، تاريخ الامم والملوك ،تح أبو الفضل ابراهيم،دار سويدان بيروت (د.ت) ، ج٣ ، ص ٣٠٥ ، ابن حزم: علي بن أحمد ، جمهرة أنساب العرب ، تح أ ، ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨م ص ٢٠٤ . الزبيدي ، ج١٠ ، ص ٤٨ .

(٦) Encyclopaedia of Islam , 2 nd edition , vol 1 , P 102 (abbr . EL 2) .

(٧) انظر ابن هشام : محمد بن عبد الملك ، السيرة النبوية، تح مصطفى السقا وآخرون، دار احياء التراث العربي ، بيروت د.ت ، ج١ ، ص ٦٩ . اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب ، تاريخ اليعقوبي ،النجف، ١٣٥٨هـ ج١ ، ص ١٦٢ . الطبري : ج٢ ، ص١٤٧ . المسعودي : علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ١٩٥٢ ، ج٣ ، ص١٧١ الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين ، كتاب الاغاني ، تح علي البخاري ، القاهرة، ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٧٠م ، ج١٧ ، ص ٣١٣ .

(٨) الرازي : أحمد بن عبد الله ، تاريخ مدينة صنعاء ، تح حسين بن عبد الله العمري ، دمشق (١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١م) ، ص ٣٨ . الجندي : أبو عبد الله بهاء الدين ، السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تح محمد بن علي أكوع ، صنعاء (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م) ، ج١، ص ١٨٤ .

(٩) الجاحظ : عمرو بن بحر : كتاب البخلاء ، تح طه الحاجري ، دار المعارف ، مصر ، د.ت ، ص ٤٢٧ .

(١٠) بيوثروفسكي : ص ٣١٠ .

(١١) الطبري : ج٢ ، ص ٦٥٦ ج٣ ، ص٣٢٣ .

(١٢) ، ج٣ ، ص ٣٢٣ .

(١٣) السمعاني : عبد الكريم بن محمد ، كتاب الانساب ، ج١ ، ص ١٢٢ .
E.J.W. Gibb Memorial XX 1912
وقيل من موالي بني هود الحميريين ، انظر: الرازي ، ص ٣١٨ .

(١٤) انظر : ص ٢٨ .

(١٥) بيوثروفسكي : ص ٣١٠ .

(١٦) انظر : ابن هشام : ج١ ، ص ٧٣ . الرازي : ص ٢٩٨ ، السمعاني : ج١ ، ص ١٢٢ . الزبيدي : ج١٠ ،ص ٤٨ . الحميري: نشوان بن سعيد ، الحور العين ، تح ، كمال مصطفى ، القاهرة ، ١٩٤٨م ص ٢١١ . ابن الديبع : عبد الرحمن بن علي ، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ، تح ، محمد بن علي الاكوع ، صنعاء ، (١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م) ص ١٤٠ .

(١٧) لم يتفق الرواة حول اسم الوافد على كسرى من آل ذي يزن ، فالرواية الاولى المنسوبة الى هشام بن محمد الكلبي ،أوردها لنا ثلة من المؤرخين مثل الطبري : ج٢ ،ص

١٤٢ . المسعودي : مروج ج٣ ، ص ١٦٦ . تنص على أن الوافد على كسرى هو الفياض ذي يزن فمكث في بلاط كسرى حتى مات ، فجاء على أثره ابنه معدي كرب وأعاد طلب أبيه الى كسرى فاستجاب له الاخير وأرسل معه القوة الفارسية . أما رواية وهب بن منبه والتي أخذها عنه ابن اسحاق فقد أكدت لنا أن الوافد على كسرى هو سيف بن ذي يزن ولم يسبقه الى كسرى من آل ذي يزن احد فاستطاع اقناع كسرى بامداده بقوة فارسية . وهذه الرواية هي التي اعتمدها كثير من المؤرخين . انظر ابن منبه : وهب، كتاب التيجان في ملوك حمير ، ط ، الثانية، مركز الدراسات والابحاث اليمنية ،صنعاء، د.ت ، ص ٣١٥ ، ابن هشام : ج١ ، ص٦٥. ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم ، كتاب المعارف ، تح ، محمد اسماعيل الصاوي، بيروت ، ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠م ، ص ٢٧٨ . الطبري : ج٢ ،ص ١٣٩، الاصفهاني : ج١٧ ص٣١٠ . السمعاني : ج١ ، ص ١٢٢ . النويري : أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الارب في معرفة فنون العرب ، ج١٥ ، ص ٣١٠ ، القاهرة (١٣٧٤–١٩٥٥م). المجهول: ورقة مجهول المؤلف ، تاريخ اليمن ،مخطوط رقم ISG عربي ، مكتبة الامبروزيانا ، ايطاليا ، ورقة ٧ أ . أما الاسم الذي أوردناه فقد أخذناه كاملا من الهمداني : حسن بن أحمد ، الاكليل ، الجزء الثاني، تح محمد بن علي الاكوع ، القاهرة (١٣٨٦ – ١٩٦٦ م) ج٢ ، ص ٢٥٨ .

(١٨) ابن منبه : ص ٣١٦ ، ابن هشام : ج١ ،ص ٦٦ ، الطبري : ج٢ ، ص ١٤٠ ، المسعودي: مروج ، ج٣ ، ص ١٦٣ ، المجهول : ورقة، ٧ أ .

(١٩) المسعودي : مروج ، ج٣ ، ص ١٦٤ .

(٢٠) ابن منبه : ص ٣١٦ ، ابن هشام : ج١ ، ص٦٧ ، الطبري : ج٢ ، ص ١٤٤ .

(٢١) النويري : ج١٥ ، ص ٣١٠ .

(٢٢) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٧٨ .

(٢٣) المسعودي : مروج ، ج٣ ، ص ١٦٥ ، المجهول : ورقة ٧ أ .

(٢٤) الطبري : ج٢ ، ص ١٤١–١٤٧ ، المسعودي: مروج ، ج٣ ، ص ١٦٥–١٦٦ . المجهول : ورقة ٧ أ .

(٢٥) انظر ابن قتيبة : ص ٢٧٨، الطبري ، ج٢، ص ١٤٤ . ويذكر

Playfair , R. L. , **LA History of Arabia Felix , or Yemen** , Amsterdam, 1970 , P 73 .

أن عدد الحميريين الذين التحقوا بسيف بن ذي يزن عشرون الفا .

(٢٦) الى هذه المعارك : انظر الطبري : ج٢ ، ص ١٤١ – ١٤٦ ، المسعودي : ج٣ ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(٢٧) النويري : نهاية الارب ، ج١٥ ، ص ٣١١.

(٢٨) ابن منبه : ص ٣١٧ ، الطبري : ج٢ ، ص ١٤٢ .

(٢٩) انظر :

Smith , S. 1 « Events in Arabia in the 6th Century , A. D. » **Bulletin of the School of oriental and African Studies,** of London, Vol. 16, 1954, P 465

جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت ١٩٨٧، ج٢ ، ص ٥٢٦–٥٢٧. أما بعض الباحثين فيرون أن ذلك وقع بين عامي ٥٧٥ – ٥٧٧م ، انظر :

Frye , R. N. **Iran under the Sasanians, The Cambridge History of Iran,** Vol 3 (1) Cambridge, 1975, P. 158 .

وكوبيشيانوف ، يوري ميخايلوفتش ، الشمال الشرقي الافريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية (من القرن

السادس الى منتصف القرن السابع) نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الجامعة الاردنية ، عمان ١٩٨٨ ، ص ١٨٨ .

(٣٠) المسعودي ، مروج الذهب ،ج٣ ،ص١٦٦ .

(٣١) الاصفهاني : ج١٧ ، ص ٣١٠ .

(٣٢) ابن منبه : ص ٣١٧ ، ابن قتيبة : ص ٢٧٨. النويري : ج١٥ ، ص ٣١١ . انظر أيضا ص ١٨٥ و Frey , P. 158

(٣٣) اليعقوبي : ج١ ، ص ١٧٢ . انظر ايضا : Bosworth . C. E. Iran and the Arabs before Islam , The Cambridge History of Iran, Vol. 3 (1) , Cambridge, 1975 . P. 598 ff .

(٣٤) انظر : شعر بن أبي الصلت الثقفي ، ابن منبه : ص ٣١٧ ، الازرقي : محمد بن عبد الله بن أحمد ، أخبار قلة ، تح رشدي ملحس ، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ج١ ، ص ١٥٠ . الطبري : ج٢ ، ص ١٤٧ ، المسعودي : مروج ، ج٣، ص ١٧١ ، الاصفهاني : ج١٧ ، ص ٣١٣ .

(٣٥) انظر الطبري : ج٢ ، ص ١٤٨ ، المسعودي: ج٣ ، ص ١٧٦ ، المجهول ، ورقة ٧ أ+ب. لقد اعتمدنا في تحديد سنة مقتل سيف على ما جاء في Smith , P598 ff. ، جواد علي: ج٣ ، ص ٥٢٤ - ٥٢٦ .

(٣٦) انظر الطبري : ج٢ ، ص ١٤٨ ، المسعودي: مروج ، ج٣ ، ص ١٧٦ ، المجهول : ورقة ٨ أ .

(٣٧) ابن رسول : عمر بن يوسف، طرفة الاصحاب في معرفة الانساب ، تح سترستين ، ك ، و ، دمشق ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩م ، ص ٥٥ .

(٣٨) انظر ابن منبه : ص ٣١٧ ، ابن قتيبة : ص ٢٧٨ .

(٣٩) الجندي : ج١ ، ص ١٨٤ ، الاهدل : الحسين بن عبد الرحمن بن محمد ، تحفة الزمن في سادات اليمن ، مخطوط ، مكتبة الجامع الكبير ، الغربية ، صنعاء ، رقم ٥٥ تاريخ ورقة ٣٢ ب .

(٤٠) ابن حبيب ، محمد ، كتاب المحبر ، حيدر آباد ، ١٩٤٢م ، ص٢٦٦ .

(٤١) الهمداني ، صفة الجزيرة العربية ، تح ، محمد الاكوع، الرياض ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م. ص ٧٩ - ٢٢٤ . وكانت صافية ذمار ملكا لزعيمهم باذان ، انظر الرازي ، ص ١٣٢.

(٤٢) انظر القسم الاقتصادي .

(٤٣) الطبري : ج٢، ص١٤٨ (رواية ابن اسحاق)، المسعودي ، ج٣ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ انظر أيضا : جواد علي ، ج٣ ، ص ٥٢٧-٥٢٨ .

(٤٤) يذكر ابن الكلبي باسناده ، أن وهرز مات آخر ملك كسرى انو شروان عام (٥٧٩ م) أي بعد توليه اليمن بفترة قصيرة ، انظر الطبري ، ج٢ ص ١٧١ ،

(٤٥) ibid ، ص ١٤٨ .

(٤٦) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٢٦ . أما النويري ، ج١٥ ، ص ٣١٠ فيقول عنه «كان من الفرسان ومن البيوتات» انظر أيضا جواد علي ، ج٣ ، ص ٥٢٥ .

(٤٧) الطبري ، ج٢ ، ص ١٤٨ ، ٢١٥ .

(٤٨) ibid ، ص ٢١٥ (رواية ابن الكلبي).

(٤٩) انظر كوبيشانوف : ص ١٩٤ .

(٥٠) الرازي : ص ٨٠ ، الجندي : ج١ ، ص٨٧.

(٥١) المسعودي : التنبيه : ص ٩١ ، وذكر لقبه هذا في وثيقة الحلف بين الابناء وهمدان ، انظر الرازي : ص ٣٨ . الجندي ، ج١ ، ص ١٨٤ ، الاهدل : ورقة ٣٢ ب .

(٥٢) انظر الطبري : ج٢ ، ص ١٧٦ وما بعدها ، ابن قتيبة ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٥٣) Frey , P. 158 ff .

(٥٤) الرازي : ص ٤٨ .

(٥٥) بيوثروفسكي : اليمن قبل الاسلام ، ص٨١.

(٥٦) الرازي : ص٣٧-٣٩ ، الجندي : ج١ ،ص ١٨٤ ، الاهدل : ورقة ٣٢ ب .

(٥٧) الشجاع : ص ٣٦ - ٣٨ .

(٥٨) الرازي : ص ٣٧ ، الجندي : ج١ ، ص ١٨٤ ، الاهدل : ورقة ٣٢ ب .

(٥٩) ibid

(٦٠) Ai-Madaj A. M. **The Yemen in early Islam (9-233/630-847) a Political History,** Ithaca Press, London , 1988 , PP. 27 - 46 .

(٦١) لهذه الاحداث انظر : ibid , P. 27 - 46 .

(٦٢) باستثناء فيروز الديلمي الذي ولاه أبو بكر على الابناء لقيادتهم ضد قيس بن عبد يغوث

(٦٣) ibid , 105

(٦٤) انظر ابن سمرة : عمر بن علي ، طبقات فقهاء اليمن ، تح ، فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٤٨-٤٩ ، . الخزرجي : علي ابن الحسين ، تاريخ الكفاية والاعلام في من ولي اليمن وسكنها من ملوك الاسلام ، تح ، راضي دغفوس ، نشر : Ies Cahiers de Tunisis , t. 27 , no 107 - 108, Trim. September, 1979 .

ص٦٢ . ، ابن الديبع: قره ، ج١ ص ٨٧ ، أبو مخرقة ، ج٢ ، ص ٢٦ .

(٦٥) لقد ذكر الجندي ، ج١ ، ص ١٩٦ ، صراحة نفوذ الابناء وقوتهم في هذه المدينة .

(٦٦) الهمداني : الاكليل ، ج١٠ ، تح ، محب الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ ، ص ٦٧ ، المسعودي : مروج ، ج٥ ، ص٥٨ . ابن عساكر : علي بن الحسين ، تهذيب التاريخ الكبير ، تح ، أحمد بدران ، دمشق ١٣٢٩هـ ، ج٣ ، ص ٢٢٢ ، ابن الديبع : قرة ، ج١ ، ص ٨٧ .

(٦٧) ibid

(٦٨) انظر : AL Mad , aj , tab . 4 , P. 148

(٦٩) ابن عبد المجيد : تاج الدين عبد الباقي ، تاريخ اليمن ، المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تح ، مصطفى حجازي ، بيروت ١٣٨٤ - ١٩٦٥م ص ١٦ ، ادريس : عماد الدين ، كنز الاخيار في معرفة السير والانصار مخطوط ، رقم or 4581 , Britich Library . London .

ورقة ١٧٣ أ ، الخزرجي ص ٦٥ - ٦٦ ، الاهدل ، ورقة ٢٦ ب .

(٧٠) هما الضحاك بن فيروز الديلمي وحنش بن عبد الله الضغاني ، انظر : AL - Mad , aj , table 6 , P. 169

(٧١) ibid

(٧٢) الرازي ، ص ٢٧٥ ، ابن سمرة ، ص ٥٧ .

(٧٣) ابن سمرة ، ص ٥٦ .

(٧٤) ابن عبد المجيد : ص ١٧ ، الخزرجي : ص ٦٩ .

(٧٥) AL Mad' aj . P. 166

(٧٦) الهمداني ، الاكليل ، ج١ ، تح محمد ابن علي الاكوع ، بغداد (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) ج١ ، ص ٤٥٥ . الحميري : منتخبات ، ص ٥٨ .

(٧٧) ظهر نجم هذه الاسرة في صنعاء خلال العصر العباسي الاول فاختير بعضا من زعماءها ولاة للمدينة . انظر صالح : ص ١١٨ .

(٧٨) AL Mad' aj , 183

(٧٩) توالى على صنعاء خلال هذه الفترة خمسة عشر واليا من اصل قحطاني : انظر : I - Mad' aj , table 8 , P. 190 table 11 P. 220

(٨٠) الهمداني ، الصفة : ص ٨٦ .

(٨١) الهمداني : الاكليل ، ج١ ، ص ٥٣٠ .

(٨٢) ادريس ، ورقة ، ١٧٥ أ + ب . الخزرجي: ص ٩٤ ، ابن الديبع : ج١ ، ص ١٣٩ .

(٨٣) بالرغم من أن المصادر لا تذكر صراحة اتصال الابناء بالمأمون في هذا الشأن الا انها تؤكد على أن المأمون سمع باضطهاد يزيد لهم فأمر بخلعه وسجنه ، انظر الجندي : ج١ ، ص ٢١٥ ، الخزرجي ، ص ٩٤ ، الاهدل ، ورقة ، ٤٠ ب .

(٨٤) من المعروف أن المأمون أثناء نزاعه مع أخيه الأمين (١٩٣ – ١٩٨هـ) كان مقيما في خراسان ومعتمدا على العناصر الفارسية بالدرجة الاولى ، انظر :
Lassner , j, **The Shaping of Abbasid Rule**, Princeton, 1980, P. 107 .
الدورى : عبد العزيز ، العصر العباسي الاول ، دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ١٤٢ .

(٨٥) ادريس : ورقة ١٧٥ ب ، الجندي : ج١ ، ص ٢١٥ ، الخزرجي : ص ٩٥ الاهدل : ورقة ٤٠ ب .

(٨٦) الهمداني : الاكليل ج٢ ، ص ١٣١–١٣٢ . ادريس : ورقة ١٧٥ ب . الاهدل : ورقة ٢٣ ب .

(٨٧) شارك بعض من الابناء في فتح بلاد الشام ومصر ، واستقروا بعد ذلك في مصر حيث نزلوا في خطط خولان، انظر ابن عبد الحكيم : عبد الرحمن بن عبد الله ، فتوح مصر وأخبارها ، تح ، شارلز توري ، ج٣ ، ص ١٢٩ . ، ابن دقماق : ابراهيم بن محمد ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، القاهرة . ج١ ، ص ٤ ، المقريزي : أحمد بن علي ، الخطط المقريزية ، ألقاهرة ، ١٣٢٤هـ ، ج٢ ، ص ٧٨ .

(٨٨) رحل كثير من الابناء الى العواصم الاسلامية واستقروا فيها ، مثل حنش بن عبد الله ، وعمرو بن دينار ،وشراحيل بن كليب بن اده، انظر : الرازي : ص ٣٠٠ ، ابن سمرة ، ص ٥٨ – ٦١ .

(٨٩) توفي فيروز الديلمي عام ٥٣هـ، انظر المجهول، ورقة ٢٦ أ ، انظر أيضا :
AL - Mad ' aj , P. 173 , no 18

(٩٠) انظر ابن حجر : شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ، الاصابة في تمييز الصحابة، مصر ، ١٣٢٨هـ ، ج٣ ، ص ١٢٠٦ .
الذي ينقل عن الكشوري « أحد سكان صنعاء وعلمائها » . أن النعمان قد وفد على معاوية وطلب منه تعيين الضحاك بن فيروز الديلمي على ولاية صنعاء فاستجاب له معاوية . وقد توفي النعمان في خلافة عبد الملك بن مروان .

(٩١) مثل وهب منبه ، طاووس بن كيسان ، الضحاك بن فيروز وغيرهم .

(٩٢) يقول الرازي ، ص ٣١٣ ، كان الناس في صنعاء على اربعة عرفاء ، واحد منهم فقط كان يمثل الابناء .

(٩٣) انظر : Frey , P. 157 f
بيوتروفسكي ، ص ١١٤ . فرج : وسام عبد العزيز ، دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية، ١٩٨٢م ص ٨١ .

(٩٤) ابن حبيب ، ص ٢٦٦ .

(٩٥) الطبري : ج٢ ، ص ١٤٠ .

(٩٦) ibid ، ص ١٦٩ .

(٩٧) AL - Mad' aj , P. 6 .

(٩٨) أهل اليمن : ص ٨٥ . الى جانب صنعاء وعدن فقد ذكر رداع وثاث وذمار وقرى البون وصعدة ونجران والرضاض . انظر الخريطة المرفقة .

(٩٩) قدم الفرس الى اليمن بطلب من زعيم حميري، وعندما وصلوا الى سواحلها انضمت اليهم أعداد كبيرة من الحميريين فحاربوا معا الاحباش هناك ، لذا ذكر الجندي ، ج١، ص١٨٤ ، بأن الفرس وحمير تعاضدوا على حكم اليمن .

(١٠٠) تركز الفرس عند قدومهم اليمن في المناطق الممتدة من صنعاء شمالا الى عدن جنوبا ، مثل مدينة ذمار ومنكث ورداع وثاث بالاضافة الى صنعاء وعدن . انظر الخريطة المرفقة .

(١٠١) دخلت بعض الاسر من الابناء في حلف يرسم الذي كان يضم مجموعة من قبائل صعدة ، انظر الهمداني ، الاكليل ، ج١ ، ص ٣٨٨ ، الصفة : ص٢٤٩ .

(١٠٢) الهمداني : الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء ، تح ، كريستوفرتول ابسالا ١٩٦٨ص١٤٦ . يقع الرضراض تحت جبل سامك القريب من مأرب ، انظر الهمداني : الصفة ، ص ١٥١ ، انظر الخريطة المرفقة .

(١٠٣) ibid

(١٠٤) ابن المجاور : يوسف بن يعقوب ، صفة بلاد اليمن (تاريخ المستبصر) ، تح أوسكار لوففرين ، ليدن ١٩٥١م ج٢ ، ص ٢١٤ .

(١٠٥) الطبري ، ج٢ ، ص١٦٩ ، رواية ابن الكلبي .

(١٠٦) الهمداني : الجوهرتين ، ص ١٤٧ ، ابن المجاور : ج٢ ، ص٢١٤ .

(١٠٧) الهمداني : الجوهرتين، ص١٤٩ ، الحديثي ، ص ٤٧ .

(١٠٨) انظر الحديثي : ص ٤١-٤٥ ، ص ٨٥ ، انظر الخريطة المرافقة .

(١٠٩) ibid ، ص ٤١ .

(١١٠) يوجد الحديد بكثرة في جبل نقم المطل على صنعاء ، وفي جبل الحديد بعدن انظر : ibid ، ص ٤١- ٤٢ .

(١١١) الحمداني : الاكليل ، تح ، نبيه أمين فارس ، برستن ١٩٤٠ ، ج٨ ، ص ٣٠
انظر الخريطة المرفقة .

(١١٢) نسبة الى بهلول بن بهلوان بن هرمز ، انظر الزبيدي ، ج١٠ ، ص ٤٨ ، وهي الان ناحية من نواحي صنعاء ، انظر الحجري : محمد ابن أحمد ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تح ، اسماعيل بن علي الاكوع ، صنعاء ١٤٠٤هـ ١٩٨٤ م ، ج١ ، ص ١٣١ . المقحفي : ابراهيم بن أحمد ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ، صنعاء ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م . ص ٩ - ٩٣ .

(١١٣) انظر ادريس : ورقة ١٨٣ آ ، المقحفي ، ص٩٢ . وهي ملاصقة لصنعاء في الجهة الجنوبية الغربية ، انظر المقحفي ص ٩٤ .

(١١٤) ويقع فيها الان قريتي الابناء والفرس ، انظر المقحفي : ص ٩ ، الحجري : ج١ ، ص ٥٤ ، انظر الخريطة المرفقة .

(١١٥) الهمداني ، الصفة ، ص ٢٣٥ .

(١١٦) ibid ، ص ٤٤ . انظر الخريطة المرفقة .

(١١٧) مثل طاووس بن كيسان ، وزعيمهم باذان ، انظر الرازي ، ص ٣٣٢ ، ص ١٢٣ ، .

(١١٨) ibid ، ص ٢٤٤ .

(١١٩) قيل لابي حمال وهو أيضا من الابناء ، انظر الرازي ، ص ٩٠-٩٣ ، العرشاني : نظام الدين سري بن فضيل ، كتاب الاختصاص ، تح ، حسين بن عبد الله العمري . نشر في مجلد واحد مع كتاب الرازي السابق الذكر .

(١٢٠) الرازي : ص ١٣٣ .

(١٢١) الرازي : ص٢٠٢ - ٤١٣ ، انظر أيضا صالح ، ص ٢٢٢ .

(١٢٢) العرشاني : ص ٥٠٢ .

(١٢٣) الرازي : ص ٩١ .

(١٢٤) الهمداني ، الاكليل ، ج١ ، ص ٥٢٥ .

(١٢٥) بالرغم من أن بعض المصادر اليمنية مثل ابن الديبع : ج١ ، ص ١٢١ ، الخزرجي ، ص ٧٨ قد أشار الى أن هذا الكتاب صادر من الرسول (ص) ، الا أننا نميل الى أنه كان صادرا من سيف بن ذي يزن . والمصادر التي بين أيدينا ، اليمنية وغيرها ، لم تشر لا من قريب ولا من بعيد - الى أي ذكر لهذا الكتاب ، كما أن الرسول (ص) لم يستقبل أي وفد من الابناء المسلمين ليهب اليهم أو يمنحهم بعض المناطق كما كان يجيز وفود القبائل الوافدة عليه باسلامهم ، وعند ارساله مبعوثه وبر بن يحنس اليهم لم تذكر المصادر أي اشارة لمثل هذا الاقطاع .

(١٢٦) ابن حبيب ، المحبر ، ص ٢٦٦ .

(١٢٧) بيوتروفسكي ص ١١٥-١١٦ .

(١٢٨) الهمداني ، الجوهرتين ، ص ١٢٥ .

(١٢٩) ibid

(١٣٠) ibid ، ص ١٤٧ .

(١٣١) ibid ، ص ١٤٩ .

(١٣٢) ibid ، ص ١٤٥ .

(١٣٣) الرازي ، ص ٩٢ .

(١٣٤) ibid ، ص ٩٣ .

(١٣٥) ادريس ، ورقة ١٧٥ ب .

(١٣٦) الهمداني ، الجوهرتين ، ص ١٤٥ .

(١٣٧) شهدت اليمن في أواخر القرن الثالث ظهور الزيدية في صعدة ، والاسماعيلية في المعافر وجبل مسور فهاجم أصحاب هذه المذاهب مدينة صنعاء لسنوات عديدة ، انظر العلوي: علي بن محمد العباس ، سيرة الهادي الى الحق ، تح ، سهيل زكار ، بيروت ١٩٧٢م، ص ٣٨٩ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : ص ٣١ وما بعدها . ادريس : ورقة ١٧٨ أ وما بعدها ، الخزرجي ، ص١١٢ وما بعدها، ابن الديبع ، ج١ ، ص ١٦٢ وما بعدها .

(١٣٨) انظر الحجري ، ج١ ، ص ٥٤ ، المقحفي : ص ٩ - ٤٩٩ .

(١٣٩) لم يذكر الهمداني هاتين القريتين في أي من مؤلفاته ، الجغرافية والتاريخية ، مما يعني أنهما قامتا بعد وفاته .

(١٤٠) الرازي ، ص ٦٠١ - ١١٤ ، ادريس ، ورقة ١٧٣ ب .

(١٤١) بيبوتروفسكي ، ص ١١٢ .

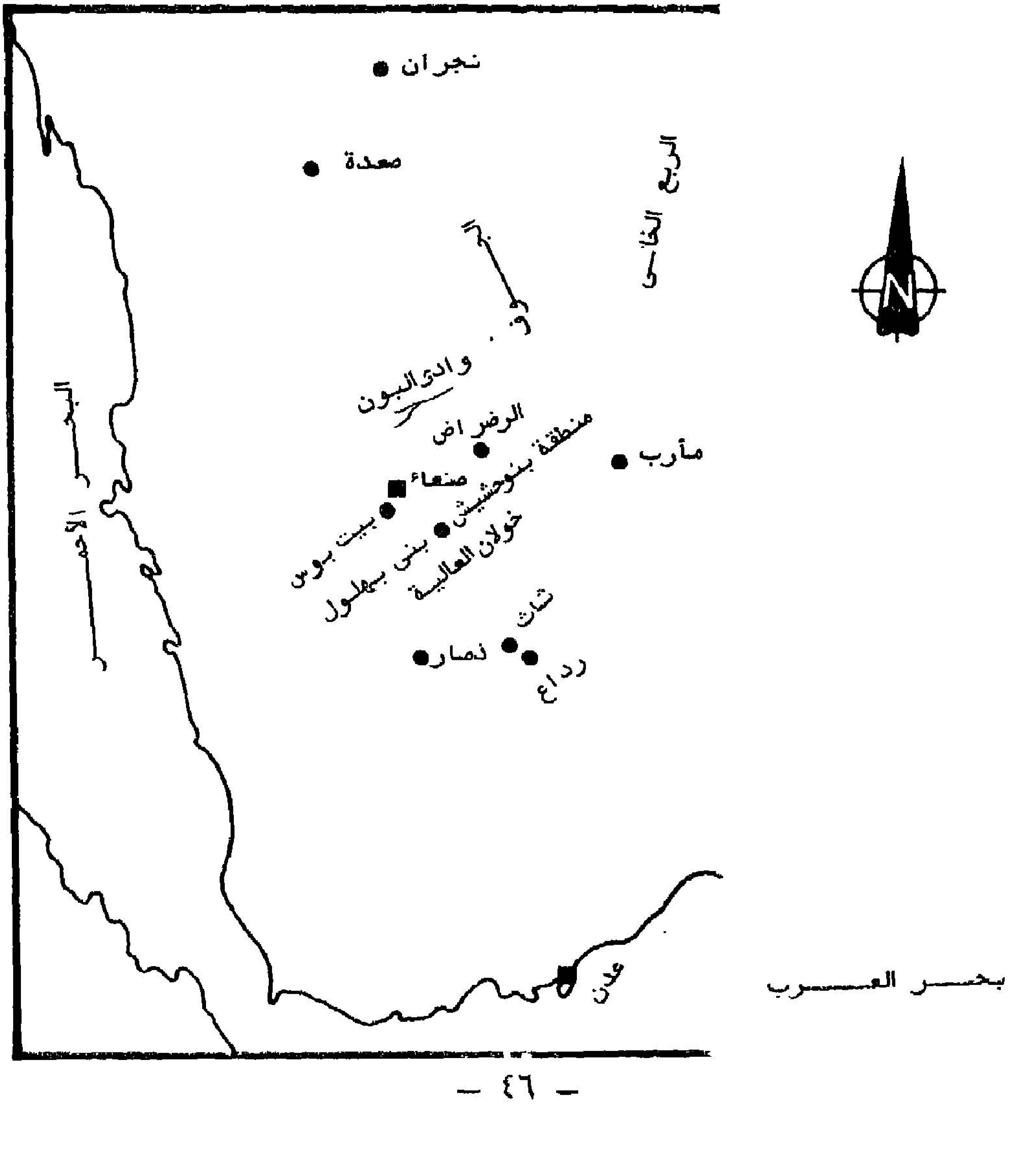

مشروع اتحاد الامارات العربية المتحدة ١٩٦٨ ــ ١٩٧١

مساعي النجاح وأسباب الفشل

د. مصطفى عقيل
جامعة قطر

تقديم :

تعود صلة بريطانيا بمنطقة الخليج الى عام ١٦١٦ عندما وصل السيد استيل مندوب شركة الهند الشرقية البريطانية الى ايران ، الى أن ارتبطت رسميا بالامارات العربية في الخليج بتاريخ ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٢٠ ، ووقعت مع شيوخ الامارات العربية في الساحل الجنوبي للخليج المعاهدة الاولى التي سميت باتفاقية السلام البحري . وغدت لبريطانيا اليد العليا دون منافس .

تغيرت الظروف في منطقة الخليج في منتصف القرن التاسع عشر ، ومع ظهور الشخصية العربية واحتدام الصراع بين الامارات العربية وبريطانيا في منتصف القرن العشرين عند نمو الوعي القومي العربي ، فتأثرت مكانتها في المنطقة. ونتيجة لذلك أجبر الشعب البحريني المستشار البريطاني على مغادرة المنامة في عام ١٩٥٧ أثر العدوان الثلاثي على مصر . كما قامت مظاهرات عارمة في مختلف الامارات العربية في ذلك الوقت .

ادركت الحكومة البريطانية أن بقاءها في المنطقة ولمدة طويلة غير مضمون . ولذلك فكرت في الانسحاب قبل فوات الأوان على الرغم من أنها سبق أن حولت استراتيجيتها من عدن الى منطقة الخليج العربي .

وفي عام ١٩٦٧ أعلنت الحكومة العمالية في لندن قرار تخفيض النفقات العسكرية في شرق السويس وان الوجود العسكري التقليدي لبريطانيا في المنطقة أصبح لا مبرر له . ولم يمض سوى شهور قليلة حتى أعلن هارولد ويلسن رئيس وزراء بريطانيا بان حكومته سوف تسحب قواتها من الخليج قبل نهاية عام ١٩٧١م .

وقد أتاح هذا القرار فرصة ممتازة أمام المسؤولين في الخليج لرسم خريطة سياسة جديدة للمنطقة اثر الفراغ الذي تتركه بريطانيا منها :

اقامة اتحاد فدرالي بين الامارات العربية التسع ، أو أن تعلن الامارات الكبرى سكانا ودخلا مثل قطر والبحرين وأبو ظبي استقلالها .

وبعد اعلان بريطانيا قرارها رسميا بالانسحاب من الخليج في ١٦ يناير ١٩٦٨ برزت فكرة الاتحاد بشكل جدي وعقدت عدة اجتماعات منذ عام ١٩٦٨ وبذل المسؤولون محاولات جادة لتحقيق هذا الحلم لكن المساعي لم تكلل بالنجاح .

* * *

وصلت مباحثات اتمام اتحاد الامارات العربية التسع الى طريق مسدود ... وكان واضحا أن الخلافات بين الامارات الكبرى في الخليج ساهمت الى حد كبير في تعطيل المشروع الاتحادي ، وأن محاولات الوساطة لم تؤت ثمارها ، نتيجة تمسك وفد قطر بمواقفه التي رآها مبدئية ، ونتيجة لتراجع وفد البحرين عما كان قد قبله في جلسات سابقة ، ولم يبد أي من الجانبين ؛ القطري والبحريني ، مرونة كافية خاصة وأن د بي ـ مثلا ـ قد أبدت تساهلا فيما أثارته من مطالب خلال الوساطة السعودية ـ الكويتية . فكان على امارات ساحل عمان السبع الاخرى أن تقرر موقفها من الاتحاد، وينبغي أن نلاحظ أن هذه الامارات ، بعد اتفاق دبي وأبو ظبي على التعاون بعد تسوية مشاكل الحدود بينهما نهائيا في ٢٢ فبراير ١٩٦٨ ، لم يكن بينهما ما يدعو للنكوص عن فكرة اقامة اتحاد فيما بينها ، خاصة وأن هذه الفكرة قديمة ترجع الى عام ١٩٥٢ عندما تألف « مجلس الامارات المتصالحة » تحت الاشراف البريطاني ، ثم عندما جرت محاولة تطويره بانشاء ما سمي « بمكتب أو مجلس تطوير الامارات المتصالحة » عام ١٩٦٥ .

وقد ظلت فكرة اتحاد امارات ساحل عمان السبع قائمة ، فبرزت خلال صيغة الاتفاق الثنائي بين أبو ظبي ودبي ، في ١٨ فبراير ١٩٦٨، التي دعت حكام امارات ساحل عمان (الخمس الباقية) الى «الاشتراك» في هذه الاتفاقية ، ثم دعوة حاكمي قطر والبحرين « للتداول » حول مستقبل المنطقة ، مما يعطي انطباعا واضحا بأن أبو ظبي ودبي كانتا تفكران منذ البداية في اتحاد سباعي .

وقد ذكر أن الحكومة في أبو ظبي قد تغاضت عن توزيع مذكرة موجهة من « الشباب العماني » خلال اجتماعات المجلس الاعلى للاتحاد في دورته الاولى في مايو ١٩٦٨ ، تتحدث عن حتمية قيام الوحدة بين امارات الساحل العماني السبع، بحكم ظروفها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، لتشكل وحدة واحدة ، ثم تنضم اليها وحدتا البحرين وقطر «فمن البديهي أن اتحاد ثلاث وحدات ادعى للنجاح من اتحاد تسعة عناصر غير متكافئة العدد والامكانيات» ويفهم من هذا بطبيعة الحال ضرورة أن يقوم اتحاد سباعي أولا. وزاد من وضوح الفكرة وتبلورها أن صرح الشيخ زايد بن سلطان في مؤتمر صحفي في ٢٨ مايو ١٩٦٨ ، أي في أعقاب الاجتماع الاول للدورة الاولى للمجلس الاعلى للاتحاد وفشلها في اتخاذ قرارات صريحة وحاسمة ، صرح بأنهم كانوا عازمين

على قيام الاتحاد بين الامارات السبع ، ولكن عندما رغبت الشقيقتان قطر والبحرين في قيام اتحاد أشمل يضم الامارات التسع ، ما وجدنا الا الترحيب بهما كأشقاء وجيران(١) .

ومن ناحية أخرى صدرت تصريحات أثناء انعقاد الدورة الاولى عندما استؤنفت في يوليو ١٩٦٨ ، تفيد بأن حاكم أبو ظبي قد عقد اتفاقيات ثنائية ، على غرار اتفاقيته مع حاكم دبي ، مع بقية الامارات السبع ، ليعلن وحدة هذه الامارات في حالة فشل الاتحاد في حل مشكلة الرئاسة ومقر العاصمة ، أو اذا فشلت الوساطة في اقناع قطر بقبول التسوية(٢) .

ويؤيد استمرار بقاء فكرة الاتحاد السباعي كذلك أن الشيخ زايد بن سلطان أدلى بحديث الى صحيفة التيمس البريطانية في ٩ أكتوبر ١٩٦٨ أكد « أنه يؤيد قيام اتحاد وثيق في الخليج العربي يضم الامارات التسع ، على الرغم من التقدم الضئيل الذي تم احرازه . على أنه اذا ثبت استحالة تنفيذ ذلك فانه سيؤيد قيام اتحاد بين امارات الساحل السبع وحدها . وحتى اذا تعذر ذلك فانه سيؤيد قيام اتحاد بين أبو ظبي وبين ثلاث أو أربع امارات كنواة لاتحاد أكبر »(٣) . وقد فسر أحد المؤرخين ذلك بأن أبو ظبي كانت لا تزال تفضل اتحادا يكون لها فيه ما يتناسب مع طموحها ، خاصة وأنها بدأت تبذل جهداً لانشاء جيش خاص بها مدرب بأحدث الأسلحة ، بلغ تعداده أكثر من خمسة آلاف رجل ، بالاضافة الى نواة لسلاح للطيران ، بحيث أصبحت هذه القوة تتجاوز حاجات أمنها الداخلي(٤) .

وربما يعد صحيحا أن أبو ظبي كانت ترى أن بامكانها أن تكون متزعمة لاتحاد يضم الامارات السبع ، باعتبارها أكبرها وأغناها ، أكثر منها متزعمة لاتحاد موسع يضم الامارات التسع ، تنافس مكانتها فيه قطر والبحرين ، خاصة وقد انتهت مشكلاتها مع جارتها دبي ، بالاضافة الى أن الامارات الخمس الاخرى الصغيرة لم يكن يهمها كثيرا أن يكون الاتحاد سباعيا أم تساعيا ما دامت ستجد نفسها داخل دولة اتحادية في كل الاحوال .

ومن الملفت للنظر حقا ويؤكد فكرة اتجاه أبو ظبي الى تزعم اتحاد سباعي يضم امارات ساحل عمان ، أن «مجلس حكام الامارات المتصالحة» الذي تأسس عام ١٩٥٢ ، ومكتب تطوير الامارات الذي أنشيء عام ١٩٦٥ ، ظلا قائمين حتى بعد اعلان قيام اتحاد الامارات العربية ، فلقد أصدر مجلس حكام الامارات المتصالحة ما عرف بمشروع القانون الاساسي المؤقت لامارات ساحل عمان ، بعد وقت قصير من توقيع اتفاقية دبي لاقامة الاتحاد التساعي ، وهو يهدف الى تكوين اتحاد من امارات الساحل تشترك فيه أبو ظبي بالزعامة مع دبي ، أن لم يقدر لها الانفراد وحدها بالزعامة فيه . ورغم

النص في ذلك القانون الأساسي على أنه لا يتعارض مع اتفاقية دبي الموقعة في ٢٧ فبراير ١٩٦٨ ، الا أنه كان من الواضح أنه لا يمكن وضعه موضع التنفيذ مع وجود الاتحاد الموسع ، لعدم امكانية وجود الاتحادين معا وفي وقت واحد(٥) .

وعندما فشلت مباحثات الاتحاد السباعي وعجزت جهود الوساطة عن اتمام مشروع الاتحاد تجددت الدعوة من الشيخ زايد بن سلطان في ٢٨ يونيو ١٩٧١ ، الى بقية حكام دبي والشارقة ورأس الخيمة للتداول في شأن عقد « مجلس حكام الامارات المتصالحة » وتحويل مكتب تطوير الامارات الى حكومة اتحادية ، وكان هذا المكتب قد بدأ اجتماعاته بالفعل منذ ٢٥ يونيو ، على اثر التطورات الاخيرة ، لاعداد الدراسات المتعلقة « باتمام » الاتحاد السباعي ، فيما يتعلق بشؤون الامن الداخلي وقوة الدفاع ، ومسائل الجنسية والجوازات ، واقتراح جدول أعمال لاجتماع الحكام الذي اقترح أن يتم في ٥ يوليو ١٩٧١(٦) .

وهذه التطورات تعني بطبيعة الحال ان أبو ظبي وبقية امارات ساحل عمان المتصالح لديها « البديل الاتحادي » في حالة فشل الاتحاد الموسع ، وانها لم تتخل عنه، حتى مع اعلان اتفاقية دبي وسير مباحثات الاتحاد . وتكمن خطورة هذا الامر عند تفسير مواقف هذه الامارات من الاتحاد التساعي وفي تشككها منذ البداية في امكانية نجاحه ، وبالتالي تقاعسها عن القيام بدور فعال كان منتظرا من امارة مثل أبو ظبي بالذات ، بما لها من حجم سياسي واقتصادي بينها . وكانت أبو ظبي بالفعل قد تحولت الى قوة متزعمة بسبب غناها العظيم من ناحية ، وبسبب الدور الفعال الذي قام به الشيخ زايد في تدعيم وتقوية العلاقات بين حكام الامارات الأخرى مما أكد زعامته بينها(٧) ، خاصة وقد اختير حاكمها رئيسا لدولة الاتحاد ، وعقدت فيها معظم اجتماعات الحكام ونوابهم ، كما اتفق على اتخاذها عاصمة مؤقتة للدولة الجديدة . فهل كانت امارات الساحل المتصالح السبع ترى أن الحساسيات التاريخية بين قطر والبحرين لن تسمح لهما بتجاوز الماضي والانخراط معا في الدولة الاتحادية الجديدة ؟ وبالتالي حاولت الحفاظ على مشروعها الاتحادي الخاص ، بل والابقاء على تنظيماته وتطويرها باصدار قانون أساسي . على كل حال في ضوء الاعتبارات السابقة يمكن أن تتحمل أبو ظبي ودبي قسطهما من مسؤولية فشل الاتحاد ، بما يتفق مع حجمهما داخل الامارات ، وما كان مأمولا أن يقوما به لانجاح المشروع .

وقد لا تكون مسؤولية الامارات الخمس الأخرى ، الشارقة ورأس الخيمة وعجمان وأم القوين والفجيرة ، كبيرة في افشال المشروع الاتحادي، لكنها بتعطيلها بعض القرارات ساهمت ، بشكل ما في اتاحة الفرصة لبعض الامارات أن تتراجع عما كانت قد أبدت من مرونة في قبوله ، وخير مثال على هذا موقفها من مسألة التمثيل في

المجلس الوطني الاستشاري ، فبالرغم من موافقة أبو ظبي وقطر ، في البداية ، على مطلب البحرين بشأن التمثيل النسبي ، لم يتمكن المجلس الاعلى من التوصل الى اتخاذ قرار بسبب موقف حكام هذه الامارات الخمس ، واصرارهم على مبدأ المساواة في التمثيل ، مما فتح الباب لمناقشات جديدة ، ومن ثم تراجعات جديدة .

والشيء نفسه حدث من جانب تلك الامارات الخمس حينما أصرت على أن يكون التصويت في المجلس الاعلى بالأجماع «تجسيدا لمبدأ المساواة بينها في السيادة »ووسيلة لحماية نفسها من أي قرار يصدر ضارا بمصالحها لحساب الامارات الكبرى ، ولذلك لم تصر فقط على وجوب اشتراط الاجماع في المجلس الأعلى ، وانما طالبت بضرورة جعله أساسا للتصويت في المجلس الاتحادي (الوزاري) كذلك .

والمثل الأخير على موقف تلك الامارات الخمس بدا واضحا عند توزيع الحقائب الوزارية ، إذ عقدت تلك الامارات اجتماعات خاصة فيما بينها ، وحاولت الحصول على حقائب الوزارات الرئيسية لنفسها ، الأمر الذي أثار أزمة فيما بينها كانت من أسباب فشل الدورة الرابعة . وكانت الامارات الصغيرة مدفوعة الى ذلك بالرغبة في تأكيد الذات ، مقابل استحواذ الامارات الكبرى على المراكز العليا في الاتحاد ، وقد أثارها بطبيعة الحال أن الامارات الكبرى منحت حق الاعتراض ، حين اشترط أن تكون موافقتها ضمن الأغلبية اذا ما حدث تصويت بشأن قرار للمجلس الأعلى ، ليصير نافذا . بينما كانت الامارات الأربع الكبرى تنظر اليها نظرة تتفق وحجمها ، ومن منطلق أنها — أي الكبرى — هي التي تتحمل المسؤوليات الاتحادية المختلفة(٨) .

وقد أسفرت الاتصالات التي تمت بين أبو ظبي ودبي والشارقة ورأس الخيمة عن اتمام مفاوضات اقامة الاتحاد الجديد خلال الفترة بين شهري يونيو/حزيران ، ويوليو/تموز ١٩٧١ ، وبالتحديد في ١٠ يوليو حين اجتمع حكام الامارات السبع في دبي باعتبارهم أعضاء « مجلس الامارات المتصالحة » واتفق الجميع على الخطوات المتعلقة باعلان الاتحاد(٩) . وفي ١٨ يوليو تموز ١٩٧١ تم اعلان ميلاد واستقلال « دولة الامارات العربية المتحدة » بدون قطر والبحرين على نحو ما هو معروف ، وكانت بذلك أول دولة في الخليج تعلن استقلالها . بل انها تعجلت القيام دون أن تنتظر الموقف الرسمي من حكومتي قطر والبحرين ، وقد أوضحت وثيقة استقلال الدولة الجديدة — التي تأخرت امارة رأس الخيمة قليلا قبل أن تنضم اليها — أوضحت هذه النقطة ، حين ورد بها « انه بعد انتهاء جولة الوفد السعودي — الكويتي المشترك ، وصلت الى حكومة أبو ظبي معلومات مفادها أن بعض الامارات تفكر جديا في الاستقلال منفردة في أوائل شهر مايو / أيار ١٩٧١ . ولما كان وصول هذه المعلومات قد حدث بطريقة غير رسمية فقد أوفد سمو الشيخ زايد بن سلطان كلا من الأستاذ أحمد خليفة السويدي والدكتور

عدنان الباجهجي الى قطر والبحرين لاستطلاع الموقف عن كثب ، ورغم أن المسؤولين في الامارتين أكدوا للوفد تمسكهم بالاتحاد ، فقد ظهر واضحا تمسك كل منهم باشتراطاته ، سيما فيما يتعلق بمكان العاصمة الاتحادية ، ونسبة تمثيل كل امارة في المجلس الوطني الاستشاري . وقد حاول وفد أبو ظبي أن يستشف امكانات عقد اجتماع للمجلس الأعلى لحكام الامارات ، ولكن الأشقاء في البحرين وقطر ، بينوا أنه ما لم تذلل الصعاب وتزال الخلافات في وجهات النظر ، قبل عقد هذا الاجتماع ، فالأفضل عدم عقده .. وقد بذل الوفد كل جهد ممكن لتقريب وجهات النظر بين الأشقاء في الامارتين ، ثم عاد الى أبو ظبي وقدم تقريرا الى الشيخ زايد عن نتيجة اتصالاته . ولم تمض على عودة الوفد الى أبو ظبي سوى فترة وجيزة ، حتى أبلغت حكومة البحرين حكومة أبو ظبي بأنها ، أي البحرين ، تفضل اعلان الاستقلال المنفرد . وهكذا لم يبق أمام حكام امارات الساحل العماني مناص من البدء في التفكير في الاتحاد السباعي ... »(١٠)

وعلى أثر اعلان قيام الدولة الجديدة واستقلالها ، بقي أن تحسم كل من البحرين وقطر موقفيهما الذي كان في الواقع قد تقرر منذ مدة ، فلم تلبث البحرين أن أعلنت هي الاخرى استقلالها في ١٤ آب / أغسطس ١٩٧١ ، ويعلق أحد المراقبين على ذلك بأنها لم تؤخر اعلان قيام دولتها ، كدولة مستقلة « إلا تنفيذا لتخطيط أو تكتيك اقليمي ، يقضي بألا يكون قيامها سابقا لقيام الدولة الاتحادية لتتفادى بذلك أي لوم يدينها تاريخيا ، ويسجل عليها أنها كانت السبب في تصديع الدولة الاتحادية »(١١) .

ومن المسلم به أن البحرين ، منذ نشأة فكرة الاتحاد وخلال مراحل تنفيذها الأولى ، كانت ترى أن مصلحتها تقتضي قيام دولة الاتحاد ، ومن ثم سعت لانجاحه ، لأنها بحجمها السكاني والحضاري ، ستكون أكثر أهمية وتأثيرا ، على المدى الطويل ، داخل اطار الوحدة السياسية الأكبر من ناحية ، ولأنها ستكون في مأمن من المطامع الايرانية التي تجددت بقوة عقب اعلان الانسحاب البريطاني(١٢) ، داخل « المحيط العربي » في الخليج من ناحية ثانية . غير أن هذه المسألة الاخيرة قد جرت عليها الكثير من المتاعب ، لأن وجودها داخل الاتحاد ، وهو ما لم ترحب به طهران ، بل هاجمته ، قد أثر بطبيعة الحال على موقف الامارات الأخرى منها ، خاصة من كانت لها علاقات طيبة بطهران ولا ترغب في معاداة الجارة القوية . أما حجم البحرين السكاني والحضاري ، فقد نفسته عليها امارات اخرى ، كانت ترى أنها أكبر منها مساحة أو أكثر مالا ، وقد انعكس ذلك على الصراع حول المناصب والمراكز الاتحادية العليا في الدولة الجديدة ، على نحو ما رأينا . وعلى ذلك كان موقف البحرين ، طوال شهور المباحثات العسيرة ، شائكا ومعقدا .

وقد تكررت تصريحات المسؤولين البحرينيين ، بتأكيد رغبة امارتهم في قيام دولة الاتحاد ، رغم احساسهم بمواقف الامارات الأخرى ، ولكن على أثر عودة الوفد البحريني من اجتماعات الدورة الثالثة للمجلس الأعلى للحكام ، التي انعقدت بالدوحة في مايو – أيار ١٩٦٩ ، أذاعت شركة الأنباء في البحرين اعلانا في ٢٠ مايو – أيار ١٩٦٩ عبر خلاله المسؤولون عن خيبة أملهم في أعقاب فشل اجتماع المجلس ، وذكر أن عددا كبيرا منهم يعتقدون أن تخوف الامارات لأخرى من تأييد البحرين في وجه المزاعم الايرانية هو أساس الخلافات الحالية بين حكام الامارات ، وأن معظمهم ، لذلك ، يتردد في منح البحرين أي دور أساسي في الاتحاد ، بالاضافة الى عدم عقد أي اجتماع من اجتماعات المجلسين الأعلى والاتحادي ، في البحرين . وأنه عندما سئل مدير المالية البحريني في ١٩ مايو / أيار ١٩٦٩ ، عن احتمال اعلان البحرين استقلالها ، أجاب بأن كل احتمالات المستقبل في حسابنا ، ولكن ليس في خططنا أن نفصل مصيرنا عن مصير أشقائنا في الخليج(١٢) .

وقد انعكست مواقف البحرين بشكل ايجابي خلال الدورة الرابعة للمجلس الأعلى للحكام ، حين عملت على ألا تكون سببا في أي مشكلة من المشكلات ، ووافقت على جميع مشروعات القرارات التي توصل اليها المؤتمر ، على نحو ما رأينا وبدرجة أثارت دهشة المراقبين ، حتى كانت النهاية الدرامية المفاجئة التي حدثت اثر تلاوة رسالة المقيم البريطاني ، وانفراط عقد المؤتمر ، ثم عدم التوقيع على قراراته ،حيث لم يعد لها قيمة من الناحية القانونية ، لعدم صدورها رسميا ،وهي الحجة التي تمسكت بها البحرين، فيما بعد ، للتنصل مما كانت قد وافقت عليه .

وربما يبدو صحيحا أن نفسر موقف البحرين « المتساهل » السابق بتوجيهات خارجية جاءت تحذرها من الابتعاد عن الاتحاد ،بل وتضغط عليها للسير فيه ومجاراته، خاصة اذا قدرنا أن بريطانيا باتت تتحاشى مواجهة الاطماع الايرانية في المنطقة بشكل مباشر ، ومن ثم دفعت البحرين للاستمرار في اطار الاتحاد . الى أن استجدت عوامل جديدة جعلت البحرين تغير من موقفها وتتحفظ على القرارات التي تم الاتفاق على مشروعاتها خلال اجتماعات لجنة نواب الحكام في أبو ظبي (أكتوبر / تشرين الاول ١٩٧٠) ، حين أعلنت البحرين أن القرارات لم تصدر رسميا ، وعليه فانها غير ملزمة قانونا بمسودات المشروعات ، وان من حقها اعادة النظر في أحكام مشروع الدستور المؤقت .

وقد دعى ذلك أحد المراقبين الى التعليق بأن البحرين التي كانت ترفع راية الاتحاد ، والتي تنازلت عن كثير من مطالبها ، ليكون الاتحاد ، اذا قام ،مظلة لها تحميها من المطامع الايرانية ، بدأت تضع العقبات في طريق قيام الاتحاد ، تتشبث باعادة النظر

في قرارات سبق وأن وافقت عليها ، وتساءل : هل السبب أنها تخلصت من حالة الخوف التي كانت تعانيها قبل أن تحل مشكلتها مع ايران ؟ . . . ان كل ما أثير في طريق الاتحاد ، مسائل ثانوية ، لا تعادل شيئا بالنسبة للفوائد التي سيجنيها شعب البحرين من قيام الاتحاد(١٤) .

ومنذ بداية عام ١٩٧٠ كانت البحرين قد شرعت في بناء أوضاعها السياسية والادارية الداخلية ، استعدادا للمرحلة الجديدة ، وجاء ذلك في أعقاب فشل الدورة الرابعة للمجلس الأعلى للحكام ، فاتخذت خطوات أثارت الاعتقاد بأنها بدأت تعمل بعيدا عن الاتحاد ، حين أصدر حاكمها في ١٩ يناير / كانون الثاني قرارا بانشاء « مجلس للدولة » يضم اثني عشر عضوا ، يترأسون هذا العدد من الدوائر الحكومية(١٥) ليكون بمثابة مجلس للوزراء برئاسة الشيخ خليفة بن سلمان ، كما صدرت قرارات تنظيمية داخلية أخرى ، تلتها خطوات على المستوى الدولي ، فأنشئت دائرتان احداهما للدفاع والاخرى للخارجية .

وفسرت تلك الخطوات بأن البحرين قد يئست من قيام الاتحاد ، وأنها بذلك تتحسب للمستقبل . وزاد من تأكيد هذا الاتجاه الجديد ما جرى من مباحثات سرية بين الحكومة البريطانية ، نيابة عن البحرين ، من جانب ، وشاه ايران من جانب آخر ، خلال شهر مارس/آذار ، وذلك بهدف تسوية مشكلة الادعاءات الايرانية في البحرين. وقد نتج عن هذه المباحثات أن عهد الجانبان الى الأمم المتحدة بحل المشكلة ، فأرسلت هذه لجنة لتقصي الحقائق أجرت استفتاء بين سكان البحرين حول استقلالهم كشعب عربي مستقل أو انضمامهم الى ايران ، جاءت نتيجته « أن أغلبية شعب البحرين يفضلون أن يعترف بهم كشعب مستقل من قبل المجتمع الدولي ، وأنهم احرار في تشكيل علاقاتهم بالدول الأخرى »(١٦) . ومع تأكيد عروبة البحرين أصبحت النزعة الاستقلالية لديها أقوى منها في أي وقت مضى بعد تسوية مشكلتها مع ايران(١٧) .

في ١١ مايو / أيار ١٩٧٠ صدق مجلس الامن على التقرير الذي أعدته لجنة تقصي الحقائق بالاجماع ، وقبلته بريطانيا وايران ، فانفتح الطريق امام البحرين للاختيار بين اعلان استقلالها التام ، أو أن تبقى متشبثة باقامة اتحاد لا تلعب فيه دورا يتفق مع حجمها(١٨) . وانعكس التطور الجديد في البحرين بطبيعة الحال على موقفها من مباحثات الاتحاد ، بل وخلال محاولات الوساطة البريطانية خلال ما تبقى من عام ١٩٧٠ ، فتراجعت عما كانت قبلته من تسوية لبعض مسائل الخلاف .

وعندما جرت الوساطة السعودية ـ الكويتية (يناير /كانون الثاني ـ ابريل/ نيسان ١٩٧١) كان واضحا أن البحرين قد هيأت نفسها لسبيل الاستقلال والابتعاد

الاتحاد . اذا لم تجد نفسها فيه ، وهذا يفسر استمرار تشددها وعدم قبولها محاولات التسوية التي طرحت خلال الوساطة على نحو ما رأينا . وحاولت أن تجد مبررا لانسحابها متذرعة بأن الوساطة السعودية ـ الكويتية أصبحت تسير في حلقة مفرغة، ونسبت بعض الصحف تصريحا أدلى به الشيخ محمد بن مبارك آل خليفة ، مدير خارجية البحرين ، ذكر فيه بأنه يعتقد أن الاتحاد ينبغي أن يكون مبنيا على أسس صحيحة فلا يكون اتحادا بين حكام .. وأنه من الضروري أن يكون للاتحاد مردود سياسي واقتصادي ، وأكد أن البحرين تنازلت بما فيه الكثير ، ولكنها كانت تود أن يراعي الحكام وضع الرأي العام فيها ، كما كان من الضروري أيضا مراعاة السبق الذي سجلته البحرين على بقية الامارات في مختلف المجالات(١٩) .

ولا ينبغي المبالغة في اعتبار ان انشاء مجلس دولة في البحرين في يناير / كانون الثاني ١٩٧٠ ، ثم قرار مجلس الأمن باستقلال البحرين وعروبتها في مايو / أيار ١٩٧٠، كانتا خطوتين على طريق ابتعادها واستقلالها عن مشروع اتحاد الامارات العربية ، فالخطوة الأولى لا تتعارض مع اتفاقية اتحاد الامارات الموقعة في ٢٧ فبراير / شباط ١٩٦٨ ، والبناء الداخلي للامارة لا يتعارض مع بناء دولة الاتحاد ، كما أن الخطوة الثانية تعني زوال الاطماع الايرانية وانهاء العلاقات التعاقدية الخاصة بين البحرين وبريطانيا ، وبالتالي ظهورها كامارة مستقلة أمام العالم ، وطلب الاعتراف بها على هذا النحو . وان الأقرب الى الصواب أن التطورات السابقة ، داخليا وخارجيا ، قد دعمت موقف البحرين الخاص ، وهو ما انعكس بدوره على ذلك الموقف من مشروع الاتحاد السباعي برمته .

وعندما استقلت الامارات السبع وكونت « دولة الامارات العربية المتحدة » في ١٨ يوليو / تموز ١٩٧١ ، أعلنت البحرين استقلالها هي الأخرى منفردة في ١٤ أغسطس / آب من العام نفسه . وأشارت وثيقة استقلالها ـ من وجهة النظر البحرينية ـ الى المبادىء التي آمنت بها . خلال محادثات الاتحاد ، ولخصتها في ضرورة وضع دستور حديث يقوم على مبدأ الفصل بين السلطات ، وتوزيع الاختصاصات بين الاجهزة الحكومية .. الخ « مع عدم المساس بحقوق المواطنين الدستورية ، المتعلقة بمبدأ تمثيلهم في مجلس وطني نيابي ينتخب انتخابا صحيحا على أساس الكثافة السكانية للامارات الأعضاء في الاتحاد .. وأن جهودنا في وضع هذه المبادىء في صلب مشروع الدستور لم توفق » . وأضافت الوثيقة أن البحرين أيديت المقترحات التي قدمها وفد الوساطة السعودية ـ الكويتية « بالرغم من أنها تمثل الحد الأدنى للمبادىء الأساسية التي عرضتها البحرين .. ثم لم تبد أية اعتراضات على المقترحات المعدلة بالرغم من أنها كانت تمثل أقل مما كنا نطالب به ، ونتيجة لذلك لم يكن للبحرين أي مناص من التفكير في سبيل يصون لنا كياننا واستقلالنا »(٢٠) .

ومن الملاحظ أن وثيقة الاستقلال السابقة أضافت أن البحرين تفتح ذراعيها لتبني فكرة أي اتحاد جديد للامارات ، حالما يقوم على قدميه ويترعرع ، وعليه فان اعلان حكومة البحرين عن استقلالها التام بموجب هذا البيان « سوف لن يؤثر بأية حال على استعدادها دوما للانضمام الى اتحاد الامارات العربية ، أو الى دولة الامارات العربية الجديدة ، حالما تدعى اليها في المستقبل وحالما تنشأ حكومتها ويقوم بناؤها على الأسس والمبادىء الدستورية السليمة التي يؤمن بها شعب هذه المنطقة»(٢١) . ولكن هذا الاعلان قد يثير التساؤل حول معنى الايمان بمبدأ الاتحاد وتبني فكرته ، ثم الاعلان عن الاستقلال المنفرد ، بينما هناك دولة اتحادية تضم الامارات السبع قد قامت على نفس المبادىء ، خاصة وأن الدولة الجديدة قامت بدون دولة قطر .. !

وقد يكون من الانصاف القول بأن البحرين ، بحجمها السكاني الكبير ، الذي يفوق عدد سكان الامارات الأخرى جميعا ، وبتطورها الحضاري الأسبق ، قد تجوهلت في بعض المسائل التي رأتها هامة ، منها المناصب العليا في الاتحاد ، ومنها أيضا اتخاذ عاصمتها مقرا لبعض اجتماعات الاتحاد ،ورات أنها عوملت معاملة أيامارة من الامارات الخمس الصغيرة ، وقد يبدو أمرا طبيعيا أن تعامل جميع امارات الاتحاد ، داخل دولة ، على قدم وساق ، وبنفس القدر ، لكن الامارات الثلاث الكبيرة ـ أبو ظبي وقطر ودبي ـ لم تطبق هذا المبدأ منذ البداية ، وانما ألقت بثقلها السياسي والاقتصادي ـ النسبي ـ واعتبرت نفسها المسؤولة عن قيام الاتحاد وقيادته ، فخلقت بذلك لدى المسؤولين البحرينيين مرارة وشعورا بالغبن ، نتيجة لشعورهم بعدم المساواة مع الامارات الثلاث الكبيرة .

وبنفس النظرة ينبغي أن تتحمل البحرين مسؤوليتها التاريخية في المصير الذي انتهى اليه الاتحاد ، وبما يتفق وحجمها وما كان مطلوبا منها ، فأخضعت مواقفها خلال مباحثات الاتحاد ، طبقا لما تتعرض له خارجيا من ضغوط وادعاءات ، ولما سوف تستفيده « مؤقتا » من الاتحاد ، وما ينوء به كاهلها من مشكلات تاريخية لم تتجاوزها، ومن هنا ناور ممثلوها ، وتراوحت مواقفهم بين التردد والتأييد في التراجع ، فيما وافقت عليه وما أجمعت عليه الامارات الاخرى ، وافتعال الازمات الشكلية أحيانا ، بشكل لا يتفق مع الايمان الحقيقي أو المبدئي بضرورة الاتحاد وأهميته ، أو القدرة على التصور أنها ستجد مستقبلا وضعها ووزنها الحقيقي ، داخل دولة الاتحاد ، قويا ومؤثرا وهاما .

* * *

أما بالنسبة لقطر فلم يعد ثمة خيار أمامها لكي تعلن هي الاخرى استقلالها منفردة ، بعد أن اتحدت امارات ساحل عمان المتصالح السبع وكونت دولة مستقلة ،

وبعد أن استقلت البحرين وكونت دولة خاصة بها ، وكانت قطر قد لعبت دورا هاما في سبيل اقامة الاتحاد ، منذ أن سارعت باعداد مشروعه عشية الاعلان البريطاني ، وحتى اعداد اتفاقيته التي وقعت في دبي في ٢٧ فبراير / شباط ١٩٦٨ ، والتي أعلن بموجبها قيام « اتحاد الامارات العربية » .

وقد تحملت قطر مسؤولياتها خلال مباحثات الاتحاد الشاقة والطويلة (نحو ثلاث سنوات) فقدمت مسودات مشروعات وقرارات وشاركت في كل اللجان ، واستضافت العديد من دورات واجتماعات مجلس الاتحاد (الأعلى والمؤقت) وترأس ولي عهدها ونائب حاكمها ــ آنئذ ــ الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني المجلس الاتحادي المؤقت الذي اعتبر نواة لمجلس وزراء اتحادي . وعندما فشلت الدورة الرابعة للمجلس الأعلى في أن تستكمل دراسة جدول أعمالها أصدرت الحكومة القطرية بيانها المشار اليه في ٣١ اكتوبر / تشرين الأول ١٩٦٩ الذي بلورت فيه نقاط الخلاف وحددت موقفها ، ثم قامت باجراء اتصالات ومشاورات جديدة مع الامارات الأخرى لكي تثبت أنها لا تنوي الانسحاب من الاتحاد .

وبالرغم من ذلك فان قطر بدأت تفترض احتمال عدم اتمام مشروع الاتحاد ، مما جعل حكومتها تتحسب للمستقبل،وخاصة فيما يتعلق بمسألة الاستقلال عن بريطانيا، واتخاذ العدة المؤهلة لذلك . ومن المسلم به أن قطر كانت ترى نفسها مؤهلة لكي تلعب دورا قياديا داخل دولة الاتحاد ، كما كانت ترفض قبول هيمنة البحرين على الاتحاد ، شاعرة بأن لها مركزا متميزا بين الامارات المتزعمة للاتحاد فهي الامارة الوحيدة التي ليست لها مشكلة أمنية مسلطة عليها ، كما أنه لم يعد لها مشكلات حدودية مع المملكة العربية السعودية ، بعد أن حلت ودياً مما قوى الروابط بينهما(٢٢) . يضاف الى ما سبق أقدميتها في العمل السياسي والنمو الاقتصادي ، وانها لا مطالب أجنبية فيها، ولا مطالب عربية في أرضها ، ولا مشكلة أقلية(٢٣) .

يضاف الى ما سبق أن قطر خلال عقد الستينيات قد اتخذت خطوات سياسية، داخلياً وخارجياً ، مهدت لها في النهاية سبل الاستقلال ، فألغي منصب المستشار البريطاني لحكومة قطر ، الذي كان يهيمن على دوائر الحكومة مع وجود المديرين المساعدين له ، بعد أن تبنت قطر خطة لتعريب الادارة ، كما أقصي مدير الامن البريطاني أيضا من منصبه ، وحتى أواخر الستينيات ، لم يعد بالادارة القطرية سوى بعض المهندسين والعسكريين(٢٤) . وفيما يتعلق بالخطوات الخارجية فقد انضمت قطر في يناير / كانون الثاني ١٩٦١ الى منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبيك) واشتركت في دورات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية ، تمهيدا للانضمام للجامعة العربية(٢٥) ويضاف الى ما سبق اصدار قانون الجنسية القطرية عام ١٩٦١ ، مما ساعد على بلورة

الشخصية الوطنية لقطر والقطريين ، ثم استكمال بناء الجهاز الاداري عام ١٩٦٢ بانشاء أربع ادارات رئيسة ـ بمثابة وزارات ـ للشؤون المالية ، والشؤون الادارية ، وشؤون النفط ، ثم ادارة للشؤون القانونية ، وعندما أعلنت بريطانيا أنها ستنسحب من الخليج ، بدأ دور المعتمد البريطاني في قطر يتقلص بشكل تدريجي حتى كاد أن ينحصر في المهام القنصلية وحدها(٢٦) .

وقد ترتب على الخطوات السابقة خطوة جديدة تتعلق بممارسة الشؤون الخارجية التي كان المعتمد البريطاني يتولاها ، فأصدرت الحكومة القطرية في ٢٦ يونيو / حزيران ١٩٦٩ مرسوما بقانون يتعلق بانشاء « ادارة للشؤون الخارجية » ، تتبع دار الحكومة ، أصبحت نواة لوزارة الخارجية . وكان من بين اختصاصات هذه الادارة اقتراح أسس السياسة الخارجية العامة للدولة ووضع خطط تنفيذها ودعم وتنمية الروابط الاتحادية في شتى المجالات بين امارة قطر والامارات الأخرى ، وانماء العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الامارة والدول العربية خاصة ، والدول الأخرى بوجه عام .. ويكون لها مكاتب في الخارج تكون تابعة للادارة .. الخ(٢٧) . واعتبرت المذكرة التنفيذية لهذا المرسوم أن انشاء هذه الادارة خطوة طيبة في اطار اتحاد الامارات العربية ، إذ من شأنها أن تتعاون هذه الادارة مع غيرها من الادارات الأخرى لامارات الاتحاد ، على خلق نواة صالحة لوزارة الخارجية الاتحادية ، كما أن هذه الادارة تهدف الى تحقيق غاية مرحلية محدودة ، حتى يتم قيام وزارة خارجية اتحاد الامارات العربية ، فاذا تم ذلك ، زالت أسباب انشاء تلك الادارة(٢٨) .

ومن الواضح أن المذكرة التفسيرية للمرسوم السابق تتحسب مسبقا ، لما يمكن أن يثار من تساؤل أو استنكار من جانب بعض الامارات الأعضاء في اتحاد الامارات العربية ، وهو ما حدث بالفعل ، فرأت بعض الامارات ، أن قطر بانشاء ادارة للشؤون الخارجية تقيم الدليل على أنها تعمل على وأد الاتحاد ، فردت الحكومة القطرية على ذلك بأن امارتي أبو ظبي والبحرين قد أنشأتا مثل تلك الادارة في كل منهما ، قبل شهور ، ولم يوجه اليهما مثل هذا الاتهام ، كما أضافت بأن هذه الادارات من شأنها أن تخلق نواة صالحة لوزارة الخارجية الاتحادية في المستقبل(٢٩) . وبذلك يتضح أن اتجاها جديدا في السياسة القطرية ، لا يرى تناقضا بين انشاء الادارة وانشاء وزارة للخارجية في دولة الاتحاد ، اذا ما قدر لها أن تقوم ، وفي نفس الوقت تكون هذه الادارة نواة لوزارة خارجية قطرية ، اذا لم يتم مشروع الاتحاد ، وهو تفكير يعد ، في نفس الوقت ، استكمالا لمقدمات الاستقلال ، فيما يتعلق ببناء الجهاز الاداري للحكومة ، والذي شرعت فيه قطر منذ عام ١٩٦٢ .

وتتضح صورة الاتجاه السياسي الجديد أكثر ، باتخاذ خطوة هامة في الثاني من

ابريل / نيسان ١٩٧٠ ، عندما أصدرت الحكومة القطرية دستورا خاصا بقطر يحمل اسم « النظام الأساسي المؤقت للحكم في قطر » وارسلت مبعوثين عنها لتبليغ حكام الامارات الاخرى بهذه الخطوات وتفسيرها ، قبيل أربع وعشرين ساعة من اعلان هذا الدستور ، مما أعطى فرصة ضئيلة لمراجعتها(٣٠) ، ومع ذلك قوبل الاجراء القطري بدهشة من جانب بعض الامارات ، حيث اعتبرته ابتعادا عن الاتحاد ، واختيارا للاستقلال المنفرد ، بدستور خاص ، برغم أن الأمل في اتمام قيام الاتحاد لم يكن قد انتهى تماما .

لذلك أصدرت الحكومة القطرية مذكرة في ١٥ أبريل / نيسان ١٩٧٠ حاولت أن توضح بها أن نصوص هذا الدستور ، لا تتعارض مع عضوية قطر في الاتحاد ، بل هي تطبيق لها(٣١) ، وأنه ورد بديباجته « أن من أجل وأعز أمانينا أن نهيىء للشعب حياة عزيزة ، في كنف اتحاد الامارات العربية الذي نؤمن بأنه أمثل الطرق لضمان الاستقرار والتقدم والازدهار لأعضائه جميعا » ، كما ورد بمادته الاولى أن « قطر دولة عربية مستقلة ذات سيادة ، عضو في اتحاد الامارات العربية »(٣٢) ومن مقتضى النص السابق أن استقلال قطر ، لا يتنافى مع عضويتها في الاتحاد ، ومن ثم فان كل خطوة تخطوها نحو استقلالها ، ليست تبعدها بالضرورة عن الاتحاد .

وقد أضافت المذكرة القطرية أن قرار المجلس الأعلى رقم ٣ لعام ١٩٦٩ قد نوه بامكان أن يكون لكل امارة دستور ، حين قضى بانشاء مجلس وزراء يكون من اختصاصاته بحث الدساتير والقوانين التي تسنها الامارات لنفسها ، للتحقق من عدم تعارضها مع أحكام الدستور والقوانين الاتحادية . كما أن اتفاقية الاتحاد تنص على دعم احترام كل امارة لاستقلال الأخرى وسيادتها(٣٣) .

ومن الملاحظ كذلك أن الدستور القطري لم يحتو على نص بانشاء وزارتين احداهما للخارجية وأخرى للدفاع ، كما فعلت البحرين على اعتبار أن هاتين الوزارتين هما من اختصاص الحكومة الاتحادية(٣٤) مما يعزز فكرة أن صدور هذا الدستور لا يعد ابتعادا عن الاتحاد . وقد أوضح الدكتور حسن كامل هذه النقطة في حديث له ذكر فيه « ان شؤون الدفاع والسياسة الخارجية والتمثيل الدبلوماسي والقنصلي من اختصاصات الاتحاد ، بنص صريح في اتفاقية دبي .. وفي عدم وجود هاتين الوزارتين في نظام قطر يؤكد حرصها على تمسكها تمسكا كليا بعضويتها في الاتحاد »(٣٥) .

واذا كانت الخطوات السابقة من جانب قطر ، تجد تبريرا من جانب المسؤولين القطريين، يجعلها تتفق ووثائق الاتحاد أو لا تتعارض معها ، وأنه قد روعي ذلك عند اعدادها لاستكمال بناء الدولة والأخذ بأسباب الاستقلال ومقدماته ، فمن الملاحظ أنها

تعطي « بديلا خاصا » في حال اليأس من نجاح المشروع الاتحادي ، فادارة الشؤون الخارجية تتحول الى وزارة ، والدستور لا يحتاج إلا الى بعض التعديل (حدث فيما بعد) مما يعزز موقف قطر عند استكمال مباحثات الاتحاد ووساطات انقاذها ، والسير فيها الى نهايتها المقدورة ؛ خاصة وقد رأت أن البحرين تتجه ـ قبلها ـ الاتجاه نفسه.

وبينما تتعثر محاولات الوساطة في أوائل عام ١٩٧١ ويقترب موعد الانسحاب البريطاني ،راحت السلطات القطرية تستعد ـ داخليا ـ برسم خطوات سياستها المقبلة في حال اليأس التام من اخراج الاتحاد الى حيز الوجود ،والاتجاه نحو الاستقلال تحقيقا لمصلحتها . وكانت أهم هذه الخطوات الغاء معاهدة الحماية البريطانية على قطر والاعتراف باستقلالها ؛ بعقد اتفاقية مع الحكومة البريطانية في غضون الشهور القليلة التالية ، ثم السعي للحصول على الاعتراف بقطر دولة كاملة الاستقلال تامة السيادة من جانب الدول العربية والحكومة البريطانية وأكبر عدد من الدول ، ثم الانضمام لعضوية الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة ، واخيرا يمكن تحويل ادارة الشؤون الخارجية ـ مع بعض التعديلات اللازمة ـ الى وزارة للخارجية(٣٦) .

وعندما فشلت الوساطة الأخيرة وبدا واضحا أن امارات ساحل عمان السبع تتجه نحو اعلان اتحادها في دولة واحدة مستقلة ، وهو ما حدث في يوليو / تموز ١٩٧١ ، ثم اعلان البحرين استقلالها منفردة بعد ذلك بنحو شهر ، كانت الحكومة القطرية هي الأخرى قد استكملت استعدادها للسير في الاتجاه ذاته . وما أن جاء أول سبتمبر / أيلول ١٩٧١ حتى كانت محادثات ووثائق الاستقلال قد اتفق عليها بين الجانبين القطري والبريطاني ، لتعلن قطر استقلالها استقلالا تاما وتصبح دولة ذات سيادة كاملة ، في الداخل والخارج ، ولتنتهي بذلك ، شأنها شأن البحرين ، صلتها باتحاد الامارات العربية ، الذي تحول بالامارات السبع الى « دولة الامارات العربية المتحدة » .

وعلى كل فان قطر قد تحملت جزءا من المسؤولية كبقية شقيقاتها في المصير الذي انتهى اليه مشروع الاتحاد التساعي، تلك المسؤولية التي تتحدد في اعتبارين أساسيين، أولهما : حجمها بين الامارات الأربع الكبيرة ، اقتصاديا وبشريا . وثانيهما : الدور الأساسي والرائد الذي لعبته منذ البداية لاقامة اتحاد الإمارات ، مذ كان مجرد فكرة نشأت عشية القرار البريطاني بالانسحاب ، وحتى آخر مراحل المباحثات الشاقة والمرهقة . فهذين الاعتبارين جعلاها تلعب دورا نفسته عليها بعض الامارات الأخرى، وتتصرف بأسلوب جعلها موضع اتهام من البعض الآخر بالرغبة في تزعم الاتحاد وقيادته .

* * *

الحواشـــي

(١) عادل الطبطبائي : النظام الاتحادي في دولة الامارات العربية ، ودراسة مقارنة ١٩٧٨، ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) محمد أبو الحديد : الحركة الوحدوية في الخليج ، مجلة السياسة الدولية، القاهره، عدد يناير / كانون الثاني ١٩٦٩ ص ١٦١ .

(٣) وحيد رأفت : دراسات ووثائق حول اتحاد الامارات العربية في الخليج ، المجلة المصرية للقانون الدولي ، عام ١٩٧٠م . ص ٤٤ ؛ صلاح العقاد : اتحاد امارات الخليج العربي ص ١٣٩ .

(٤) جمال زكريا قاسم: الخليج العربي ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ — ١٩٧١ ، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٧٤م . ص ٣٧٦ .

(٥) راجع عادل الطبطبائي : المرجع السابق ، ص٥٨ .وكذلك وحيد رأفت، المرجع السابق ص ١٣١ .

(٦) Tariam, P. 173 .

(٧) Zahlan, Rosemarie Said , **The origins of the United Arab Emirates- A Political and Social History of the Trucial States** , Macmillan Press, London 1978, P. 195 .

(٨) وثائق اتحاد الامارات العربية ، راجع رد حكومة قطر في ٢٤ ابريل / نيسان ١٩٧١ على لجنة الوساطة السعودية — الكويتية . « وثائق منشورة » .
— وكذلك وساطة وليم لوس الذي اقتصر في اتصالاته مع حكام ومستشاري الامارات الامارات الاربع الكبرى .

(٩) Heard Bey , Franke, **From Trucial State to United Arab Emirates,** - London 1982, P. 362

(١٠) نص وثيقة استقلال دولة الامارات العربية المتحدة ، بكتاب زكريا نبيل : بؤرة الخطر في الخليج العربي ، القاهرة ، مايو / أيار ١٩٧٤م . ص٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١١) راجع كتاب زكريا نيل: بؤرة الخطر فيالخليج العربي ،ص ٢٢٨ .

(١٢) Zahlan, R. S. , the Creation of Qatar , P. 105 .

(١٣) نقلا عن وحيد رافت : المرجع السابق ،ص ٢٢٨ .

(١٤) رصاصتان في الخليج ، ط١ ، منشورات الحوادث ، بيروت ١٩٧١م ، مقالات من مايو / أيار ١٩٦٨ — يناير / كانون الثاني ١٩٧١. ص ١١٢ — ١١٤ ويضيف أن المسؤولين في البحرين كانوا يقولون انهم سفهونا واهانونا في مؤتمر أبو ظبي ، فهل يجوز أن يكون للبحرين ممثلون في عدد ممثلي رأس الخيمة أو أم القوين أو عجمان .

(١٥) محمد الرميحي : البحرين ، مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي ، ص ٢٤٨ ويضيف أن المجلس كان يضم الى جانب الرئيس ، أربعة من آل خليفة ، وان مجلس الدولة هذا قد تحول اسمه الى المجلس الوزاري بعد الاستقلال دون تغيير في تكوينه أو عضويته .

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٨ ويضيف هـ (٣٢) أنه ينبغي أن نضع في الاعتبار أن قبول ايران بهذه التسوية هو اعتراف منها بالامر الواقع ولا نعتقد أنه التخلي عن مطامعها .

(١٧) Zahlan , R. S. , OP. cit. , P. 106

(١٨) راجع ، وحيد رأفت : المرجع السابق ، ص١٣١ وما بعدها ، وكذلك محمد الرميحي، المرجع السابق ، ص ٢٤٧–٢٤٨ .

(١٩) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص٣٩٧ والحديث ادلى به الشيخالىجريدة السياسة الكويتية في ١٠ ابريل / نيسان ١٩٧١ .

(٢٠) بيان استقلال البحرين ، قصر الرفاع ، ١٤ اغسطس / آب ١٩٧١ ، بتوقيع الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة « زكريا نيل » المرجع السابق ص ٢٢٩ – ٢٣٤ » .

(٢١) نفس البيان السابق .

(٢٢) Zahlan , R. S. , OP. cit. , P. 105

(٢٣) رياض الريس : صراع الواحات والنفط ، ص٧١–٧٢ .

(٢٤) راجع كتاب العهد : قطر وثروتها النفطية ، ص ٢٤٤ ، وما بعدها .

(٢٥) مصطفى مراد الدباغ : قطر ، ماضيها وحاضرها ، ص ٢٦٩ « تقرير وفد قطر الى اللجنة ».

(٢٦) مجموعة قوانين قطر ، ١٩٦١ – ١٩٨٥ ، ادارة الشؤون القانونية بوزارة العدل – الدوحة ١٩٦٨م . المجلد الرابع ، ص ١٨٤٩ « قانون الجنسية ثم التعديلات التي ادخلت عليه » ويوسف عبيدان : المؤسسات السياسية في دولة قطر ، ص ١٤٤ .

(٢٧) مجموعة قوانين قطر ، المجلد الرابع ، ص٢٠٨٧ ، المرسوم بقانون رقم ١١ لسنة ١٩٦٩ .

(٢٨) المصدر السابق ، المذكرة التفسيرية للمرسوم بقانون رقم ١١ لسنة ١٩٦٩ .

(٢٩) وثائق اتحاد الامارات العربية : بعض الحقائق المستمدة من الوثائق التاريخية ، بقلم مؤرخ منصف « بدون تاريخ أو توقيع، ٢٣ صفحة » .

(٣٠) Zahlan , R. S. , OP. cit. P. 107

(٣١) وثائق اتحاد الامارات العربية : مذكرة عن عضوية قطر في اتحاد الامارات العربية تطبيقا لاحكام النظام الاساسي الموقت للحكم في قطر، الدوحة في ١٥/٤/١٩٧٠ ، بتوقيع د. حسن كامل .

(٣٢) راجع نص وثيقة النظام الاساسي المؤقت للحكم في قطر ، الدوحة في ٢/٤/ ١٩٧٠ بتوقيع الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، مجموعة قوانين قطر ، المجلد الثالث ، ص ٣ وما بعدها .

(٣٣) وثائق الامارات العربية ، مذكرة قطر السابقة في ١٥/٤/١٩٧٠

(٣٤) Sadik, M. and Sanvely W. **Bahrain Qatar and United Arab Emirates - in Social and Economic Development in the Arab Gulf** . edited by Tim Niblock, Croom Helm, London, **1980 , P. 196 .**

(٣٥) وثائق اتحاد الامارات العربية : نص الاسئلة التي وجهها مندوب دار الصياد للدكتور حسن كامل بمناسبة صدور النظام الاساسي المؤقت ونص الاجوبة عليها .

(٣٦) وثائق اتحاد الامارات العربية : مذكرة سريعة عن أهم الخطوات الواجب اتباعها في مجال الشؤون الخارجية في حال اتجاه قطر – اضطرارا – الى الاستقلال « سري جدا » ، بتوقيع د. حسن كامل ، مستشار حكومة قطر ، الدوحة في ٢٥/٢/١٩٧١ .

* * *

تمرد قبيلتي البوعلي والجنبة في صور

على سلطة حكومة مسقط ١٩٢٣ - ١٩٣٢

د. ابراهيم شهداد

جامعة قطر

تمثل الصراعات الداخلية بتوجهاتها المختلفة أبرز سمات التاريخ العماني ، وغالبا ما كانت تتخذ أشكالا مختلفة ، منها الصراع التقليدي بين السلطة الدينية الممثلة في الامامة وانصارها ، والسلطة المدنية الممثلة في سلطان مسقط الذي كان يلقى الدعم من قوة أجنبية وهي بريطانيا (*) ، ومنها الصراعات بين القبائل العمانية نفسها التي كانت تتكون من نحو مائة وست عشرة قبيلة(١) ، أو بينها وبين السلطة المركزية في مسقط ، بمحاولاتها المتعددة الى الجنوح عن سلطة الحكومة بمجرد احساسها بأن مصالحها مست، كتنصل الحكومة مثلا من العطايا التي تمنحها لتلك القبائل ، أو فرضها قوانين تضر بالقبائل، كما فعلت في عام ١٩١٢، عند فرضها قانون منع تجارة الأسلحة، مما أدى الى ردود فعل عنيفة في أوساط القبائل ، التي كانت تعد تلك التجارة مصدرا هاما لتسلحها ، بالاضافة الى كونها احدى مصادر دخلها الرئيسة . وكانت ردود الفعل في العادة تتمثل بقيام القبائل بأعمال مضادة للحكومة ، كمهاجمة مصالحها أو مهاجمة الافراد الذين تربطهم مصالح معها ، بل كانت الامور تصل بها في بعض الاحيان الى اتخاذها مواقف لها طابع التمرد والانفصال عن سلطة الحكومة . ومن أبرز تلك المحاولات ما قامت به قبيلتا البوعلي والجنبة في منطقة صور في الفترة من عام ١٩٢٣ الى ١٩٣٢ .

كانت الامور قد أخذت بالاستقرار في عمان لمصلحة سعيد بن تيمور سلطان مسقط ، في أعقاب الاتفاقية التي عقدها مع أمام عمان في ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٢٠ في قرية السيب ، وعرفت باتفاقية السيب ، وتمت بتوسط المقيم السياسي البريطاني في مسقط ، فاعترف كل فريق بالاخر ،ووضعت ضوابط لتنقل البضائع والافراد بين المنطقتين ، واقامة الامن ومعاقبة المخلين به ، وتعهد فيها أهل عمان بمسالمة السلطان

(*) لمعرفة تفاصيل هذا الصراع يمكن الرجوع الى : ابراهيم شهداد « الصراع الداخلي في عمان خلال القرن العشرين » أطروحة دكتوراه « قيد الطباعة » .

وطرد كل مسيىء لحكومة مسقط (*) .

ما كادت هذه الاتفاقية ترسي قواعد التعامل بين السلطنة والامامة حتى جوبه سلطان مسقط قام ١٩٢٣ بحركة تمرد قامت بها قبيلتا الجنبة والبوعلي في أهم منطقة من مناطق نفوذه في صور على الساحل ، والتي كانت عوائدها تشكل جزءا كبيرا من دخل الحكومة لكونها الميناء الثاني لحكومة مسقط والميناء الرئيسي لتصدير التمور في المقاطعة الشرقية ، الى جانب اشتهارها بتجارة العبيد والسلاح وتواجد أعداد كبيرة من الرعايا الانكليز والتجار الهنود فيها(٢) .

بدأت أحداث ذلك التمرد عندما بدأ البوعلي الذين كانوا من أقوى مؤيدي سلطان مسقط ، بقيادة شيخهم محمد بن ناصر مع عمه الشيخ علي بن عبد الله ، بتبني أسلوب جديد في علاقتهم مع السلطان والتفكير جديا بالاستقلال عن الحكومة ، مستغلين ضعف السلطان،وامتناعه عن دفع رواتبهم الدورية من أجل دوام ولائهم . فقام الشيخ محمد بن ناصر بتوجيه رسالة الى الوكيل السياسي البريطاني في مسقط يطالبه فيها بالدخول في علاقات مباشرة مع حكومته ، وأن تعترف به حكومة الهند حاكما مستقلا . غير أن طلبه بقي بلا رد ، الا أن ذلك لم يثنه عن اعلان استقلاله واتخاذ لقب أمير جعلان(**) مدركا أن الوقت ملائم لتأكيد استقلاله الفعلي عن السلطة أسوة بالامام الاباضي الذي كان قد استقل في عمان بعد اتفاقية السيب . فأعلن عام ١٩٢٤ بأنه لا يحق لسلطان مسقط تحصيل الضرائب من صور والموانىء المجاورة وفرض ضريبة قدرها دولارا*** واحدا على كل جمل محمل ذاهب أو عائد من صور وشرع في عمل عدة استحكامات في الميناء المذكور . وحاول في الوقت نفسه الحصول على تأييد سعودي فأوفد الى ابن سعود في عام ١٩٢٧ بعثة على رأسها بعض اخوته الذين كانوا يحكمون عددا من الموانىء والجزر المجاورة لصور(٣) .

وكان موقف والي صور حمود بن حمد ازاء ما قام به البوعلي موقف العاجز وكثيرا ما كان يقضي معظم وقته في السيب هربا من تلك المشاكل ، ويبدو أن سبب عجزه راجع الى عدم اهتمام السلطات المسقطية في بداية الامر فيما يبدو بالاحداث الدائرة هناك ، ورفضها طلبه بتزويده ببعض الجنود العرب لمعاونته في فرض سلطته ،

---

* لمزيد من التفاصيل عن اتفاقية السيب يمكن الرجوع الى أطروحة الدكتوراة السابقة الذكر . وحول النص الكامل لها بالانكليزية انظر : جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي (دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥) القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٧٣ ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

** جعلان موطن قبيلة البوعلي وتقع على بعد ٤٠ ميلا الى الجنوب الغربي من صور .

*** يقصد بالدولار : دولار ماريا تريزا ، وكان في ذلك الوقت يساوي ٢٦ر١ روبية هندية تقريبا .

وتوجيهها له بضرورة الاعتماد على قدراته الذاتية(٤) ،وهذا التهاون وعدم تقدير حكومة مسقط للاحداث الدائرة في صور دفع أكبر القبائل في المنطقة وهي قبيلة الجنبة الى الاقتداء بما قام به البوعلي فأنشأت مراكز جمركية في الموانىء التابعة لها على مقربة من صور ، وقامت بتحصيل الضرائب لصالحها ، كما رفض شيخ القبيلة مطالب حكومة مسقط بتسجيل السفن وتحصيل الضرائب باسم السلطان على الرغم من الوعود التي تلقاها بضمان اعفائه من الضرائب(٥). وزاد في تعقيد الامور تدخل أنصار الامامة في الاحداث الدائرة في صور لعدم رضاهم عن انفراد قبيلة البوعلي الغافرية الوهابية المذهب بالسيطرة على ميناء صور ومن ثم تحديها لنفوذ القبائل الهناوية الاباضية المذهب في المنطقة ، وبخاصة منها قبيلة بني بوحسن المتحالفة مع الشيخ عيسى بن صالح المساعد الاول للامام الخليلي ، وتخوفوا كذلك من تعرض وارداتهم من البضائع الأجنبية التي كانت تأتي أغلبها من موانىء صور الى مخاطر الاستيلاء عليها من قبل قبيلة البوعلي . لذلك بات الامر خطيرا اذا ما تساهل سلطان مسقط سعيد بن تيمور في القبض على زمام الموقف في صور ، وبخاصة في حالة تدخل قوات الامامة ، مما يترتب على ذلك نشوب حرب قبلية لا هوادة فيها وقد يستغلها ابن سعود ، الذي كانت علاقاته مع الطرف السلطاني والامامي في توتر مستمر لصالحه . والغريب في الامر انه على الرغم من تفاعل تلك الاحداث في صور وسيرها بشكل يهدد سلطة سلطان مسقط ، فقد ظلت حكومة الهند الانجليزية صاحبة النفوذ الفعلي في مسقط تنظر اليها وكأنها مشكلات داخلية حتى عام ١٩٢٨ ، عندما ساءت الامور بشكل غير متوقع ، مبدية وجهة نظرها بأنه في حالة اعلان ابن سعود حمايته على البوعلي ، فلا بد من تذكيره بنص المادة السادسة من اتفاقية جدة(٦) التي وقعها مع بريطانيا في عام ١٩٢٧ ، وفي حال عدم استجابته لذلك يفضل عندئذ ارسال قوة عسكرية من الهند للاستيلاء على الميناء المذكور على أن يكون ذلك احتلالا مؤقتا حتى يعاد الموقف لصالح السلطنة ، بينما كان اقتراح المجلس النيابي في مسقط القبض على أمير جعلان واخضاع ميناء صور بالقوة لأن السلطنة مهددة بأن تفقد نصف دخلها فيما لو خضعت صور للسيطرة السعودية أو الاباضية(٧) .

وفي يناير / كانون الثاني ١٩٣٠ ناشد المقيم السياسي في الخليج ، حكومة الهند بضرورة ايجاد تسوية للأوضاع المتردية في صور مقترحا عليها الآتي :

أولا ـ تسوية الصراعات الداخلية بين قبائل الجنبة ، وتعيين أحد الشيوخ الموالين لمسقط واليا على صور .

ثانيا ـ استمالة الشيخ علي بن ناصر حاكم البوعلي الذي خلف محمد بن ناصر

عام ١٩٢٨ للاعتراف بسلطنة مسقط ، وأن يقوم بانزال العلم السعودي من موانئه ويرفع علم مسقط بدلا منه .

ثالثا ـ أن تسجل السفن وتجبى الضرائب لصالح السلطنة نظير امتيازات شخصية لشيوخ الجنبة والبوعلي الموالين لها ، توافق عليها حكومة مسقط .

بعد فترة من طرح تلك اقتراحات قام المعتمد السياسي في أغسطس / آب من العام نفسه بزيارة الى صور بحث خلالها مع شيوخ الجنبة والبوعلي موضوع صور ، محققا بعض النجاح مع شيخ البوعلي ، وحصل على وعد من الأخير بأن لا يعمل على الانفصال عن السلطنة ، وان يقوم بتحصيل الضرائب لصالح السلطات ، وانزال العلم السعودي ورفع علم السلطان مكانه ، ونتيجة لذلك عم السلام والهدوء المدينة ، الا أنه بعد مضي فترة قصيرة عادت الاضطرابات اليها من جديد بسبب تنصل شيخ البوعلي من جميع وعوده السابقة وزاد على ذلك انه خلال زيارته للمقيم السياسي في عدن طالبه بالآتي :

اولا ـ ابلاغ سلطان مسقط بعدم التدخل في شؤون قبائله .

ثانيا ـ أن يتم التراسل بينه وبين الوكيل السياسي مباشرة باعتباره حاكما مستقلا وليس تابعا لمسقط .

ثالثا ـ التصريح له بحق استيراد الاسلحة اللازمة له واصدار جوازات سفر خاصة لرعاياه باسم حكومة جعلان وتوابعها(٨) .

على اثر ذلك عقد اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة الوكيل السياسي ، نيابة عن رئيس الوزراء السيد سعيد بن تيمور الوريث الشرعي لسلطان مسقط بسبب مرضه، الذي عرض على المجلس راي المقيم السياسي بشأن الاحداث في صور ، والتي كانت تدعو الى ضرورة الاتصال بأمير جعلان ، الى جانب اتخاذ الخطوات الضرورية لأحكام سيطرة حكومة مسقط الكاملة على جمارك صور ، بينما كان رأي أعضاء المجلس انه من الصعوبة بأن يتنازل البوعلي عن نطالبهم بعايقا (*) التي هي سبب المشكلة ، وأنه من دون عرض للقوة على الاقل ، فان الحالة ستكون أسوأ من قبل .

غير أن الوكيل السياسي رد عليهم بقوله بأنه لا يستطيع أن يعد بالدعم الفعلي لحكومة مسقط بشأن الاحداث في صور ، اللهم الا في وقت ما في المستقبل حيث تكون

---

* عايقا : أحد الحيين اللذين يتكون منهما ميناء صور ويقع في الجانب الشرقي من الميناء وهو مقر لقبيلة البوعلي (انظر لوريمر . دليل الخليج . القسم الجغرافي ج٧ ، ترجمة مكتب أمر دولة قطر) .

حكومته قد قدرت أي نوع من الدعم سوف تحتاجه الحكومة المسقطية . طارحا في الوقت نفسه سؤالا على أعضاء المجلس عن خططهم في حل القضية ، وقد أجابوه : بأنهم يحبذون عقد مؤتمر في صور مع آل جنبة والبوعلي ، في الاول من اغسطس ١٩٣١ ،وهو الوقت الذي يكون فيه الزورق الحربي راسيا في صور ، بينما يستمر المؤتمر في الانعقاد كعلامة بأن الحكومة الهندية تدعمهم ، عندئذ فهم سوف يبلغون العناصر الموجودة من آل جنبة والبوعلي في عايقا بأنه سوف لا يسمح لأية قوارب شراعية أن تغادر الا بعد الموافقة على دفع المستحقات الجمركية بالكامل في المستقبل ، وأن أي مركب يمتنع عن ذلك فسوف يمنع من قبل الزورق الحربي ، وهم أيضا سوف يبلغون البوعلي بأن مطالبتهم بعايقا سوف لا يسمح بها بعد ذلك ، وأن سارية العلم التي لا تزال باقية مع انها لا تحمل علما يرفرف حاليا ينبغي ازالتها ، واذا لم يتم ازالها ، عندئذ سوف يتم ازالتها بالقوة ، متنبئين بأن تلك الاعمال سوف لا تلقى معارضة من قبل آل جنبة بسبب علاقتهم السيئة مع البوعلي(٩) .

قبيل الاجتماع المنوي عقده في أغسطس / آب قام السيد سعيد رئيس الوزراء برفقة الوكيل السياسي بزيارة صور مرتين في شهر يوليو / تموز ، على ظهر سفينة حربية ، كانت لها نتائج مرضية الى أبعد حد فسويت خلالها الاختلافات بين قبيلة الجنبة ، وتم تعيين شيخ جديد لهم الى جانب بناء مقر جديد للجمارك يشرف على خليج كريك ، بالاضافة الى أنه تم فرض تسجيل المراكب الشراعية كما تم تثبيت سلطة الدولة بشكل فعال . أما مسألة البوعلي في عايقا فقد بقيت كما هي رغم مقابلة السيد سعيد لشيخ البوعلي في الزيارة الثانية التي لم تثمر عن أي شيء بسبب المطالب المفرطة التي طلبها الاخير . غير أن رئيس الوزراء ، عاود السفر الى صور في ٢٥ اكتوبر / تشرين الاول عام ١٩٣١ . بصحبة الوكيل السياسي في محاولة منه لحل مشكلة عايقا . وقبل المغادرة سأل رئيس الوزراء الوكيل السياسي عن مدى امكانية دعمه ، فكان جواب الوكيل بأن ليس بالامكان تقديم أي دعم فعال تحت أية ظروف(١٠)

وباءت محاولة السيد سعيد مع البوعلي بالفشل ، لدرجة أنهم رفضوا مقابلته رغم ارساله واليه سيف بن بدر اليهم ، عندما قام بتوجيه رسالة الى جميع زعماء عايقا ذاكرا فيها :

(لقد وجهت لكم تعليماتي للقيام بزيارتي في حلة أم القريمتين(*) هذا الصباح ولكنكم لم تحضروا ، ومن هذا يبدو أنكم ترفضون اطاعة أوامر الحكومة ، وبالتالي

(*) حلة أم القريمتين أكبر أحياء صور ، تسكنه قبيلة الجنبة .

تجبرونها ، ومن دون رغبة منها ، على التعامل معكم بطريقة غير سارة . وأن صديقنا قنصل صاحب الجلالة ملك بريطانيا موجود معي ، وقد رأى ما تصرفتم به نحوي)(١١).

في أعقاب عودة السيد سعيد الى مسقط قام بتوجيه رسالة الىالوكيل السياسي الكابتن (ر . ج ألبان) موضحا له فيها ، بأنه كان قد طلب المساعدة من حكومة جلالة ملك بريطانيا في قضية رعاياه في عايقا ، وانه حتى الآن لم يتشرف بالحصول على الرد ، وأضاف بأنه واثق باقتناعه الآن ، بعدما شاهد الامور بنفسه ، بأن هؤلاء الرعايا لا يطيعون أبدا أوامر حكومته ، اذا لم تستعمل القوة ضدهم ، واذا لم يعاقبوا ، فان الحالة ستكون أسوأ ومن شأن هذا أن يشجع الرعايا في المناطق الاخرى على التمرد ، والناس في صور جميعا ينتظرون نتيجة ما فعله أهالي عايقا . ولذلك وبناء على تعليمات المقيم السياسي وعلى نصيحته فانه سوف يرسل قاربه المسمى (السعيدي) لأسر المراكب الشراعية التابعة للبوعلي في عايقا ، مطالبا الحكومة البريطانية بأن يوسعوا دائرة مساعدتهم له ، كما كانت في الماضي ، حتى تكون النتيجة مرضية ، مؤكدا بأنه لن ينسى أفضالكم أبد(١٢) .

علىٰ اثر ذلك قام الوكيل السياسي بابداء رأيه في موضوع صور والبوعلي في مذكرة ، رفعها للمقيم السياسي في ٩ ديسمبر / كانون الاول ١٩٣١ ، ذكر فيها بأنه ينبغي أن تكون مستعدين لدعم مطالب الدولة ، بمعنى أن نكون مستعدين لاستعمال القوة مؤكدا بأن مشكلة البوعلي قد أصبحت الآن قضية ذات أهمية قصوى فيما يتعلق بالدولة من كلا الناحيتين السياسية والمالية ، وان استمرار البوعلي في تحدي الدولة ومنعها جمع العائدات الجمركية في عايقا يعني ــ وبصورة منطقية ــ أن يحذو حذوهم آل الجنبة ، وانه في حالة رفض الآخرين ، فان قبائل الباطنة وقبائل آل سعد وغيرهم سيقومون بالعمل نفسه ، وأكثر من ذلك فان هذه الحالة تراقب في المناطق الداخلية وان النتيجة سوف تكون من دون شك لها مضاعفات هناك أيضا . فالمسألة إذاً ليست مجرد الحصول على آلاف الدولارات من صور ، وانما تتعلق بمستقبل البلاد السياسي والمالي ، وانه اذا لم تحل المشكلة بنجاح فان الدولة سوف تعاني انتكاسا ويكون لدينا (رجل مريض) على عاتقنا لعدة أعوام قادمة(١٣) .

ويبدو أن المقيم السياسي قدر الموقف هذا ، لذلك نراه يعطي أوامر للوكيل لابلاغ الشيخ علي بأن حكومة جلالة الملك سوف تدعم مطالب السلطنة فيما يتعلق بعايقا ،والاكثر من ذلك انه قام في١٣ ديسمبر/كانون الاول بزيارة صور بصحبة السيد سعيد والوكيل السياسي ، حيث جرت مقابلة طويلة مع الشيخ علي شيخ البوعلي امتدت عدة ساعات ،عرضت خلالها على الشيخ مطالب الدولة وكانت على النحو الآتي:

أولا ــ يجب دفع المستحقات الجمركية في عايقا .

ثانيا ــ تأسيس واقامة مقر جمركي هناك .

ثالثا ــ أن يتم تسجيل مراكب عايقا الشراعية كما هي الحال بالنسبة للمراكب التي تخص الرعايا الآخرين في الدولة .

غير أن الشيخ،مدعوما من مستشاريه الشيخ خميس بن سعيد والشيخ عبد الله الرواف ، اظهر فظاظة وعنادا رغم كل الجهود والعروض المختلفة التي عرضت عليه بقصد تمكينه من انقاذ ماء وجهه والانسحاب بلباقة ، فقد عرض عليه ، من ضمن ما عرض ، من قبل السيد سعيد استئجار بيت منه في عايقا ليكون مركزا للجمرك ، وأن يقوم الشيخ بنفسه بتزويد المركز بالحرس ، الى جانب استمرار الاعانة المالية البالغة ١٢٠٠ دولار سنويا والتي كان يحصل عليها بصفته الشيخ ، اضافة الى موافقة السيد سعيد على منحه ضعف ما كان يحصل عليه من الجمارك ، نظرا لادعائه أنه اذا ما تخلى عن القيام بنفسه بجمع المستحقات الجمركية ، فانه سوف يتعرض لخسارة تبلغ ٦٠٠ دولار سنويا . مع ذلك رفض الشيخ ، بكل ثقة ، العروض ومطالب الدولة معا ، رغم التأكيد له بقوة بأن تلك المطالب مدعومة من حكومة جلالة الملك ، الامر الذي دفع المقيم السياسي الى رفع توصية لحكومة الهند بضرورة تنفيذ مطالب الدولة بالقوة عن طريق القيام بأعمال بحرية في بداية الامر واستخدام أكثر من مركب شراعي واحد لهذا الغرض . منوها بأن العرب أنفسهم لديهم المثل الذي يقول : (ان ادراك العربي في عينية) فكلما ازدادت عظمة القوة المعروضة التي يراها الشيخ ورجال قبيلته بالفعل كلما كان الاحتمال بأن هذه القوة سوف تستعمل فعلا . ومن ناحية أخرى يمكن الضغط على سكان عايقا بوقف عمليات الدخول أو الخروج ، واذا ما برهنوا على استمرارهم في العناد فان أحسن طريقة للتعامل معهم ، بالاضافة الى العمل البحري ، القيام بتفجير قيادة الشيخ الكائنة في داخل أراضي جعلان بالطائرات . وقد قبلت هذه التوصية من قبل حكومة جلالة الملك ، وعلى اثر ذلك بدأت الاستعدادات لتأمين قوة متمركزة في منطقة صور في شهر فبراير/شباط(١٥) .

بناء على ذلك قام السيد سعيد (*) بتوجيه رسالة تحذيرية لمختلف شيوخ عايقا في ١٣ فبراير / شباط شرح فيها ما آلت اليه الامور بينه وبين الشيخ علي شيخ البوعلي من تأزم ، بسبب رفض الاخير وقف تدخله في شؤون عايقا ، ومنع السكان من

---

* تولى حكم السلطنة في أوائل شهر فبراير / شباط ١٩٣٢ بعد تنازل والده له عن الحكم معللا سبب التنازل بظروف صحية .

دفع المستحقات الجمركية ، اضافة الى منعه اقامة مكتب جمرك للدولة في ميناء صور، ذاكراً لهم بأنه ما زال يمارس الصبر معه ، مع ما قدمه اليه من شروط سخية حتى لا يكون بأي شكل من الأشكال خاسرا في حالة انشاء مركز جمركي في عايقا ، مؤكدا لهم في ختام رسالته ، بأنه قد أعطى الشيخ مهلة شهر رمضان ، وبانقضائها سوف يتخذ اجراءات صارمة لفرض مطالبه بالقوة ، مع ما يؤديه ذلك الى الحاق الضرر بنفسه وبشعبه وانه غير مسؤول ــ أي السيد سعيد ــ عن ذلك الضرر(١٦) .

وبمجرد انتهاء المهلة المحددة ، تم اصدار التحذيرات والتهديدات الى البوعلي ، بأنهم في حالة رفضهم اقامة مركز جمركي في عايقا حتى ظهر ٧ مارس / آذار ١٩٣٢ ، فان القرية سوف تقصف بالمدفعية وستقصف قلعة الشيخ علي في جعلان ، بالقنابل من الجو ، وتم توزيع هذه الانذارات بالقائها من الطائرة .

ولدى انتهاء فترة الانذار دون قبول الشروط المعلنة ، انذر البوعلي باخلاء نسائهم وأطفالهم من المناطق المهددة ، إذ أن عمليات قصف عايقا والاعمال الجوية ضد جعلان سوف تبدأ عند بزوغ فجر ٩ مارس / آذار في الحال . بيد أنه وفي خلال اليوم الثامن ، وكنتيجة لهذا التهديد أعلن الشيخ علي قبول اقامة وتأسيس مكتب جمركي في عايقا . وفي الوقت المحدد ، كان علم دولة مسقط مرفوعا ، وتم احتلال مبنى على الساحل لهذه الغاية . ولكن وعلى الرغم من قبول الشيخ علي في النهاية شروط الدولة، الا أنه أبلغ صراحة ، انه نظرا لعصيانه التمردي ، فقد خسر بل فقد كل حقوق المطالبة بالشروط السخية السابقة التي قدمها له جلالة السلطان ، مؤكدين له في الوقت نفسه بأن تأسيس مركز جمركي في عايقا لم يكن المسألة الوحيدة التي ستؤخذ بعين الاعتبار، ولكن أية شروط قدمت له سوف تعتمد بالكامل على مدى اخلاصه واخلاص قبيلته في المستقبل وعلى حسن سلوكهم .

هذا وقد عادت الحملة الى مسقط يوم مارس / آذار ١٩٣٢ بعدما تم تحقيق الهدف الرئيسي من عملياتها(١٧) .

مما سبق يمكن القول ان سلطان مسقط استطاع من خلال الدعم المقدم له من السلطات البريطانية أن يبعد شبح انفصال جزء مهم من الاراضي التي كانت تحت سيطرته .

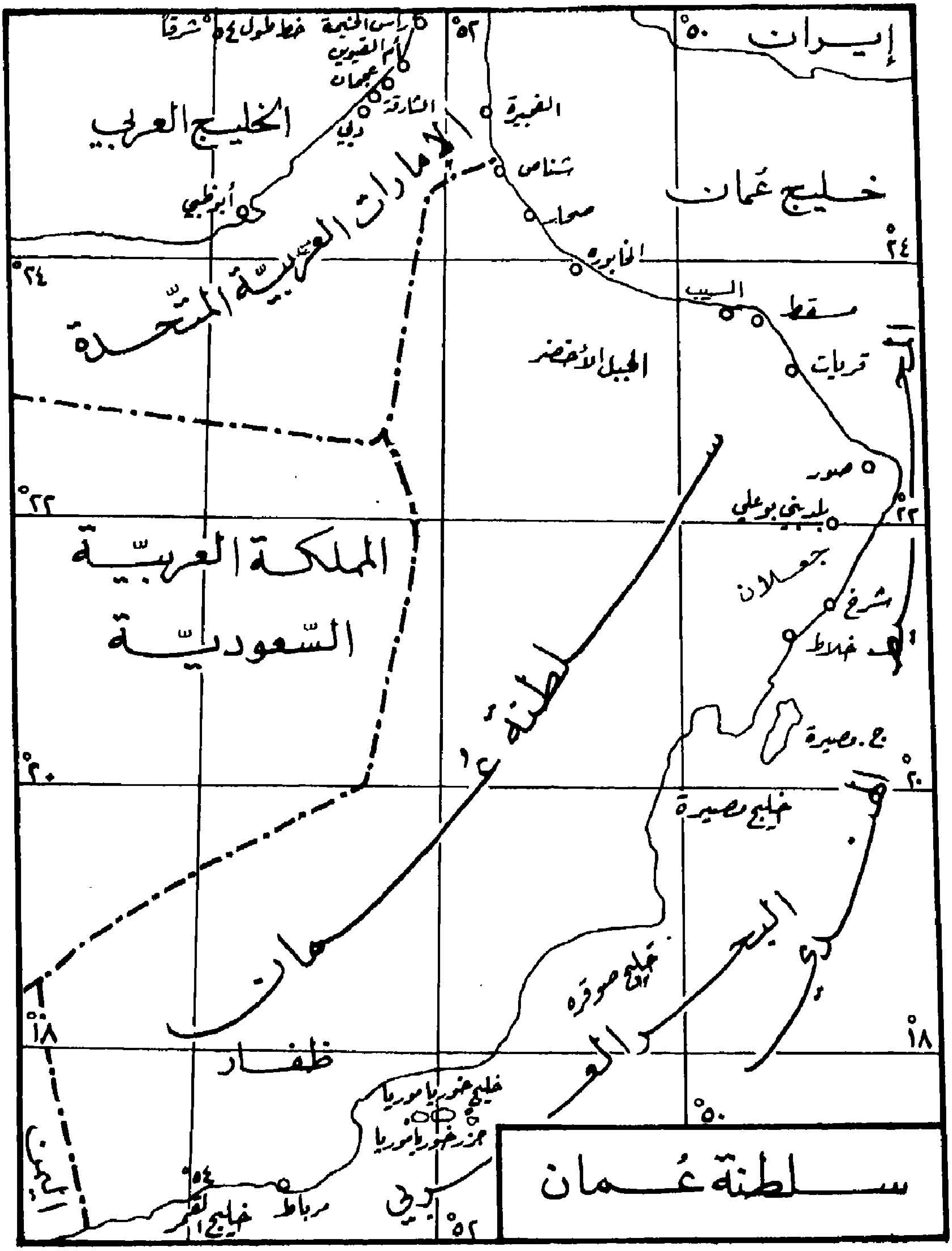

إيران
خليج عمان
الخليج العربي
الإمارات العربية المتحدة
المملكة العربية السعودية
سلطنة عمان
ظفار
مسقط
السيب
الجبل الأخضر
قريات
صور
جعلان
شناص
صحار
الخابورة
الفجيرة
الشارقة
دبي
عجمان
أم القيوين
رأس الخيمة
أبو ظبي
خليج مصيرة
خليج صوقرة
مرباط
خليج القمر
سلطنة عمان

الحواشي

(١) س.ب مايلز ،الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة أمين عبد الله ، مسقط ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٣ ، ص ٣٥٤ .

(٢)

(٣) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ وانظر كذلك

(٤)

(٥) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٣٦٧ .

(٦) لزيد من التفاصيل عن اتفاقية جدة يمكن الرجوع : أمين سعيد . تاريخ الدولة السعودية ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز.

(٧) جمال زكريا . المرجع السابق ص ٣٨٥ . ٣٧٠ . مايلز . المرجع السابق ص ٣٨٥ .

(٨) جمال زكريا . المرجع السابق ، ص‌ص ٣٧٠ - ٣٧١ ، انظر كذلك Administration report of the P. A. , Muscat , 1930 , P. 39 .

(٩)

(١٠) I. O. R. , R15 /6/ 205 , thl , from P.R. , busher to gov, of India foreign & . P. Dep. , New Delhi , 290 ct. 1931 .

(١١) I. O. R. , R15 /6/ 205 , letter from Saiyid Said Bin Taimur , President of conucil ministers to all chiefs of Aiqa , 27 oct. 1931 .

(١٢) I. O. R. , R15 /6/ 205 , letter from Saiyid Said to captain Alban, P.A. in Muscat. 30 Oct., 1931 .

(١٣) Administration Report of the P. A. , Muscat , 1931 , P. 39 . I. O. R. , R15 /6/ 205 , Letter from Saiyid Said to Captain Alban .

(١٤) P. A. in Muscat, 30 Oct. , 1931. Administration Report of the P. A., Muscat, 1931 , P. 39

(١٥) I. O. R. , R15 /6/ 205 , memo. About subject sur and the Banibuali , Dec . , 1931 .

(١٦) I. O. R. , R15 /6/ 205 , circular letter issued byh. H. the Sultan to the address of various shaikhs . 13 Feb , 1932 .

(١٧) Administrion report of the P.A., Muscat , 1932 , PP 34 - 35 .

* * *

العلاقــات الحضــارية
بين بلاد الخليـج العربي وشــبه القارة الهنديــة
حتى الألف الأول ق٠م٠

د٠ محمد حرب فرزات
جامعـة دمشـق

نحاول أن نتناول في هذا البحث بعض العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية ، فنقدم أهم المعطيات التاريخية حتى الالف الاول ق٠م ، ونلمح الى عدد من المشكلات المطروحة حول بعض الأسماء الجغرافية القديمة . وهدفنا من ذلك ابراز عمق التفاعل الثقافي بين الثقافتين القديمتين الهندية والعربية عبر طـرق المواصلات المارة في الخليج العربي .

أولا ــ تمهيد عام :

قامت بلاد الخليج العربي منذ عصور مبكرة بدور الوسيط في العلاقات التجارية بين بلاد الشرق العربي (أرض الرافدين والجزيرة والشام) من جهة وبين الساحل الغربي لشبه القارة الهندية . ففي الوقت الذي ازدهرت فيــه مراكز العمران المدني في بلاد الشرق العربي القديم بين بـلاد البحر الأعلى (المتوسـط) وبـلاد البحر الأدنى (الخليج) منذ الالف الرابع ق٠م ، كانت قد بدأت تظهر تباشـير حضارة أخرى في حوض السند (الهندوس) ، في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية . وقد عرفت هذه الحضارة في الالف الثالث باسـم حضارة هراپـا(١) ، التي كانت معاصرة لسومر وأكاد وديلمون .

وقد صدرت مؤخرا كتب عديدة حول نتائج الكشوف الأثرية في المنطقة منها كتاب صدر حديثا ، يبرز فيه اثنان من الباحثين (أ٠ عناني و ك٠ ويتنفهام) خلاصة النتائج التي توصلت اليها البحوث الاثرية والتاريخية وهي تؤكد وجود دلائل واضحة على قيام عمران مدني وحضارة مزدهرة في سلسلة من المواقع على طول الساحل الغربي مــن

* القي هذا البحث في الندوة التاريخية الثالثة في راس الخيمة (دولة الامارات العربية المتحدة) ،حول العلاقات التاريخية القديمة بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية (آذار ١٩٩٠)

الخليج في **فيلكة** (الكويت) وفي الاحساء . موقع **جرها** ، الجرعاء (العقير) في (العربية السعودية) وفي **ديلمون** (البحرين وقطر) وفي **أم النار والعين وجلفار** (رأس الخيمة) في دولة الامارات العربية المتحدة ، وفي عمان / ماجان / مغان(٢) . ولا شك أن هذه الخلاصة المكثفة هي محصلة نتائج بحوث كثيرة لعلماء عرب وأجانب ، نشرت بحوثهم عن هذه المواقع الاثرية والتاريخية القديمة التي أضحى من الواضح أنها شهدت منذ الالف الثالث ق.م ملامح حضارية مادية وثقافية مشتركة متصلة بالثقافة المبكرة في بلاد الرافدين في عصري العبيد وجمدة نصر .

ومنذ قيام الدول الرافدية المتعاقبة من العصر السومري القديم الى الالف الاول ق.م . ظلت المراكز الحضارية في الخليج العربي تؤدي **دور الوسيط التجاري والعامل الحضاري الفعال بين عالمي المحيط الهندي والبحر المتوسط عن طريق دول الرافدين والشام ومصر .**

وقد أثبتت الوثائق السومرية والأكادية وجود علاقات مع ديلمون وماجان/ماغان ومع بلاد بعيدة ذكرت باسم **ملوخا** اختلفت وجهات النظر حول **هويتهما** ، ففي حين يرجح ويلر Wheeler انها تقع في الجزء الادنى من **حوض السند** يرى ڤايدنر Weidner انها ربما كانت **ظفار وبعض** سواحل جنوب شبه الجزيرة العربية التي كانت مشهورة باللبان والبخور والاخشاب الثمينة . والرأي السائد لدى معظم الباحثين هو أن **ديلمون** هي جزر البحرين أما كريمر فيرى مثل جاكوبسن أنها المنطقة الساحلية **من حوض السند / الهندوس(٣) .**

وقد كانت البلاد التي حملت هذه الاسماء مطمعاً لحكام الدول القوية في مصر وبلاد الرافدين في العصور القديمة ، فوجهت اليها الحملات العسكرية والبعثات التجارية . وأضحت هذه العلاقات الحضارية تقليدية ومتواصلة من الالف الثالث ق.م الى العصور الكلاسيكية ، حتى أشار اليها هيرودوت وغيره مثل استرابون الذي ذكر رأس ماكاي Cap Makai الذي يظن بأنه تحريف متأخر لاسم ماجان / ماغان ، ويشير الاسم الكلاسيكي الى رأس مسندم على الساحل الشرقي للجزيرة العربية .

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر فان الدلائل تشير الى أن ديلمون وماغان تقعان على السواحل العربية من الخليج، ولكن **اسم ملوخا ربما ارتبط في بعض العصور المتاخرة بأقصى سواحل شرقي شبه جزيرة العرب** أو بمكان أبعد يمتد الى **سواحل الهند عند حوض السند / (الهندوس)** وهو مركز الحضارة القديمة في شبه القارة الهندية(٤) .

فقد دلت نتائج التنقيبات الاثرية والبحوث التاريخية على أهمية الأسس التقنية والمادية لحضارة وادي السند / الهندوس أو ما يعرف بحضارة هراپا وهو ما يتبين

لنا من نتائج البحوث الاثرية في موقـع لوتال Lothal (٥) في اقليـم كوجرات على الساحل الغربي لشبه القارة الهندية في عمق خليج كامبي . فقد كان هذا الموقع ميناء بحريا هاما في أواخر الالف الثالث ، وهو الاهم بين ما يقرب من خمسة وثمانين موقعا عثر عليها حتى الآن من بقايا مراكز الحضارة في وادي الهندوس .

وفي هذا الموقع الاثري الهام ، لوتال ، وجدت بقايا آثـار حوض لبناء السفن ، وبعض أجهزة الملاحة كالمراسي الحجرية الضخمة للسفن التي هي على الارجح ، سفن ملوخا التي تحدثت عنها الوثائق المسمارية من المحفوظات السومرية ـ الأكادية .

وفي هذه المواقع الاثرية وغيرها عثر على بقايا لمواد مشابهة لما كان يدخل في حركة التبادل التجاري بين ملوخا وبلاد الخليج العربي القديمة بما يجعلها مرشحة أكثر من غيرها لتكون البلاد التي حملت اسم ملوخا . لكن فعالية ميناء لوتال توقفت كما تبيّن الدراسات نحو عام ١٨٦٠ (في أواسط القرن التاسع عشر ق.م في مرحلة متزامنة مع نهاية موقع موهنجودارو في شمال البنجاب وهو أهم مراكز حضارة هرابا . وبعد ذلك بقرن واحد ، أي بعد حمورابي وشمسي ايلونا ملكي بابل ، تقلصت حركـة التعامل التجاري المباشر مع هذه المناطق البعيدة مثل ملوخا واتسع دور المراكز الوسطية الاكثر قربا على سواحل الخليج العربي مثل ديلمون وماجان .

ومهما يكن تظل المسألة معلقة الـى أن يبت ببعض المشكلات في ضـوء كشوف جديدة ودراسات مدققة ، فهناك فرق بين هوية هاتين المنطقتين الجغرافيتين : ماغان وملوخا في الالفين الثاني والاول ق.م. ففي الالف الثاني ق.م كان الاسمان الجغرافيان يعنيان أبعد المناطق المعروفة في العالم أي شرقي بلاد العرب والهند ، ولكن في الالف الاول ق.م صار اصطلاح ملوخا يدل في النصوص الادبية على بلاد الحبشة (إثيوبية) وما بعدها . وهناك من يرى أنه يعني بعض البلاد الافريقية التي كانت على اتصال ببلاد الرافدين عن طريق المحيط الهندي(٦) .

وتظل الآراء نظرا لفقدان الوثائق الجازمة متضاربة وتتباين وجهات النظر بخاصة حول ملوخا . فيضـع الاستاذ أ. جلب Gelb ماجان / ماغان عند السـاحل الجنوبي من الخليج ، وملوخا عند السـاحل الشمالي للخليج مع امتداد متدرج يصل الى مصب نهر السند (الهندوس)(٧) . وقد يتضح لنا بعض ملامح المشكلة بعد الحديث عـن العلاقات الحضـارية .

ثانيا ـ العلاقات الحضارية :

عدا عن العلاقات التي كانت تتم عن طريق البحر كانت المبادلات التجارية المبكرة بين بلاد الشرق العربي وبلاد شبه القارة الهندية تتم كذلك عبر الطريق البريـة التي

كانت تخترق بلاد الساحل الشمالي للخليج : **عيلام وكرمان و بلوجستان** . وهي محطات على طرق المواصلات التاريخية البرية بين الشرق العربي القديم والعالم الهندي .

وكانت عيلام أقرب هذه الأقاليم الى بلاد الرافدين وأشدها تأثرا بها في مظاهر الحضارة المادية وفي نظام الكتابة المسمارية الذي طبق على اللغة العيلامية المعروفة منذ الألف الثالث . وقد أشار الى ذلك عدد من الباحثين وبخاصة أ. جلب Gelb الذي أبرز ضمن منظور عام لنشأة الكتابة وتطورها دور عيلام وهي من مناطق الخليج القديمة التي تأثرت بنظام الكتابة المسمارية السومري ثم انتقل هذا التأثير عن طريقها الى الساحل الهندي في أواخر الالف الثالث كما انتقل عن طريق الاتصالات الاخرى(٨). ولكن باحثين آخرين حاولوا من جهة أخرى إلحاق اللغة **العيلامية باللغات الدرافيدية في جنوب الهند** وبلغة البراهوي ـ وهي لغة ترتبط بهذه المجموعة اللغوية المذكورة ومنها اللغة السائدة حاليا في بلوجستان(٩) . وهذا ما يؤكد وجود تفاعل حضاري الى جانب التعامل التجاري .

ومما ينبغي ملاحظته أنه منذ بداية الألف الثالث ، يبدو أنه قامت علاقات وثيقة بين سومر وعيلام من جهة وبين موقع **تبه يحيى** في كرمان **وبامبور** V **في بلوجستان،** وكلاهما معاً معاصران لأكاد (أواخر الالف الثالث) ، من جهة أخرى . وهما موقعان يحتمل أنهما كانا على طريق للمواصلات بين الشرق العربي ووادي الهندوس . وتدل المؤشرات على أن بامبور IV **وكولي** كانا معاصرين لموقع **أم النار** ، **قرب أبو ظبي** . وينبغي تعقب هذه المؤشرات في نتائج التنقيب الأثري في هذه المواقع للتعرف على الدور المتميز لموقع **أم النار** في شبكة هذا النشاط التجاري . وتوضح لنا المؤشرات الأثرية المعروفة من دراسة الفخار على اتصال الفعالية الحضارية في هذا الموقع من نحو ٢٩٠٠ ـ ٢٠٠ ق.م وعلى مدى ما يقرب من ثلاثة آلاف عام . ويرجح ان يكون هذا الموقع محطة على طريق ماغان كما يمكن أن يتبين من الآثار النحاسية والفخارية(١٠) .

واذا ما تتبعنا الآن تطور العلاقات التجارية بين الدول القديمة الواقعة على على الخليج العربي وبين الساحل الهندي الغربي لوجدنا المؤشرات والمعطيات التالية :

ففي العصر الأكادي ، ومنذ أيام شروكين (النصف الثاني من الألف الثالث)كانت **سفن ومراكب ديلمون وماغان وملوخا** تأتي لترسو في أكاد محملة بالبضائع وقد ذكرت هذه البلاد بهذا التسلسل مما يدل على وقوعها على طريق واحد وعلى مسافات متباعدة ومتتابعة(١١) . والى هذا العصر وكذلك الى عصر لاحق تعود **الاختام الهندية** المنشأ المكتشفة في فيلكة الواقعة في شمال الخليج وبعض الاوزان الواردة من حوض

السند (الهندوس) في البحرين (٢٢٠٠ ـ ١٧٠٠) كما يؤكد جاد Gadd في دراسته عن هذه الاختام :

C. J. Gadd , Seals of Ancient Indian Style found at Or , PBA XVIII, pp. 191 - 210 .

العلاقات في عصر أور الثالثة :

كانت مدينة أور عاصمة لدولة كبرى في سومر وبلاد الرافدين ومنطقة الخليج طوال حكم أسرة أور الثالثة التي امتد حكمها منذ سقوط مملكة أكاد الى أواخر الالف الثالث وكان لهذه المدينة دور كبير بعد ذلك في أيام أسرتي إيسن ولارسا بعدئذ . ان وثائق الاسرة الثالثة في أور والتي نشرت في مجموعات النصوص : UR Excavation Texts = U ET وبخاصة في الجزء الثالث من المجموعة تذكر **المواد المستوردة الداخلة في الحركة التجارية عبر بلاد الخليج العربي وهي مواد هامة مثل النحاس والحجارة الكريمة والعاج والخشب الثمين والعطور والاقمشة وغيرها من المواد .**

وتوضح النصوص الكثيرة التي درسها الباحثون مثل ل. أوبنهايم في بحثه الهام حول التجارة البحرية في أور كثيرا من المسائل حول مواد التجارة والتجار الذين يقومون بها(١٢) .

فقد تعرّف الباحثون على مصدر أكثر هذه المواد التي كانت ديلمون التي كانت تدعى في **أور باسم مشرق الشمس** هي مركز العبور الاساسي لتجارتها في منطقة الخليج . وكان يجلب النحاس من ماغان، أما ملوخا فكانت مصدرا لانواع من الأخشاب والحجارة الكريمة .

ويعود أكثر الوثائق عن هذه الفعالية التجارية بين أور وهذه المناطق الى أيام آخر ملوك أسرة أور الثالثة إبي سين ٢٠٢٧ ـ ٢٠٠٣ . ففي هذا العصر كانت أور التي كانت تعيش في مرحلة من مراحل ازدهارها ، تستورد النحاس من ماغان مباشرة وكذلك الحجارة الكريمة والثمينة والعاج والخشب النفيس وأشكال الطيور الملونة وكان يستورد بعض هذه المواد من أماكن بعيدة ثم يعاد تصديره الى دول الرافدين وغيرها . وكان يصدر الى ما غان الصوف والجلود .

ولكن يظهر أن التجارة بين **أور** ومراكز الخليج الوسيطة اقتصرت في تلك الفترة من أواخر الالف الثالث على التعامل مع ديلمون وماغان نظرا للاوضاع الداخلية في دول أرض الرافدين ، فنظر لتعدد مراكز الفعاليات الاقتصادية ـ السياسية في البلاد يبدو أن التعامل مع البلاد الواقعة وراء ماغان ، أي ملوخا أضحى من مجالات اهتمام مدينة رافدية أخرى هي **لاجاش** . فقد ذكرت ملوخا في نصوص جوديا (نحو ٢١٠٠) .

ويستنتج من أنواع البضائع أن مصدرها من ملوخا ، ومن هذه البضائع : الذهب والنحاس والمرجان والاجات واللازورد ، وهو Lapis - Lazuli (١٣) والمهم أنه على الرغم من تعثر ظروف تجارة أور في آخر حكم أسرة أور الثالثة فان بضائع هذه البلاد البعيدة ملوخا استمرت في الوصول الى أسواق الخليج والى أسواق المدن الرافدية .

العلاقـات في عصر لارسـا ـ دور البيوتات التجارية :

وفي نصوص لارسا التي يمكن ان توثق العلاقات بين بلاد الخليج ومناطق الساحل الهندي في المرحلة اللاحقة لانهيار أور الثالثة وبخاصة فترة القرن الاول من الالف الثاني ق.م . يرد ذكر أنواع من البضائع المستوردة من ملوخا وهي الخشب الاسود الذي ينمو في الهند وفي افريقية ، ويمكن أن يكون مصدره أحد هذين البلدين وما يدعى بشجر نخيل ملوخا = Gis Gisimmar Meluhha مما يشهد على مصدر النخيل أو على بعض أصنافه . وهناك مقاعد ومناضد من ملوخا ، وحجر أحمر ربما كان من بعض أنواع المرجان وهو معروف بأن مصدره من بلاد تقع في أقصى سواحل الخليج في بلاد العرب وفي بلاد أخرى على سواحل الهند أو اثيوبية(١٤) . ومن الواضح أن التعامل التجاري المتكرر مع هذه المواد أضحى تلقيديا ومألوفا ، ولكن للاشارة الى **اللازورد** دلالة خاصة فهذا الحجر الكريم لا يستخرج في بلاد الشرق الا في المناطق المعروفة باسم أفغانستان وكان يستورد الى سواحل الهند ليصدر منها الى بلاد الخليج ومنها الى بلاد أخرى .

وفي عصر ملوك أسرة لارسا طرات على طرق التعامل التجاري بين البلاد والدول عوامل جديدة . فانه يبدو انه نظرا لضعف سلطة اية حكومة مركزية في بلاد الرافدين في آخر أيام أور الثالثة ، ولوقوع تغيرات اجتماعية ملموسة ، انتقلت ادارة التجارة الكبرى الى أيدي رجال بيوتات كبيرة . فكان تاجر يدعى **لو إنليلا** يباشر علاقات تجارية مع ماغان باسم المعبد ، كما حدث أيام حكام لارسا : جوجونوم ١٩٣٢ ـ ١٩٠٦ ، وإبي ساري ١٩٠٥ ـ ١٨٩٥ ، وسومو إيلوم ١٨٩٤ ـ ١٨٦٦ ، ثم في أيام ريم سين ١٨٢٢ ـ ١٧٦٣ .

ومع تقلص دور الدولة عاد الدور الاقتصادي الى المعابد ، فنجد معبد نين ـ جال يتقبل الأعشار أو نسبة ضريبية ما من تجار ديلمون الذين غدت جزيرتهم مركزا عظيما من مراكز التبادل التجاري والحضاري في المنطقة كلها .

وفي أواخر أيام أسرة لارسا كان تاجر من كبار تجار النحاس في أيام ريم ـ سين ويدعى **إيـا ناصر** / نصير يتعامل مع ديلمون في تجارة **النحاس** واستيراده وإعادة تصديره . فكان هذا التاجر يتعامل بأسلوب مختلف عن أسلوب لو إنليلا ، عندما كان يتاجر لحساب القصر والممولين(١٥) . واذا عدنا الآن الى مشكلة ملوخا في ضوء وثائق ونصوص لارسا ، ربما كان بامكاننا ازالة بعض الغموض عن بعض جوانبها .

ثالثا ـ مشكلة ملوخا : هل كانت منطقة في شبه القارة الهندية ؟

كنا قد المعنا الى هذه المشكلة عند الحديث عن العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج وشبه القارة الهندية . وهناك نظرات متعددة ومعروفة حول هوية هذه البلاد التي دعيت في النصوص ملوخا . ان البحث في وثائق لارسا والرجوع الى الدراسات التي نشرت حولها يقدم براهين عديدة على أن ملوخا هي غرب الهند . فاذا كان ذلك صحيحا فالمنطقة المعينة هي على الارجح المنطقة الساحلية من جوض الهندوس كما يؤكد لوبروتون(١٦) الذي تحدث عن العلاقات التجارية بين لارسا وغرب الهند ، ومعنى هذا أن العلاقات التجارية في عصر ملوك لارسا لم تتوقف عند ديلمون كما يؤكد ليمانس(١٧) ولكن يحتمل أن تكون ديلمون قد قامت بدور الوسيط . والمهم أن بضائع ماغان وملوخا استمرت في الوصول الى بلاد الخليج وسومر في القرنين الاولين من الالف الثاني ق.م .

ولئن اختلفت وجهات النظر حول هوية ملوخا ، فالارجح أن هذه البلاد هي الهند وليست إثيوبية أو شرقي افريقية ، فان ما ذكر عن احتمال مطابقة ملوخا مع النوبة الحبشة فهذا يعني أن ذلك قد يكون ممكنا **في وقت متأخر** أي بعد وصول آشور الى مصر لا في العصور التي نتحدث عنها . ومما يعزز الرأي القائل **بأن ملوخا هي من مناطق** الساحل الهندي الغربي الملاحظات التالية :

١ ــ كانت منطقة دلتا نهر الهندوس أقرب الى منطقة الخليج من شرقي افريقية ،وهي أقرب الى خليج عمان ، ماغان ، من المسافة الفاصلة بين سومر وماغان .

٢ ــ عثر على حجارة كريمة في أور من عصر جمدة نصر ، في العصر السومري الباكر ، أقرب مصدر محتمل لها هي بلاد الهند .

٣ ــ اثبتت الوثائق وجود علاقات تجارية بين الخليج ومنطقة حوض الهندوس في أواخر العصر السومري وفي العصر الأكادي (انظر : Inscriptions Royales)

وكانت سفن ملوخا تصل الى بلاد اكاد وكانت هذه السفن مماثلة لتلك السفن التي كان يستخدمها الرافديون للوصول الى سواحل الهند(١٨) .

٤ ــ وجدت أختام من النموذج الهندي في البحرين وبعض مدن سومر وأكاد .

٥ ــ وجد الحجر الاحمر (المرجان) في سواحل الهند وكان من مواد التجارة مع ملوخا ، ويؤكد ليمانس على أهمية هذه المادة بين أور وموهنجود أور في وادي السند / الهندوس . وقد تبين أن هذه الحجارة الكريمة صقلت بوسائل كيماوية تدل كل الدلائل على أنها تمت في الهند لا في غيرها (١٩) .

٦ – بالاضافة الى ما سبق لفت جاد C. J. Gadd النظر الى كلمة Meleccha وهي كلمة هندو أوربية . وفي السنسكريتية تستخدم هذه الكلمة للاشارة الى شعوب غريبة الاصل واللغة ، بخاصة تلك الشعوب التي لم تحترم تعاليم القيدا وطقوسها فكلمة Meleccha تقابل كلمة بربري بالمعنى الكلاسيكي . وبناء على هذه الملاحظات يطرح ليمانس سؤالا مفاده : هل تدل ملوخا على منطقة لم يدخل اليها تأثير الآريين(٢٠) ؟ وهل يمكن لنا أن نجد في كلمة ملاّحو (Malahu) السومرية تعبيرا عن الملاّح رجل البحر القادم من بلاد ملوخا ؟ وعلى أية حال ، فان الموضوع تناوله وأشار اليه عدد من الباحثين في بحوثهم ومنهم لاندسبرجر ومايسنر وقايدنر وكريمر وبيبي وغيرهم(٢١) .

رابعا – دور بلاد الخليج في التجارة الخارجية لدول الرافدين الجنوبية في العصر البابلي القديم :

لم تتجاوز حدود التجارة الخارجية لدول الرافدين نحو الجنوب في العصر البابلي القديم جزيرة البحرين تيلمون Tilmun التي كانت مركز تجارة ترانزيت هامة عبو خطوط بحرية(٢٢) . فقد غدت تيلمون محطة للتجارة بين ملوخا وماغان ، ومنطقة جنوبي بلاد الرافدين . وكان هناك خط تجاري آخر بين تيلمون وماري ، لكن هذه الاتصالات لم تكن لتتم بسهولة . ففي رسالة أرسلها يشمخ أدّو حاكم ماري (انظر : ARM V14) يشكو فيها الى حمورابي المصاعب التي واجهها ارسال بعثة الى تيلمون. ومعنى هذا أن مدى اتصال تجارة محطات الخليج العربي كان يرقى شمالا الى ماري المركز التجاري الكبير على الفرات الاوسط .

ففي وثيقة من نصوص ماري ما يشير الى وصول رسل من تيلمون الى ماري ، وتسلم بعضهم في شباط إنليل هدايا بأمر من الملك شمشي أدّو اشتملت على هدايا ومواد مختلفة مثل زيت السمسم والصناديق الخشبية والصنادل (ARM/1 17) وكانت ماري تتعامل مع المدن الأخرى لحماية القوافل كما ذكر في رسالة تضمنت أن يشمخ دجن أرسل قافلة الى تيلمون ولكن ايلّي إيبوخ اعترض سبيلها ، ولذا يتوسط يشمخ دجن لدى حمورابي للمساعدة على وصول البعثة الى مقرها(٢٣) .

وتشير نصوص أخرى الى استمرار العلاقات بعد حمورابي والاسرة البابلية بين ماري ومنطقة الجنوب الرافدي التي تتمع بدور متفوق في التجارة الدولية لكونها مركز تجارة **القصدير المستورد** من الشرق عن طريق بلوجستان ومكران وعيلام ، ليعاد توزيعه بعد ذلك من ماري الى مناطق أخرى . ولا يستبعد لاندسبرجر أن يكون الحزام **القصديري** في بورما وسيام وملايو مصدرا للقصدير المستورد من الشرق الى بلاد الرافدين . وكانت هذه المواد الاولية تصل الى ماري عن طريق بلاد الخليج(٢٤) وقد وجدت آثار للتراب الحديديالاحمر في قصر ماري مستخدما في الطلاء ، وهناك احتمال بأن يكون قد استورد من ماغان كما يذكر پارو وليمانس(٢٥) .

وقد اشار نص وحيد من نصوص ماري (ARM II, 47)الى استخدام اخشاب من ماغان ، في صناعات خشبية ، ويحتمل أن خشب ماغان كان نادر الوجود في ماري(٢٦) .

خاتمة :

ان التغير في العلاقات بين بلاد الرافدين وبلاد الخليج من جهة ، وشبه القارة الهندية من جهة أخرى نجم بعد ذلك عن التغيرات في وادي الهندوس وفي مناطق ماغان وملوخا . ويبدو أن العلاقات التجارية انقطعت بعد ضعف الحكم في بابل بعد حمورابي وشمشي ايلونا وتخلي ملوك بابل عن الجنوب حوالي ١٧٤٠ . ويقدر انه في هذه الفترة كانت نهاية حضارة وادي الهندوس . وتدل المؤشرات التاريخية على احتمال انقطاع العلاقات التجارية بين بابل وملوخا في العصر الكاشي . اذ ان نصوص العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م) تبين أن موادا مثل العاج والخشب مما كان يستورد في السابق من الهند صار يستورد من مصر أو عن طريقها ليحمل من هناك الى بابل / كاردونياش وآشور وميتاني . وربما لهذا السبب صار يطلق اسم ملوخا على البلاد المصدّرة لهذه المواد حسبما كان مألوفا في السابق ، أي بالنسبة الى مصر ، على النوبة والحبشة . فملوخا بهذا المعنى هو اسم عام أطلق خلال التاريخ على محيط جغرافي واسع ، حسب الظروف التاريخية ، على أماكن جغرافية تقع في جنوب ماغان وورائها وتمتد ما بين الهند والحبشة . ومن المحتمل كذلك انه عندما عاد الكتاب الرافديون في العصر الآشوري الحديث (١٠٠٠ — ٦٠٠ق.م) ، الى التحدث عن ماغان وملوخا ، أطلقوا على كل البلاد الساحلية بعد الخروج من الخليج العربي ، اسم بلاد ماغان وملوخا اي السواحل المتجهة شرقا الى الهند وكذلك على السواحل الجنوبية من شبه الجزيرة العربية باتجاه النوبة ومصر .

هكذا يتضح لنا من هذا الاستعراض السريع لتطور العلاقات التجارية بين بلاد الخليج العربي وسواحل شبه القارة الهندية مدى عمق العلاقات التاريخية واتساع التبادل الثقافي والتفاعل الحضاري بين العالمين الهندي والعربي خلال العصور القديمة .

* * *

الحواشـــي

(١) M.Wheeler , **The Indus Civilization** 1953/1972 ; G. Rachet , «Civilisation de l' indus» , dans **Dict. de l' Archéologie** . Paris 1983 , P. 455-457; Harappa , P. 404 - 405 .

(٢) Ahmad Anani & Ken Wihttingham , **The Early History of Gulf Arabs** , Longman , 1985 , P. 10 .

(٣) S. N. Kramer , « Dilmun .Quest for Paradise , » **Antiquity 37** , 1963 . P. 111ff. Cornwall «On the Location of Dilmun » , **BASOR** , 103 (1946) P. 3 - 11

(٤) Kurt Jaritz , « Tilmun , Magan, Meluhha », in **JNES** , 27 , 1968.

(٥) انظـر :
Lothal , « Port de l' Empire de l' Indus » **Archaeologia , 29** (1969) P. 64 - 73 ; G. Rachet, **Dictionnaire de l' Archeologie** P. 555 - 556 .

(٦) L. Oppenheim , **Mésopotamia ,** Gallimard trduct. franc. 1970.

(٧) I. Gelb « Makkan and Meluhha in Early Mesopotamian sources » in **Revue d' Assyriologie et d' Archéologie Orientale = RAAO** . 64 (1970) P. 1-8 .

(٨) I. Gelb, **A study of Writing** , p. 89 - 90.

(٩) D. Mc Alpim « Toword Proto - Elamo -Dravidian» **Language,L** (1974) . p. 89-101 .

(١٠) T. G. Bibby, **Looking for Dilmun,** New York 1970 (trad). Dilmun , Paris 1972 /P. 261 - 278 ; K. Frifelt , « Auf den Spuren von Magan», **Altertum,** 25 (1979) . p. 319.

(١١) Leemans, **Foreign trade** p. 116, 159 ; L. Legrain. **UM XV**, p.13; **ANET**, p. 268.

(١٢) A. L. Oppenheim, « The Seafaring Merchants of UR » . in **JAOS** n.1/1954. P. 6 - 17 .

(١٣) **ANET**, p. 268 - 269.

(١٤) Leemans, **Foreign trade**,p. 160.

(١٥) L. Oppenheim, **JAOS,** 74,p.15.

(١٦) Le Breton, **RA** 52, 1958, P. 116, E. Macquay, **Early Indus Civilization,** 2 nd. ed. (1948) .

(١٧) Leemans, **Foreign trade**, p.164-165.

(١٨) M.Wheeler, **The Indus Civilization**, p.60; Leemans, p. 162. (Mortimor Wheeler,)
D. E. Mc Cown, « The Indus Civilization, » in **JAOS** 3,1954.

(١٩) L. Woolley Excavation at **UR** 112 and UR Excavation IV p. 50; Leemans, **Foreign trade** p. 163.

(٢٠) Leemans, p. 164.

(٢١) J. N. Kramer, **from the Tablets of Sumer**, p. 90; B. Landsberger, **ZA** XXXV (1924) p. 217; B. Meissner, « Babyl ». und **Assyr.** I. p. 345; E. F. Weidner **Afo** XVI (1952) p. 6ff.

(٢٢) Leemans, **Foreign trade,** p. 137.

(٢٣) Leemans **Foreign trade,** p.107.

(٢٤) Landsberger, B. Tin and Lead, « The adventures of two vocables » in **JNES** 24, 1965, pp. 285 - 296 .

(٢٥) A. Parrot, « Les Peintures du Palais de Mari, » **Syria**, 18, 1937, pp. 325 - 354 ; Leemans, **Foreign trade,** p. 124 - 125 .

(٢٦) Leemans , p. 126.

* * *

تـل ليـــلان

(شـــخنا ـ آبـوم ـ شوبات انليل)

حميـدو حمـــادة

مديريـة آثـار حلب

يقع تل ليلان على بعد ٢٥ كم جنوبي بلـدة القامشلي في المنطقـة المسماة مثلث الخابور عند مصب وادي القطراني في وادي الجراح . وهو يعد من أكبر التلال الموجودة في الجزيرة السورية اذ تبلغ مساحته ٩٠ هكتارا(١) . وقد بدات بعثة اثرية من جامعة ييل عام ١٩٨٧ خطة طويلة الامد لدراسة تاريخ هذا الموقع وشروط المعيشة وتطورات الحضارة فيه ، وبينت الاسبار التي قامت بها البعثة في المواسم الاولى أن هذا التـل يتضمن طبقات حضارية مختلفة تبدأ من الالف الخامس وتنتهي في بدايات الالف الثاني ق.م ، وتحديدا في نهاية القرن الثامن عشر ق.م(٢) .

المرحلة الاولى : وتعود الى القرن الثامن عشر ق.م وتمثل :

ـ عهد شمشي ادد / هدد وابنه ايشمى داجان (الفترة الآشورية القديمة) .

ـ عهد الملوك التابعين لزمري ليم (توروم ناتكي ـ زوزو ـ حيا آبوم) .

ـ عهد سلطة ملوك أندريق على ليلان (أتامروم ـ حمد ينا) .

ـ عهد داري ايبوخ وأولاده (تيل أبنو وياكون آشار) .

ومن أهم الشواهد التي عثر عليها والتي تمثل المرحلة الاولى :

١ ـ المعبد الكبير الذي كشف عنه عام ١٩٨٢ في الطبقة الثانية ، مؤلفا من قاعـة مركزية تحيط بها الغرف من الجانبين الشرقي والغربي ، ويدخل اليهـا عبر بوابـة رئيسية أمامية وبوابتين جانبيتين(٣) . ويلفت النظر في هـذا المبنى أعمدته الملتويـة والمزخرفة التي تشبه جذوع أشجار النخيل والتي تقع في الطرف الشمالي الغربـي منه . وهذا المعبد مشابه للمعبد الذي بناه شمشي ادد / هدد في تل الرماح ، لذا فمن المرجح أن يكون شمشي ادد/هدد او ابنه ايشمي داجان بعض بناة هذا المعبد .

٢ ـ العثور على قصر في المدينة المنخفضة ربما يكون قصر (ياكون أشار) آخر ملوك ليلان ، وقد عثر بداخل القصر على مجموعة هامة من الرقم المسمارية تحدثنا عن الفترة الاخيرة من فترات مملكة آبوم .

المرحلة الثانية : وتمثل النصف الثاني مـن الالف الثالث ق.م ، أي انهـا تمثل المرحلة التي ازدهرت فيها أبلا ، وقد عثر في طبقات هذه الفترة على فخاريات محليـة اطلق عليها المنقب اسم فخار ليلان .

المرحلة الثالثة : وهي تمثل النصف الاول مـن الالف الثالث ق.م ، وفي هـذه المرحلة شاع الفخار المحزز الذي يعرف باسم فخار نينوى (٥) ، وقد كشفت التنقيبات عن قطاع هام في المدينة المنخفضة ، مؤلف من شارع وبيوت تعود الى هذه المرحلة . ويبدو أن سور المدينة يعود الى هذه الفترة التي تعد أغنـى فترات ليـلان ، وكانت مساحة ليلان حينذاك لا تتجاوز الخمسة عشر هكتارا .

المرحلة الرابعة : وتمثل نهايات الالف الرابع ق.م ، أو ما يعرف باسم حضارة اورك . وقد تم التأكد منها من خلال الاسبار التي أجريت قرب السور في القســم الشمالي الغربي من التل ، والتي كشفت عن الاواني الناقوسية التي تمثل فترة اورك .

المرحلة الخامسة : وهي تمثل بدايات الالف الرابع ق.م ، أو ما يعرف باسـم حضارة العبيد . وتمتاز هذه المرحلة بالعثور على فخاريات ملونة مصنوعة باليد وغير مشوية . والجدير بالذكر أن طبقات هذه المرحلة عثر عليها فوق الارض البكر مباشرة .

المرحلة السادسة : وتمثل الالف الخامس ق.م ، أو ما يعرف باسم حضـــارة حلف ، ويبدو أن ليلان في هذه الفترة كانت قرية صغيرة قرب وادي الجراح ، ولكن البعثة لم تعثر حتى الآن على منشآت معمارية تعود الى فترة حلف على الرغم مـن وجود فخاريات عديدة تعود الى هذه الحضارة .

ان التنقيبات الاثرية في تل ليلان وحول ضفاف الخابور وروافده بينت أن منطقة الجزيرة السورية كانت مزدهرة بالمستوطنات والقرى ،وخاصة في فترة عصر السلالات الباكرة الثانية ، أي نحو منتصف الالف الثالث ق.م . ويبدو أن بعض هذه القرى قد أصبح في هذه الفترة مدنا ذات شأن مثل موقع ليلان وتل براك وتل موزان وتل خويرة. ولا شك أن هذه المدن قد لعبت دورا حضاريا هاما لا يقل بأي شكل من الاشكال عـن دور المدن السومرية الجنوبية .

ان وجود مثل هذه المدن القوية في الشمال هو الذي حدا بالملك الاكادي نارام سين الى الاستقرار ولو لفترة من الزمن في تل براك ، وبناء قصر فيها يشبه القلاع العسكرية الحصـينة .

الرقم المسمارية المكتشفة في تل ليلان عام ١٩٨٧ :

أسفر موسم حفريات عام ١٩٨٧ في تل ليلان عن اكتشاف أكبر مجموعة من النصوص المدونة باللهجة البابلية القديمة في شمالي سورية ، وهذه المجموعة هي الاولى من نوعها منذ الاكتشافات المذهلة التي حققتها أعمال التنقيب الاثري في ماري قبل الحرب العالمية الثانية .

تتألف المحفوظات المكتشفة حديثا من (٦٠٠) رقيم في حالة سليمة نسبيا مع بضع مئات من أجزاء الرقم وعدد من طبعات الاختام الاسطوانية المشفوعة ببعض الكتابات ، وقد عثر عليها في مجمع القصر الكبير المشيد في المدينة المنخفضة في القطاع٣ . وترقى هذه المجموعة بتاريخها الى ١٧٥٠ ق.م على وجه التقريب ، شأنها في ذلك شأن المجموعة الصغيرة من الرقم والطبعات التي عثر عليها عام ١٩٨٥ .

تتضمن الرقم نصوصا ادارية ورسائل سياسية ومعاهدات تلقي أضواء جديدة على التطورات التي حدثت في منطقة الخابور بعد سقوط مدينة ماري ، وتقدم معلومات هامة عن الفترة الاخيرة من تاريخ ليلان .

نحن نعلم من خلال النصوص المكتشفة في ماري أن العاهل الآشوري شمشي ادد/هدد الاول قد أقام في مدينة تقع في أعالي الخابور هي مدينة شوبات انليل ، أي (مقر الاله انليل) ، وكان يدير من هذه المدينة أمور امبراطوريته الواسعة الارجاء . وقد أثبتت النصوص المكتشفة عام ١٩٨٥ ، والدراسات التي أجراها الاستاذان روبيرت وايتنغ ودومينيك شاربان ، بأن ليلان هي مدينة شوبات إنليل ، وأن هذه التسمية أطلقت على المدينة في عهد شمشي ادد/هدد الاول . أما اسمها القديم فهو شخنا Sehma ، وكانت عاصمة بلاد (آبوم Apum)(٤). ونحن نعلم من خلال النصوص المكتشفة في تل براك أن اسم المدينة في نهاية الالف الثالث هو شخنا Sehma ، ويبدو أن هذا الاسم قد عاد من جديد بعد وفاة شمشي ادد/هدد لأن النصوص التي اكتشفت في ليلان تذكر شخنا :

Sa — ah — na — a Uru — Ki sag

شخنا عاصمة (شا ـ إخ ـ نا ـ آ ـ أورو ـ تي ـ ساج)

بلاد آبوما ma — da — bu — um — ma

ومن هنا نستنتج أن شخنا عاصمة بلاد آبوم لم يتغير اسمها الا في عهد شمشي ادد/هدد الاول ، وهذا الاسم الجديد ما هو الا لقب للمدينة العظيمة التي هي مقر

كبير الآلهة انليل ، غير أنه بعد وفاة شمشي ادد/هدد الاول عادت المدينة الى اسـمها القديـم ، شـخنا . ويبـدو أن ميزان القـوى السياسـية بـدأ يتغير بعـد وفـاة شمشي ادد/هدد اذ لم يستطع أبناؤه الوقوف في وجه التحالفات التـي عقـدت بين الممالك الآموريـة ، حلب وبابل وماري واشنونـا ، وبدأت مدن شمشي ادد تسـقط الواحدة تلو الاخرى ، وكان أولها ماري التي أعيدت الى حوزة زمري ليـم بمساعدة ملوك حلب ، وآخرها شوبات انليل التي خضعت في البداية الى سلطة أتامروم ملـك مدينة أندريق الذي كان حليفا لزمرى ليم(٥) . وقد عين أتامروم ابنه خمديا Hemdiya ملكا على بلاد آبوم وعاصمتها شخنا .

وبفضل الرقم المكتشفة في ماري وليلان أصبح بامكاننا أن نصيغ تاريخ تل ليلان في بدايات الالف الثاني ق.م ، وهي تبدو على الشكل التالي :

شـمشي ادد/هدد الاول Samsi Addu

ايشـمي داجان بن شـمشي ادد/هدد isme Dagan

اما في عهد زمرى ليم ، أي ما بين ١٧٧٥ — ١٧٦١ ق.م ، فقد أصبحت تحت سلطة أتباعه وهم :

— توروم ناتكي Turum - natki

— زوزو Zuzu ذكر في نصوص ماري

— حيا آبوم Haya - abum نعرف من نصوص ماري أنه تعرض لهجوم شـنه عليه لاأولا هدد La'ula Hadad

ثم أصبحت ليلان تحت سلطة أتامروم ملك أندريق ، الذي نجح في تنصيب ابنه خمديـا ملكا على شخنا قبل سقوط ماري بفترة قليلة .

اما في الفترة الواقعة بين عامي ١٧٦٠ — ١٧٢٨ ق.م فقد انتقلت السلطة مـن حمديا الى يد داري ايبوخ Dari Ebuh وقد كان لهذا العاهل أبنـاء ثلاثة هـم :

ياكون اشار Niqmi Adad — آخر ملوك ليلان وقد سقط بيد شمشي ايلو .

نيقمي ادد Yakun Asar (لم يخلف والده في السلطة) .

تيل ابنو nuqV III.L — الملك قبل الاخير من ملوك ليلان .

ويبـدو أن السلطة انتقلت بعد داري ايبوخ الى يـد موتو آبيخ بن خالون بيمو

الذيكان يعرف باسم موتيا : Mutiya DUMU Halum bimu ويبدو أنه كانمغتصبا للعرش .

وبعده عادت السلطة الى ابناء داري ايبوخ وهم تيل ابنو ، ثم ياكون أشار الذي سقط أمام هجوم شمشي ايلونا ملك بابل، والذي دمر مدينة شخنا واحتلمملكة آبوم.

نلاحظ بشكل عام أن النصوص المكتشفة في ليلان تغطي فترة خمسين عاما ، ما بين ١٧٧٨ – ١٧٢٨ق.م أي منذ أواخر عهد شمشي هدد حتى عهد ياكون أشار . ويبدو أن الحفريات في المدينة المنخفضة سوف تمكننا من الحصول على محفوظات الرسائل والنصوص الادارية التي يمكن أن تكون قد حفظت من قبل الملك ياكون أشار، ناهيك عن شواهد عصر شمشي ادد/هدد التي قد تكون أكثر أهمية من محفوظات ماري .

اما أنواع النصوص المكتشفة في ليلان فهي كالتالي : قوائم بالملوك السومريين وسنوات حكمهم ، رسائل موجهة الى ملوك ليلان ، معاهدات بين ملوك ليلان وحكام المناطق المجاورة ، ثم النصوص الادارية(٦) .

ــ قوائم الملوك السومريين :

عثر على العديد من هذه القوائم في الحفريات التي جرت في كيش واور واريدو . ويبدو أن هذه القوائم كانت تحفظ أو يعاد نسخها من قبل الكتاب في العصور اللاحقة، لا نملك في ليلان قوائم كاملة وانما أجزاء من رقم لم تدرس الدراسة الكاملة بعد .

ــ الرسائل :

ان عدد الرسائل التي عثر عليها في ليلان يقارب ١٥٠ رسالة كشفت في معظمها في الغرفة ٢٢ وهي موجهة الى ملكين من ملوك ليلان (موتيا ــ وتيل ابنو) وأحيانا (توجه الى : belum وهي تعني الى سيدي ، ولذلك نعتقد أن المقصود اما (موتيا او تيل ابنو) .

آ ــ الرسائل الموجهة الى بيلوم (السيد) يقارب عددها الخمس والعشرين رسالة وهي موجهة من السادة :

ورد عشتار	Warad Istar	شوبرام (ملك سوسا الواقعة في بلاد
تيشون أتال	Tisuen atal	ايدا ماراز) (رسالتان) Supram
تاكي (رسالتان)	Taki	

شـنيتا	Senita	باشـوب ...	Yasub
سانجارا (٤ رسـائل)	Sangara	رانكانــو (٣ رسائل)	Inganu
قراد (أحد ضباط الجيش في ماري) qarradu		باخدى ليم (أحد موظفي زمرى ليم). Bahdi lim	
كزوزو (٦ رسائل)	Kuzuzzu	أبوتانــو	Apputanu
كانيسـانو (والي سكارايتم) Kanisanu			

ب ـ الرسـائل الموجهة الى موتيا (موتو آبيخ ؛ عددها اثنتا عشرة رسالة وهي موجهة من السـادة :

حمورابي (ملك حلب)		Hamurabi
أشتمار هدد (٣رسـائل)	الأخ	Astamar Hadad
(أي تبدأ بعبارة الى أخي)		
خالو رابي	الأخ	Halu - rali
شيبالو (رسـالتان)	الأخ	Sepallu
ياكون آشار	ابــن	Yakum - Asar أي (الى ابني)
يسمع هدد	ابــن	Yasmah - Addu
نيقمي شمش	ابــن	Niqni - Samas
كانيسـاني	عبــد	kanisani أي (الى عبدي)

تجدر الاشارة الى أن عبارة الاخ تدل على المساواة في الرتبة أما الابن فتدل على صلة القرابة أو فارق السـن ، أما كلمة عبد فتعني التابع المخلص .

جـ ـ أما الرسـائل الموجهة الى (تيل آتبو) فهي الاكثر عددا ويقارب عددها المئة والعشرين رسـالة وهي موجهة من السـادة :

* حمورابي	آب	Hamurabi
بن دامــو		Ben - Dammu
ايا ملك (ملك كريميش ووالد اتارامي (٣ رسـائل)		Ea - malik
ابلخندا		Aplahonda
أشـتمار هدد (٤ رسـائل)		Astamar - Adad
بوريجا (٨ رسـائل)		Burija
* خالورابي (٥ رسـائل)		Halu-rabi
ياكون آشـار (رسـالتان)		Yakun-Asar
يمصي خاتنو (١٤ رسالة) أخ		Yamsi Hatnu
ملك مدينة اخاث (تل بري)		
ماشـوم (٤ رسـائل)	أخ	Masum
نيقمي هدد (٣ رسـائل)	أخ	Niqmi - Addu
شيبالو (رسـالتان)	أخ	Sepallu

شوكروم تيشوب (رسالتان)أخ (ملك ايلخوت)		Sukrum-Tessup
أيا آبو (٧ رسائل)	ابن	Aya - alu
أيا آسي	ابن	Aya - asi
ماسوم أتال	ابن	Masum Atal
ميخيلوم	ابن	Mehilum
اويرى (كان واليـا في ظل تيل ابنو)	ابـن	Ewri
خاويليا	ابن	Hauilya
انكانو	عبد	Inganu
سنكارا	عبد	Sangara
تاكي (رسالتان)	عبد	Take

وكنموذج عن هذه الرسائل نعرض فيما يلي رسالة حمورابي ملك حلب الى تيليا (تيل أبنو) L 87 - 472 ورسالة خالورابي L 87-227

١ ـ رسالة حمورابي بن ياريم ليم ملك حلب الى تيل أبنو ملك شخنا (تل ليلان ٨٧–٤٧٢)

بلغ تيليـا
هكذا يقول حمورابي والدك
سابقا . أرسلت (لك) بن دامو خادمي (تابعي)
فحققت ما كنت تصبو اليه
بنشر جنوده في أطراف بلادك
لقد كانو أكثر خدمة وتفانيا عن ذي قبل
والآن جهز نفسك مع بن دامو خادمي
لتأتي الي . وعدني أن تطلق سراح خدمي الذين
ارسلوا الى أمور ساكي والنظر في شأنهم

٢ ـ رسالة خالو رابي أحد ملوك منطقة الخابور الى تيل ابنو ملك شخنا (تل ليلان) بخصوص الرحلة الى حلب : (انظر الشكل)
الى تيل آبنو اخي
سمعت الرسالة التي وجهتها الي
حول رحلتك الى حلب التي كتبت لي بشأنها
وبما أنك سوف لن تذهب الى حلب ولن تقابل الملك
دع أحدا ممن تثق بهم (من خدمك) في مكانك
وأذهب معي الى حلب .

المعاهـدات :

لدينا مجموعة من النصوص على جانب كبير من الاهمية ، عثر عليهـا في قصر المدينة المنخفضة في ليـلان وهي تتضمن أجزاء من معاهدات سياسية ترقى بتاريخها

الى عهود جديدة ، ومنها معاهدة بين يمصى خاتنو Yamsi Hatnu ملكمدينة كاحات وتيل آبنو ملك بلاد آبوم .

وثمة معاهدة اخرى بين ملك مجهول وموتيا (موتو آبيخ) ، واخرى بين حيا آبوم وقرني ليم . وأخيرا معاهدة بين تيل ابنو وآشور . وقـد صيغت هـذه المعاهدات بأسلوب واحد ، اذ تبدأ بقائمة بأسماء الآلهة ثم فقرات المعاهـدة وتختتم بسلسـلة اللعنات التي تشكل نصف الوثيقة . ومن نماذج هذه المعاهدات النص + 150 - L 87 والذي يقسم فيه ملك مجهول بالولاء لموتيـا ملك آبـوم وفيما يلي ما تبقى مـن نص المعاهـدة .

٢٢) منذ هذا اليـوم
الذي عقدت فيه المعاهدة
مع موتيا بن خالون بيمـو
ملك بلاد آبيـم وأبنائـه
وعبيده وجنوده وتابعيــه
ومملكته أتعهد (أصرح)
بأن لا أقول : تعهدي قـدم
وعهدي أصبح باطلا

٣٠) ـ وكل شيىء انتهى مع
موتيا بن خالون بيمـو
ملك بلاد آبيـم وأبنائه
وعبيده وجنوده وتابعيه
ومملكته ـ سوف لن أنال (منهم)

٣٥) ـ ما دمت حيـا .

النصوص الاداريـة والاقتصادية :

تشكل النصوص الادارية القسم الأعظم من المحفوظات ويزيد عددها على ٣٠٠ نص اكتشف بعضها في المواسم الاولى (١٩٨٠ ـ ١٩٨٢) وبعضها الآخر عام ١٩٨٥ . أما العدد الكبير فقد اكتشف عام ١٩٨٧ . وهي نصوص صغيرة تتحدث عـن موضوعات استيراد وتصدير البضائع الكمالية (خمور ، فضة ، البسة .. الخ) وهي مشابهة من حيث الشكل والصيغة لتلك النصوص التي اكتشـفت في كل مـن تل الرماح وتل الشمشارة وتل شاعر بازار(٧) . وكانت هذه النصوص مصنفة على شكل أرتال ومحفوظة في قسم الرسائل السياسية ، في حين ان النصوص الاخرى ، التي تعالج موضوعات الامور التموينية الاساسية والموضوعات المتعلقة بولاية (آبـوم) كانت تحفظ بشـكل مسـتقل في مكاتب مختلفة .

ويبدو أن النصوص الادارية المكتشفة عام ١٩٨٥ وما قبله يعود تاريخها الى عصر شمشي ادد الاول أما النصوص الادارية المكتشفة عام ١٩٨٧ فتعود الي الفترة اللاحقة

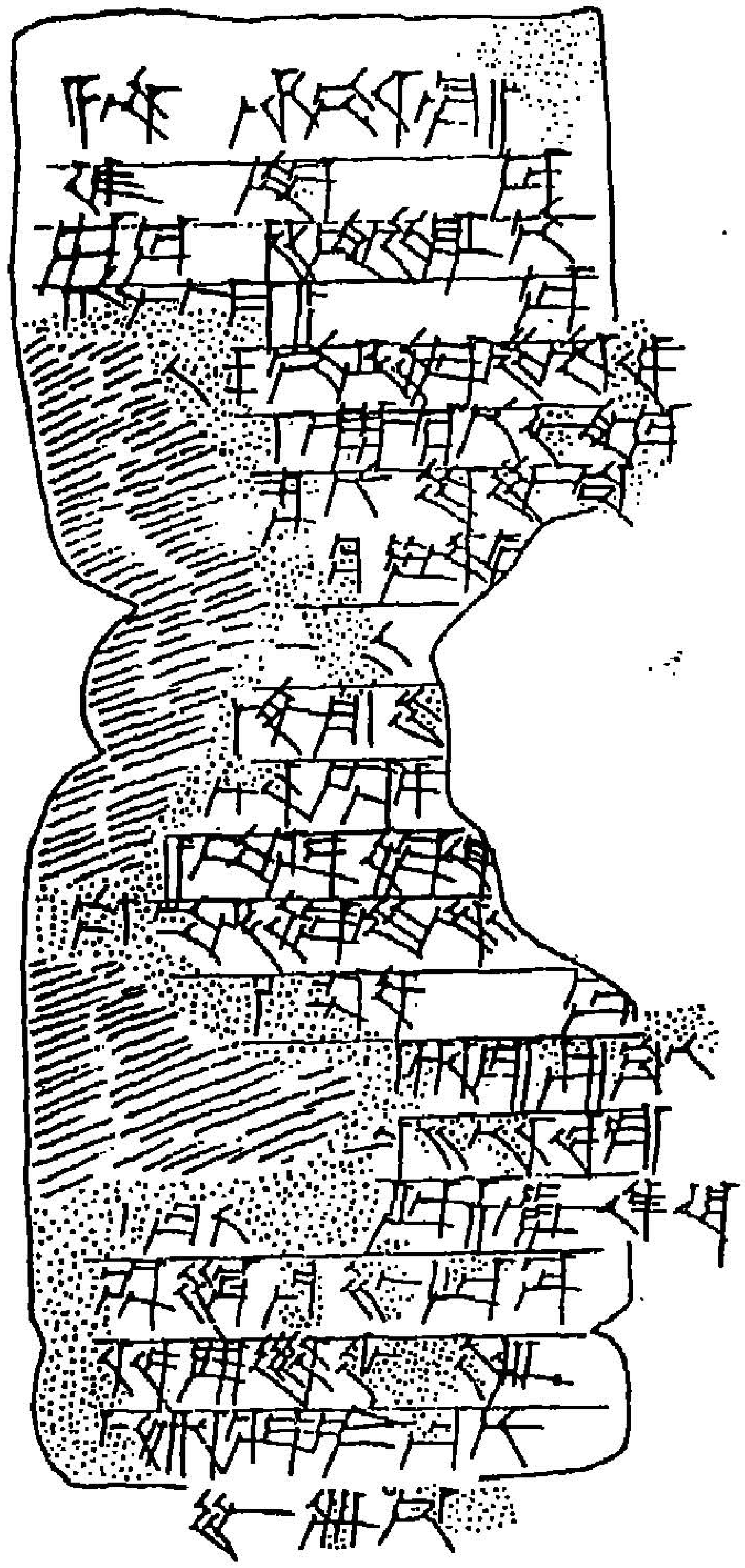

رسالة حورابي ملك حلب
الى تيليا ملك شخنا ،
اكتشفت في تل ليــلان
١٩٨٧ .
النص مأخوذ عن تقرير
عن لوحات ليــلان كتبه
يسبرايدوم عام ١٩٨٧
(قيد النشر) .

[23]L87-472 (1) *a-na Ti-il-la-a-*[*ia*] (2) *qí-bí-ma* (3) *um-ma Ha-am-mu-ra-bi* (4) ⌈*a-bu-ka*⌉*-a-ma* (5) [*pa-na-n*]*u-*[*u*]*m Bé-en-dam-mu* ìr-*di* (6).[*aš-pu-r*]*a-ak-ku-nu-ši-im-ma* (7) [*ù ṭe*$_4$*-e*]*m-ku-nu te-pu-ša* (8) [erín.meš- *š*]*u i-na m*[*a-ti-ku-nu*] (9) [*tu-wa*]*-a*[*š-š*]*e-*[*ra-ma*] (10) [*ku-n*]*u-ši-im e-l*[*i-ša pa-na*] (11) [*i-t*]*a-ap-pa-*[*lu*] (12) [*ù*] *a-bi-ka dam-q*[*í-iš a-pu-ul*] (13) [*qa*]*-du Bé-en-dam-mu* ìr-*d*[*i-ia*] (14) [*ṭe*$_4$*-em-ka*] *ṣa-ab-tam-m*[*a*] (15) [*a-la-kam a-na ṣi-r*]*i-ia ep-ša-a*[*m*] (16) [*ša-ni-tam*] lú.meš ìr-*di-ia* (17) [*i-n*]*a* uru.k[i *A-mu*] *-ur-za-ak-ki*^{ki} (18) [*ṣa*]*-ab-tu šu-pu-ur-ma* (19) [ì]r-*di-ia li-w*[*a-a*]*š-še-ru* (20) [*w*]*a-ar-ka-a*[*s*]*-sú-nu* (21) *pu-ru-ús*

وخاصة فترة موتيا وتيل أبنو . ومـن الامور الهامة في هذه النصوص الاداريـة هو التأريخ المدون حسب الطريقة الآشورية والذي يصاغ على الشكل التالي :

عهد فلان بن فلان (ليمو) . (فترة ولاية فلان)
خادم فـلان

وهذا يعني أننا نستطيع التعرف أيضا على أسماء مجموعة من الامراء أو الملوك الذين اداروا أمور السلطة في ظل ملك أكبر كانوا تابعين له ، ومن العقود الوارد ذكرها في النصوص :

عهد هابيـل ـ كنـو (فترة حكم الملك موتيا وتيل ابنـو)
عهـد آمـر عشتار
ابيـق عشـتار (غير معروف ويرد ذكره في أربعة عشـر رقيمـا
آمـر عشـتار (وربما كان حاكما لمقاطعة خاصة)
شوبيلي
هدد باني بن بوزور ايلي ، (في فترة شمشي ادد الاول)
بيلاسـين (في بداية فترة زمرى ليـم)
هابـو (في عهـد حمديـا)
نيمير كوبـي

بعد أن تعرفنا على أنواع النصوص المكتشفة في تل ليلان نعـود لوضـع بعض الخطوط التاريخية العامة لتاريخ منطقة الخابور وعلاقتها بالممالك المجاورة .

بينت لنا نصوص ماري أن منطقة الخابور الاعلى كانت على الدوام مركز اهتمام زمرى ليم في سياسته الخارجية ، فهو لم يحاول فرض هيمنته على أي منطقة نائيـة عن بلاده ، واكتفى بالاعتماد على ملوك أتباع كان يدعمهم ، وفي الوقت نفسه يرصـد تحركاتهـم بوساطة مبعوثيه وقواد جيشه .

وفي الحقيقة ان معظم الرسائل من عصر زمرى ليـم هي تقارير تتحـدث عـن التقلبات والتغييرات السياسية في منطقة الخابور ، وعن الازمات التي تحدث هناك في حال ظهور قوة كبيرة من ذلك الزمن مثل (أشنونا) و (عيلام) تنـازع ماري علـى سيادة هذه المنطقة(٨) .

أما في العصر الذي أعقب عصر ماري مباشرة فقد استجدت جملة مـن المتغيرات تعرفنا عليها من خلال محفوظات تل الرماح(٩) والتي بينت أن ملكا محليا يدعى (عقبة ـ حمو) وهو بالتأكيد وعلى نحو بيّن ملك تابع للسلطة البابلية ، شأنه في ذلك شـأن ملـوك (أندريق) وشوبات انليل . ويبدو أن خمديا استمر في حكم ليلان لفترة من الزمـن بعد سقوط ماري تحت أمرة العاهل البابلي حمورابي(١٠) ، ومـن المحتمـل أن داري ايبوخ) و (موتيا) قد اعتصبا السلطة فيما بعد في تل ليلان وأسسا أسـرة حاكمـة جديدة لا تمت بصلة الى الاسرة التي حكمت مملكة آبوم .

وانطلاقا من الشواهد الجديدة في ليلان ، التي تغطي فجوة الانقطاع في التسلسل بين محفوظات تل الرماح ومحفوظات ألالاخ ، يبدو أن دولة يمحاض القوية في كرّها وفرّها مع بابل ، قد عادت وأحكمت قبضتها تدريجيا على شمالي بلاد الرافدين ، وكان حمورابي ملك حلب بن ياريم ليم يرسل رجاله وقواته الى الملك تيل أبنو (تيلتا) ليحفظ حدود مملكته ويضمن الاستقرار .

ومن القوى السياسية التي تشير اليها نصوص ليلان مملكة كاخات التي يرد ذكرها في نص المعاهدة L 87-1362 ، وتقع بين نوّار ونوّار (مدينتان بالاسم نفسه). ولا شك أن موقع كاخات هو تل بري . ويبدو أن ملك كاخات (يمصي خاتنو) كان يحكم قبضته على مساحات أوسع من تلك الممتدة على طول وادي نهر الجغجغ .

اما المثير في نصوص ليلان الجديدة ، فكونها تردد كثيرا ما يدعى اسم (خباتوم)* وهو اسم معروف ورد ذكره في نص مكتشف في قلعة الهادي (٤٠ كم جنوب شرقي ليلان) ، يتحدث النص عن دفع أجور (خوة) بالفضة . كما كتب أو يرى الى سيده في شخنا ربما الى تيل ابنو تقريرا عن المتاعب والاضطرابات التي يسببها الخباتوم . يقول التقرير (L 87-744) :

شن بوريا هجوما مع جنود الخباتوم وتغلغلوا في بلاد نوماهيم مثيرين المتاعب والشغب أرجو من سيدي أخذ العلم .

وفي الوقت نفسه كتب أويري رسالة الى تاكه احد كبار الموظفين في شخنا يحدثه فيها عن الخباتوم ، ويقول نص الرسالة :

سمعت اشاعات حول قوات الخباتوم فأعلمت (أخي ماراص) الذي أجابني بأنه يوجد ٦٠٠٠ خباتوم في مدينة شوبروم وقد أكلوا الاخضر واليابس في بلاد نوماهيم .

وفي الواقع نحن نعرف هذه المجموعات من خلال نصوص ماري وهم يقيمون في الغرب وحول تل الرماح ومنطقة الخابور . غير أن تصنيفهم اجتماعيا لم يزل أمرا غامضا ، وقد فهم اسم (خباتوم) تقليديا على أنه يعني (لص) أو قاطع طريق أو صعلوك أو خارج على القانون أو ما شابه . ومما لا شك فيه أن نصوص ليلان الجديدة، في ضوء الدراسات التفصيلية ، ستفيدنا في فهم هذه الظاهرة الاجتماعية ، وعلاقتها ببنية المجتمع في شمال سورية منذ بداية الالف الثاني ق.م .

---

* خباتوم من الجذر الاكادي HBt اي خبط بالعربية والخباطون هم الاشقياء وهو ما يدل عليه محتوى النص أعلاه (المجلة) .

نحن نعرف في عهد زمري ليم بأن الاوضاع الجغرافية والسياسية كانت مذبذبة بين التشرذم المتطرف ، ونشوء كيانات سياسية كبيرة غير ثابتة . ولا نشك أن السبب في ذلك يعود ولو جزئيا الى التدخلات الخارجية وما ينجم عنها ، ومهما يكن الامر ، فان انحسار النفوذ الخارجي كان ملازما لمحاولات كانت تبذل في سبيل تشكيل حكومات محلية كبيرة نسبيا ومستقرة وهذا ما نستخلصه من دراسة النصوص المعاصرة لهذه الاحداث .

وفي المحصلة نستنتج أن النصوص المكتشفة حديثا في (تل ليلان) لا تزودنا بمعلومات عن التطورات المحلية التي حدثت في منطقة الخابور فقط ، بل تساعدنا على سد ثغرات الوثائق التاريخية والاجابة على أسئلة ذات دلالات هامة .

وبما أن القسم الاعظم من قصر المدينة السفلية في ليلان لم ينقب بعد ، فان الامل يحدونا الى الكشف عن مدونات هامة في المواسم القادمة .

الحواشي

(١) هارتموت كونه « مواقع التنقيب الاثري في سورية » ص ٣٩ ، نسخة معربة عن الالمانية من قبل : قاسم طوير وأسعد المحمود ، منشورات المديرية العامة للاثار والمتاحف دمشق — ١٩٨٣ .

(٢) Harvey Weiss « Tell Leilan on the Habur Plains of Syria , » Bibl Arch 48/1 PP. 5 - 35 . 1985 .

(٣) Harvey Weiss «Tell Leilan and Shubat Enlil»Ebla to Damascus P. 209 Washington, D.C. 1985.

(٤) D. Charpin « Subat Enlil et le Pays d' Apum » M.A.R.I. 5 PP. 129 . Washington , D. C 1985.

(٥) Birot , Syria 55 . P. 342 1978.

(٦) Jesper Eidem « Tell Leilan Tablets 1987 » Apreliminary Report-1 . تقرير لم ينشر بعد .

(٧) Gadd « Tablets form Chager Bazar and tell Brak , Iraq-7 P. 22 - 27 1940 .

(٨) G. Dossin ARM I , 1-2 . Paris 1946 .

(٩) Durand / Charpin « Le Nom Antique de Tell Rimuh » R A 81 PP. 130 (1987) .

(١٠) Jesper Eidem « Some Remarks on ihe Iltani Archive from Tell Rimah » Iraq 51 (1989) .

ملاحظات على الكتابة الآرامية (٢٤)

من كتابات الحضر(١) في العراق

قراءة جديدة للكتابة (٢٤) من كتابات الحضر

د. مانويلا جولفو
جامعة تورينو – قسم اللغات الشرقية

تدور ملاحظاتنا حول الرقم (٢٤)(٢) من مجموعة الكتابات الآرامية التي نشرها فؤاد سفر(٣) في مجلة سومر العراقية بدءاً من عام ١٩٥١ .

هذه الكتابة الموجودة في معبد بعل شمين على زاوية الجدار الشرقي منه ، تنتمي الى مجموعة الكتابات المحدودة المخطوطة بطريقة سريعة بحبر أسود أو أحمر على جدران المعابد الكثيرة التي كانت منتشرة حول مدينة الحضر الواقعة على ممر القوافل. وقد حاول كثير من المختصين دراسة هذا الرقم(٤) غير الواضح ، لكنهم لم يوفقوا في التوصل الى نتائج كاملة ومرضية ، تصل الى ملامسة الحقيقة العلمية ؛ وعسانا نوفق هنا ...

وعبر المحاولات المبذولة لترجمة هذه الكتابة ، ظُنّ أنها مقسمة الى أربعة أقسام هي السطور الاربعة التي تبدو للوهلة الاولى على النظام التالي : (شكل ١) .

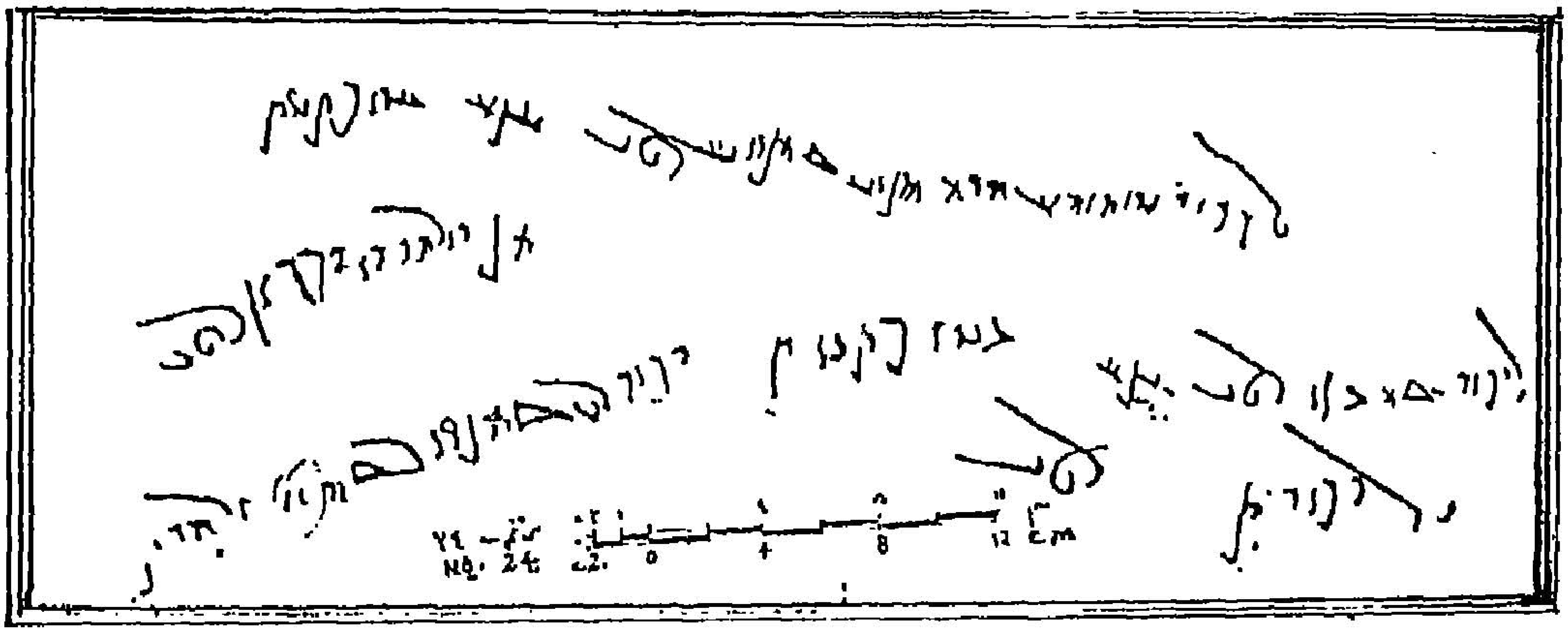

الشكل (١) : الرقم (٢٤) كما نشرته مجلة سومر ، ٧ ، ١٩٥١ ومجلة سورية ، ٢٩ ، ١٩٥٢

دراسات تاريخية ، ٣٧ و ٣٨ ، ايلول – كانون الاول ١٩٩٠

السطر الأول : يقع في أعلى الرقم مائلا الى أعلى باتجاه اليسار .

السطر الثاني : أقصر من الاول ، ويحتل أسفل النصف الثاني للسطر الاول ويميل بعكسه .

السطر الثالث : أطولها ، ويبدأ أفقياً حتى منتصف الرقم ، ثم يستمر موازيا تماما للسطر الثاني .. وتجدر الملاحظة بأن هذا السطر منكسر الى قسمين: الاول أفقي ، والثاني مائل ..

السطر الرابع : وهو أقصرها ، ويمتد أفقيا تحت النصف الاول من السطر الثالث .

ونوضح هذا النظام تخطيطياً في الشكل (٢) :

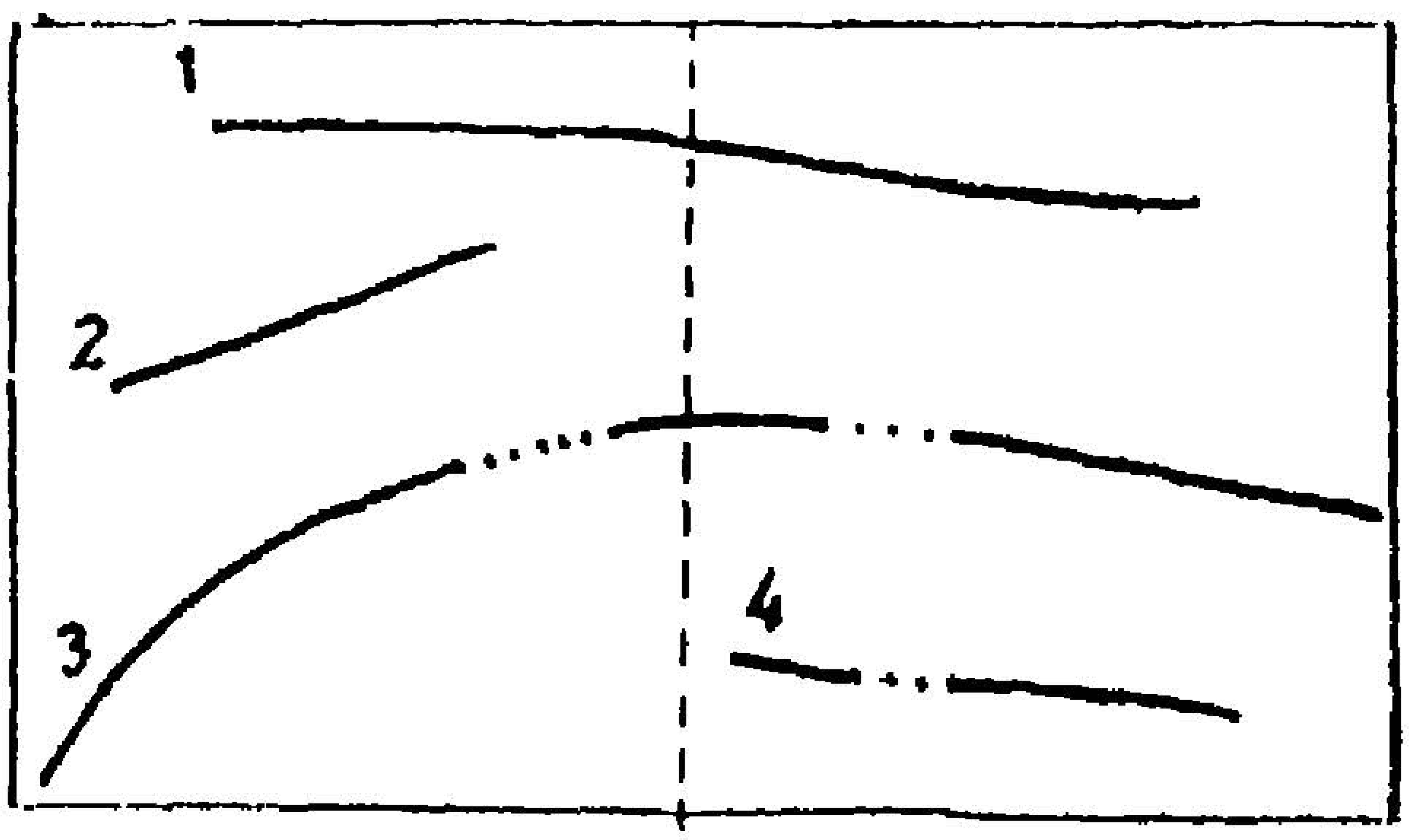

الشكل (٢) : تخطيط يوضح توضع الاسطر في الرقم (٢٤)

ووفق هذا النظام نشرت أكثر من دراسة ، ولكن غياب التفسير الدقيق والمتكامل أوحى بتخمين وافتراض نظام مغاير نشرحه بايجاز مع التنبه الى أن اختلاف ميول السطور ، والانكسار فيها يشجعان على تبني نظام بديل(٥) موضح تخطيطياً بالشكل (٣) :

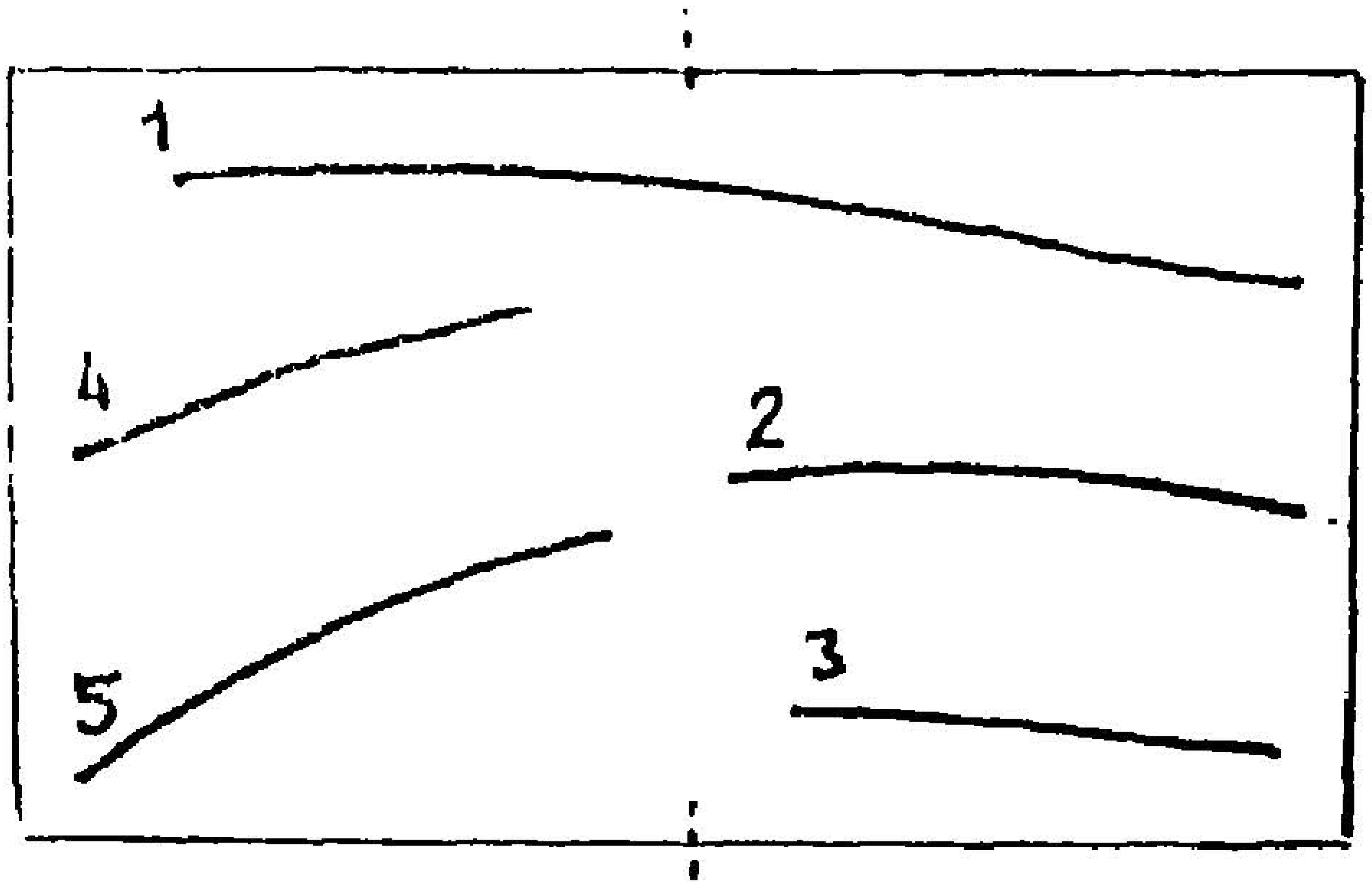

الشكل (٣) : تخطيط يوضح توضع الاسطر في الرقم (٢٤) وفق النظام الجديد

في مجلة سومر ١٩٥١ ، الجزء الثاني من القسم العربي ، يقرأ فؤاد سفر الرقم (٢٤) كما يلي :

س١ : بل دكير برزقيقأ
قدم مرن وبعشمن
رأبأ لطب أنأ عبدي
كتبتيت

س٢ : من دي لم؟دي دكرين لطب

س٣ : بل دكير شمعنو؟ لطب أنأ عبدي كتبيت دكير لط[ب]
شمن د؟ي
لشن؟ف؟ي؟ر ر؟ ؟لقد؟؟

س٤ : بل دكير ت.......لطب
ويترجم سفر كما يلي :

س١ : الاله بل مذكور برزقيقا أمام سيدنا وبعلشمون الرب بالخير .
أنا عبدي الكاتبة (؟) .

س٢ : .... مذكور بخير .

س٣ : الاله بل مذكور شمعان بخير . أنا عبدي الكاتبة (؟) .
مذكور بخير .... وبالرضى .

س٤ : الالـه بل مذكور .... بخير .

أما أندريه كاكو ، فيقرأ في مجلة سورية ، (٢٩ ، ١٩٥٢ ، ص ١٠٣–١٠٤) :

س١ : بل دكير برزقيقا قدم مرن وبعشمون ربأ لطب
أنأ عبدي كتبيت .

س٢ : من دي لم؟دي دكيرن لطب .

س٣ : بل دكير شمعنو لطب أنأ عبدي كتبيت دكير لط[ب]
شمن دي لشنفير .... ر .... لقد

س٤ : بل دكير ت.......لطب .
وتختلف قراءة سفر عن قراءة كاكو في :

سفر ١٩٥١	كاكـو ١٩٥٢
ـ ب ع ش م ن ـ ر ؟ ب ع	ب ع ش م و ن ر ب ع

ويلاحظ ف.أ يناكيتي أن تصحيح كاكو ـ المنشور بعد قراءة سفر ـ لم يصب الحقيقة بدقة ، وأن الاختلافات بينهما في القراءة لا تقدم جديدا الى الترجمة !!

.. ولنعد الى ترجمة سفر ، والتي يمكن اعتبارها مماثلة لترجمة كاكو في بنيتها وفي معناها : سنجد أن الخلل واقع في ترجمة السطرين الثاني والثالث ؛ خصوصا في القسم المائل من السطر الثالث ، لذلك اقترح سفر في مجلة سومر عام ١٩٥٣ قراءة جديدة للرقم (٢٤) هي :

س١ : بل دكير برزقيقأ قدم مرن وبعشمن رءبأ لطب
أنأ عبدي كتبيت .

س٢ : من دي لمنْ دي ودلكيْر لطب .

س٣ : بلَ دكير شمعنو لطب أنأ عبدي كتبيت دكير لبعشمن؟
ولشح ؟ رو ولمدن .

س٤ : ول .... لطب

وعلى الرغم من التصحيح ، فما من ايضاح جديد !

وهكذا اقترح يناكيتي نظاما بديلا ،لكن الترجمة(٦) لم تبلغ المستوى المطلوب ،ولم تحل مشكلات الرقـم .

لهذا نأينا عن النظام الاول الى النظام التي اقترحه يناكيتي ، وسنكمل بواسطته القراءة والترجمة على الشكل التالي ؛ وبمساعدة كلا الشكلين (٢) و (٣) فنرى : ثلاثة أسطر متوازية شكلا ، ومتكاملة معنى . فالسطر الثاني(٧) اذا عددناه سطرا ثانيـا في ترتيب القراءة ، سينقصه شيء يسبقه (غير ظاهر في الرقم) .. ولكنه اذا عُدّ بدايـة لعبارة جديدة ، سنكتشف أنه مستقل في معناه عن السطور الثلاثة المتوازية .. كما أنه يتمم معنى النصف الثاني من السطر الثالث والموازي له . انظر الشكل (٢) .

ولنوضح الفروق بين النظامين :

	النظام السابق		النظام الجديد
س١	الموجود أعلى الرقم وعلى كامل عرضه ..	س١	ذاته في النظام القديم ..
س٢	القصير المائل في أعلى ويسار الرقم تحت س١ ويميل الى أسفل ..	س٢	هو القسم الافقي فقط مما اعتُبر في النظام القديم سطرا ثالثا ..
س٣	الاطول ، مؤلف من جزأين: أفقي في النصف الايمن من الرقم ، ومائل الى أسفل موازيا لـ س٢ ..	س٣	هو السطر ٤ في النظام القديم
س٤	الاقصر ، أسفل ويمين الرقم ..	س٤	هو ذاته السطر ٢ في النظام القديم ..
		س٥	هو القسم المائل مما اعتُبر في النظام القديم سطرا ثالثا .

وبهدي من نظام يناكيتي الجديد ، استطعنا أن نقرأ ونترجم بالصيغة التالية ، والتي نراها أقرب الى الصحة كالتالي :

س١ : بل دكير برزقيقا قدم مرن بعشمن رو(ي)با لطب
انا عبدي كتبيت ..

وننوه بأن كلمة /مرن/ وردت في قراءات كل من : سفر ١٩٥١ ، سفر ١٩٥٣ ، كاكو ١٩٥٢، قاتيوني١٩٨١ ؛ لكنها لم ترد في قراءة يناكيتي ١٩٧٥ .. ولكن تكفي نظرة عادية الى صورة الرقم لنكتشف أن قراءة يناكيتي (١٩٧٥) قد تجاهلتها !!

كما نجد أن كلمة /رو(ي)با/ قد قرأها كاكو بالشكل /ربا/ في حين قرأتها عين فؤاد سفر الخبيرة /ر و ب ا / أو / ريبا / ..

س٢ : بل دكير أشمعنو؟ لطب أنا عبدي كتبيت .

س٣ : بل دكير ت .... لطب .

س٤ : من دي لمر دي دكرين لطب .

نرى أن نترجم كلمتي /من/ و /دي/ ب : مَنْ الذي . أي أن /دي/ = الذي وهو هنا الاسم الموصول . أما الكلمة /لمر/ ، والتي وردت في الرقم ١٠١ من كتابات الحضر ، السطر الثاني ، قاتيوني ١٩٨١ :

وبجن مرن عل من دي لقرهي لعدين كتبا
ولا لمر دكير .

اذ ترجم /لمر/ بفعل مضارع : يقول . وترجمة السطر :

« لعنة سيدنا على الذي لا يقول : ليكن مذكوراً »(٨) .

ونجد كذلك أن كلمة / دي / تتكرر مرتين في السطر الرابع ، فورودها الثاني يختلف عن ورودها الاول . ونؤكد نحن على صحة استبعاد يناكيتي فكرة أن /دي/ في موقعها الثاني ذاك تعني اسماً موصولا . ونقترح أن تشير نحوياً الى المفرد(٩) ، لأنها لو كانت تعني اسماً موصولا ــ ولو كان مرتبطا معنويا بالكلمة / دكرين / ــ لوجب أن يكون جمعاً .

ولنطرح الفرض التالي : لِمَ لا نعدّ /دي/ اسم اشارة للمفرد في لهجة الحضر ، يدل كما ورد في موقعها الثاني من السطر الرابع ــ على صيغة المفعول به ؟ تشجعنا على هذا الاعتبار الدلائل التي سنسوقها من لغات سامية قريبة مما يُظن انه لهجة الحضر .

[١] ففي اللغة الآرامية يأتي /دي/ كاسم موصول : كما في الحال أعلاه في الكتابة (٢٤)، السطر الرابع ، وفي ڤاتيوني ١٩٨١ ، الكتابة (١٠١) من كتابات الحضر .

[٢] ونجده كذلك كعلامة لواسطة تعبر عن الاضافة في الآرامية : كما نلاحظ فيما جاء في الرقم (٣٤٥) من مجموعة كتابات الحضر لحازم محمد النجفي(١٠) :

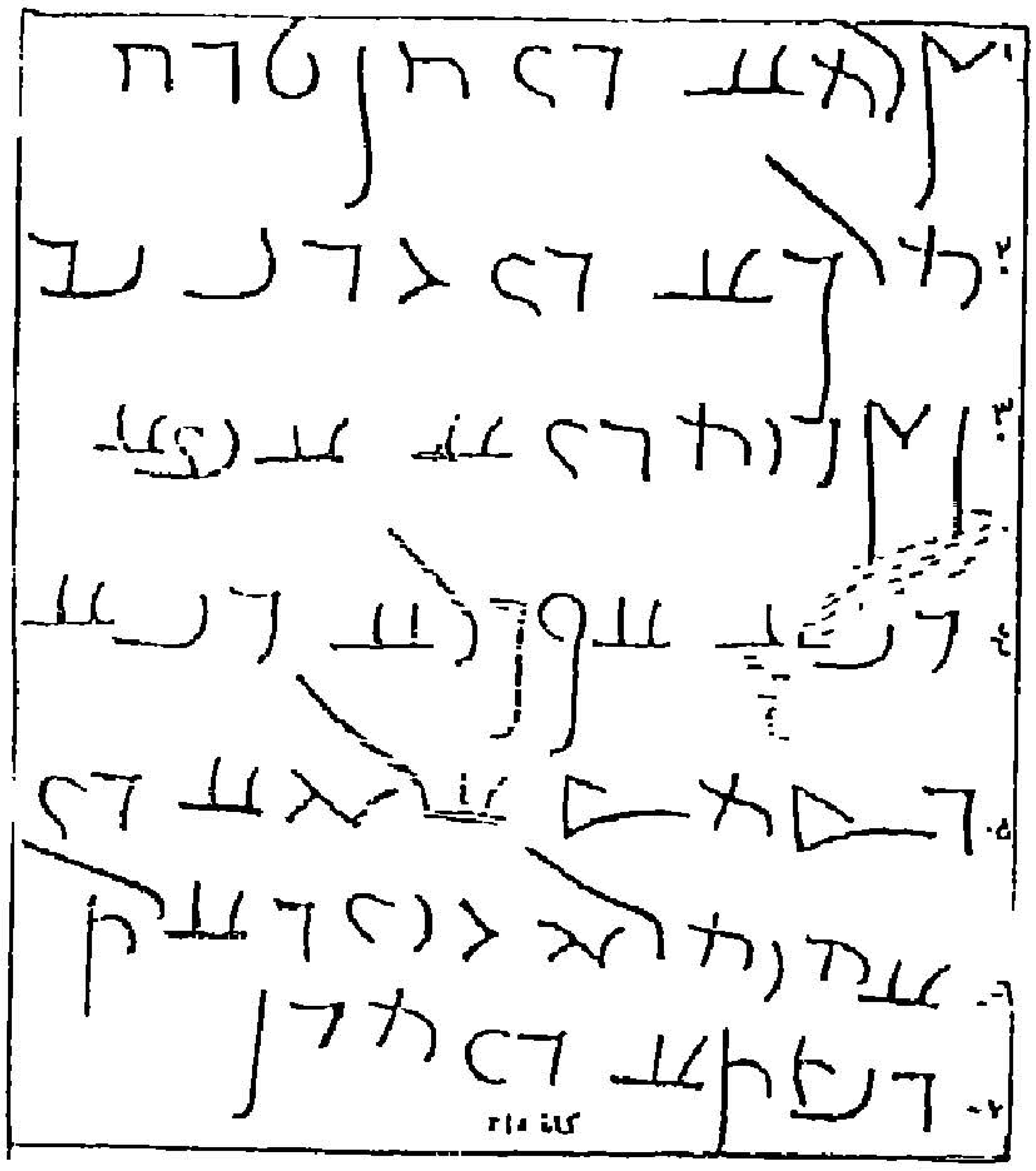

السطر الاول : صلما دي سنطرق .
: تمثال سنطرق .

والسطر الثاني : ملكا دي عرب بر.
: ملك العرب .

[٣] وفي العربية : نجد أن الحرفين (دو) و (دي) يدلان معا على معنى الموصول في الذي ← ذي .. ونجدهما يخدمان معنى الاضافة في : ذا ، ذو ، ذي أحد الاسماء الخمسة المعروفة(١١) كقول العرب : شهر ذي الحجة ، رأيت ذا الهمة ، قال ذو النورين .. وهم يريدون: شهر الحجة ،رأيت صاحب الهمة ، قال صاحب النورين(١٢)..

كما يطالعنا الحرفان / د، ي / في رغبة العربية في التعبير عن الاشارة ، اذ يقول العربي : هذي ، هذا ، حيث تعد الهاء للتنبيه واسم الاشارة هو : ذي ، ذا .. هذا من جهة .. ومن جهة أخرى قد يكون مفيدا أن نقول : ان اللهجات المحلية العربية في جنوب العراق وفي الكويت تستعمل اللفظة /دي/ كاسم اشارة شائع الاستعمال ..

وبذا ، وبعد أن لمحنا /دي/ في الآرامية وفي العربية دالة على الموصول وعلى الاضافة ، ولمحناها في العربية دالة على الاشارة ، نستطيع أن نقرر أن /دي/ في لهجة الحضر ــ بورودها الثاني في السطر الرابع من الكتابة (٢٤) ــ تدل على الاشارة .. وهكذا نترجم السطر الرابع كما يلي :

من يقول هذا مذكور بالخير .

س٥ : دكير لبش من دي لشو(ي)ر دي ولقددد ؟.

نرى هنا أن عين فؤاد سفر الخبيرة أضافت حرفا غير موجود الى كلمة /لبش/ في السطر الخامس !! وذلك ليلبي وجود هذا الحرف حاجة البنية القديمة الى اسم

الاله بعلشمين .. مع أن الرقم لا يظهر هذا الحرف الضيف بين حرفي /ل/و/ب/.
والحقيقة ، يمكننا القول بثقة أن الحال دون هذا الحرف الضيف هو :

ل ب ش   من ....←

وبالعودة الى ما نشره ڤاتيوني عن الرقمين (٧٤) و (٤٨) ، نجد في السطر الثامن من الرقم (٤٨) أنه :

قـرأ : م د ع ن د : ب ش .

وترجم : شيء ذو : شـر .

والمعنى : شيء مـن الشر .

وهكذا .. فالقراءة عندنا في السطر الخامس تصبح ل شر ، والمعنى : للشر .
وتكون الكلمتان / ل ش و ر / و /ل ق د د/ من السطر الخامس فعلين مضارعين للمفرد الغائب : فالاول /ل ش و ر/ نستطيع ترجمته بعد الاستعانة بالاصل السرياني (شور)(١٣) ومعانيه : عَبَرَ قَطَعَ ، دقّ ، فقأ عينه . وكذلك بعد الاستعانة بالاصل العربي (سور) ومعانيه : قطع ، شقّ ، فصل بين ..

والثاني /ل ق د د/ يمكننا ترجمته أيضا بعد الاستعانة بالأصلين السرياني والعربي (قدر)(١٤) ومعانيه : القطع طولياً ، مشيراً الى التخريب أو الاتلاف أو الاذى .. وتؤيدنا في ذلك كتابات الحضر التي ترجمها ڤاتيوني ذوات الارقام (٢٩) و (٢٣٢) والتي تظهر فيها معاني القلق والخوف من أن تكون الكتابة طلبا للأذى أودعاءً للشر ؛ وخاصة في الرقم (٧٤) الذي يعني الدعاء باللعنة على من يخرب أو يتلف هذه الكتابة ..

ف / دي / في سطرنا الخامس دالـة على الاشـارة في ورودها الثاني ، وتـدل /م ن ، دي/ على من الذي أي على الموصول كما مر معنا في مطلع سطرنا الرابع مـن النظام الجديد .

واستنادا الى كل ما سبق نترجم معنى الرقم (٢٤) كما يلي :

س١ : يا بل .. ليُذكر(١٥) برزقيفا أمام سـيدنا بعلشمون العظيم بالخـير ، أنا عبدي كتبتُ .

س٢ : يابل . ليُذكر شمعنو بالخير ، أنا عبدي كتبتُ .

س٣ : يابل .. ليُذكر ت ....(١٦) بالخير .

س٤ : مَنْ يردد(١٧) هذا ليذكر بالخير .

س٥ : ليُذكر بالشر مَن يتلفه [أو يخرب ، أو يمحو هذه الكتابة] .

وهكذا، فمحاسن هذه الترجمة عديدة منها :

* أنها توضح تسلسل الدعاء بالخير في السطور ١ و ٢ و ٣ نظرا لتماثل الاسماء الثلاثة : برزقيقا وشمعنو والثالث الذي يبدأ بحرف ت ، ثم الدعاء بالرحمة لكل من يدعو بالخير لهم كما دعا (عبدي) وكتب ، ثم الدعاء في السطر الرابع بالشر على من يخرب أو يمحو هذه الكتابة أو التدوين — وهذا شائع عندهم — كما جاء في ارقام (٢٩ ، ٧٤ ، ٢٣٢) في كتاب ڤاتيوني المذكور آنفا .

وكان على سفر ان يستنتج عدم كفاءة النظام القديم ، وأن يستغرب الانقطاع الواضح في الاسطر الثلاثة الاولى منه ..

وعلى أي حال ، فلولا جهود الاول ما أفلح الاخير ، ولعلنا نحن بدورنا نفلح ..

الحواشي

(١) الحضر مدينة أسست أيام الفرثيين ، كانت مزدهرة في مطلع الميلاد ، وعاصرت حضارتها انتعاش مدن تدمر والانباط . تقع في بادية جزيرة العراق ، بولاية الموصل على بعد ٧٠ كم غرب القيارة على دجلة .

(٢) * كريكمان ، ١٤٨ . ج.ت ميليك ، ر.ن ، ١٩٦٢ ، ٥٥ . ر. ديغان، ز.د.م.ج ، ١٢١، (١٩٧١) ، ١٢٥ .عقولة ،٩٧ . ف.أ. يناكيتي « حول الكتابة الارامية (٢٤) من الحضر (العراق) » ، فوليا أورينتاليا ، ١٦ ، (١٩٧٥) ، ٥٧ — ٦٤ . ف ڤاتيوني ، كتابات الحضر ، ١٩٨١ .

(٣) المدير العام للمديرية العامة للاثار ببغداد .

(٤) الرقم = الكتابة = المخطوط . رقم = كتب. القاموس المحيط ، وسنراوح بين ذكر الكتابة والرقم في المقال .

(٥) ف.أ. يناكيتي ، انظر الحاشية (٢) .

(٦) انظر الحاشية (٢) : ف.أ. يناكيتي .

(٧) في النظام القديم .

(٨) ورد برقم ٩٧ في مجموعة الكتابات المترجمة بوساطة عقولة .

(٩) المفرد بمعناه النحوي أي لا التثنية ولا الجمع .

(١٠) مجلة سومر رقم ٣٩ ، ١٩٨٣ ، ١٧٥ .

(١١) الاسماء الخمسة في العربية هي : أب ، حم، اخ ، فو ، ذو ، ويأتي تحسب موقعه في الجملة العربية بثلاثة أشكال : ذو ، ذا ، ذي .

(١٢) وفي اللغة السريانية نجد الضمير المنفصل /ديلي/ الذي يعني الملكية للمتكلم : لي = خاصتي . نجده مؤلفا من / دي+لي/ أو /دي+لك/ أو /دي + له / = لي ، لك ، له = خاصته .

(١٣) قاموس حنا ، سرياني — عربي ، بيروت ١٩٧٥ .

(١٤) القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ،مؤسسة الرسالة .

(١٥) ليذكر أو ليكن مذكورا ، والترجمة الحرفية هي : مذكور .. كما أن أداة النداء (يا) ليست من الترجمة الحرفية ، بل هي لأداء المعنى .

(١٦) اسم شخص ثالث يبدأ بحرف التاء وتألف في الرقم .

(١٧) يردد أو يكرر ، والترجمة الحرفية هي : (يقول) .

الآثـــار الســورية : الغنـى والاصــالة

دراســة ميدانيــة

د. عدنان البني
المديرية العامة للآثار والمتاحف

يقول أستاذنا الدكتور سليم عبد الحق في عنوان مقالة من مقالاته البليغة : « سورية أرض عربية تطفح بروائع الآثار » وكم كان موفقا في اختيار كلمة « تطفح ». ولا أراني أوفق لأوفي من هذا التعبير في بحثي هذا . فسورية طافحة فياضة بالآثار حقاً ، لا يُعرف عدد المواقع والاوابد فيها . وليس سراً أن خمسين عاما من التحريات الاثرية والمسوح الجوية والارضية من كل صنف ولون ، وحملات استكشافية إثر حملات ، لم تعط حتى الآن رقما ولو تقريبيا لعدد المخلفات الاثرية في أرضنا الطيبة . ويمكن القول أن هذا العدد لا يقل عن عشرة آلاف . وهو احتياطي أثري جبار ، ولكن المسجل منه قد لا يزيد على الثلث . هذا ولا شك في أن المئات من هذه المواقع والاوابد طمس ويطمس في المشاريع الخاصة والعامة ، أو لدوافع أخرى. ومن الواجب قوميا وعلميا أن تنتهي حملات التسجيل الاثري في كل المحافظات لنعرف القائم والمندرس من آثارنا . وان التطور السريع في الطرائق العلمية التي تهدف للكشف عن المواقع والاوابد المغيَّبة والغارقة ، وبخاصة الاقمار الصناعية الراصدة ، سيعجل في هذه المهمة الصعبة مستقبلا .

* * *

نردد دوما ، ويردد غيرنا أيضا أن سورية جنة الآثار والآثاريين . ونفهم من هذا عادة وفرة الآثار وانتشارها . والحقيقة أن المقصود ، مع الوفرة ، التنوع والتفرد والاصالة ، والعمق التاريخي والبعد الانساني . فوراء الغنى والتنوع تكمن عوامل كثيرة ، أولها الموقع الجغرافي الفريد لبلاد الشام ، ثم المناخ المعتدل وتنوع البيئات والمنتجات . وثمة عامل أساسي ، من قبل ومن بعد ، هو انفتاح بلاد الشام وحركتها أخذاً وعطاءً منذ أقدم العصور وتقبلها الموجات والتيارات ، وانسياح انسانها شرقا وغربا ، كانت سورية ، منذ فجر التاريخ ، تتلقى موجات الجنس العربي ، هذا الجنس النشيط القوي الحاد الذكاء ، وهو الذي رسّخ فيها الكتلة السكانية الاصلية منذ الالف الرابع ق.م على الاقل ، وفقا لمعطيات علم الآثار الحديث . ولما كان هذا الجنس يتصف بقابلية فائقة على التفاعل مع الآخرين ، واتساع الافق والتسامح ، فقد أخذ وأعطى حضاريا وسياسيا واقتصاديا ، واتصل بالعالم القديم كله ، وكون في بلاد الشام

حضارة لها في كل وقت صفات أصيلة ومبتكرة لم يزل تأثيرها واضحا من الاندلس حتى طشقند . واحتكت هذه البلاد بتيارات بشرية جانبية ، عن طريق التجارة أو الهجرة أو الحرب ، وكان لوجودها ، القصير أو الطويل نسبيا ، أثر في تكوين حضارة متينة أصلا كانت تغزو الغازي ، وفي اكتشاف المدنيات الوافدة اليها ذاتها مرة أخرى في ربوعها . وقد انطلق أبناء سورية الى العالم حكاما وفلاسفة وفنانين وبنائين وعباقرة من كل نوع يسهمون في بناء الفكر الانساني العالمي في مواطنه الاصلية ، وكان لذلك كله انعكاس على آثار سورية ، ونورد في هذا الصدد قولا للاستاذ بول كولار الذي كان رئيسا للاكاديمية السويسرية في روما وأمين السر العام للرابطة الدولية للآثار الكلاسيكية وهي أقوى تجمع للآثاريين في العالم :

« تبدو لنا سورية منذ أقدم العصور أرض تلاق بين الحضارات ، وان غناها بالاوابد الاثرية لهو الدليل الواضح على تاريخها العريق . ولا يوجد مكان آخر في العالم تتجلى فيه آثار الماضي يمثل هذا التنوع المرتبط بمثل هذا الاستمرار »(١) .

وأقول ببساطة ان دور سورية يقوم على اسهامها البارز في قصة الحضارة العربية والانسانية ، واننا لنعرف من آثارها القائمة على تربتها أو المنتشرة على رقعة العالم القديم ، أنها أبدعت فنا وعمارة وصناعة على جانب كبير من الاصالة والدقة ، وقامت بالوصل حضاريا وانسانيا بين أجزاء العالم القديم ، فربطت الرافدين والاناضول بوادي النيل وبحر ايجه والبحر المتوسط ، منذ الالف الثالث ق.م ، أو قبل ذلك في رأي بعض الباحثين ، ونقلت نتائج الفكر والابداع عن طريق الابجدية ، أنبل مبتكرات الفكر البشري ، ومنها انتشرت اللغة والكتابة الآرامية الى الهند وأقاصي مصر الجنوبية وسادت عالم التجارة والعلاقات الدولية ما يزيد على ألف عام .

* * *

ان أحداث التاريخ القديم في سورية ترمم حاليا بعشرات الاكتشافات الخارقة للعادة ، من « أوغاريت » الى « ماري » الى « سميرا » الى « إبلا » الى « بئروتي » الى « شوبات إنليل » الى « دور كتليمو » الى « تائيدو » الى « إيكالتي » الى « زلفا » و «توتول» . وسأختار بعضا من معلوم الآثار السورية ومجهولها وأضع بعض الاضواء على جماليات وخصوصيات العمارة والفن الاثريين في مختارات من المبدعات القائمة على الارض العربية السورية حصرا .. ولن أتطرق الى أقدم وأول إناء فخاري في المريبط على الفرات منذ عشرة آلاف عام ولا الى تخطيط مستوطنة بقرص وصناعتها الحجرية البالغة الروعة منذ تسعة آلاف عام ، وأول المبدعات التشكيلية في هذه المواقع وفي مواقع متعددة أخرى حول دمشق ، ولا الى روائع المنتجات الخزفية والعاجية والخشبية عبر العصور .. سأصطفي .. وأقطف من كل بستان زهرة وأعرض منتخبات من عمائر في مواقع معلومة وأخرى مجهولة أو شبه مجهولة .

في الالف الثالث يبدأ الزمن المعرف في المصطلح الاثري باسم عصر البرونز القديم، وفيه بداية تشكل البنى الثقافية والدينية والسياسية المتطورة نسبيا في بلاد الشام التي عرفت، في تلك الفترة، انتشار العديد من المستقرات المدنية (المدن). لقد حدث آنذاك ما يسمى بحضارة المدن أو التطور المديني. بدأ هذا التشكل في النصف الاول من الالف الثالث ونضج نضوجا فائقا خلال نصفه الثاني فأفرز ممالك مدن باهرة في مواقع دمشق وحلب وحماة والمشرفة ورأس الشمرة وتل النبي مند وتل مرديخ وتل الكزل وتل عطشانة وتل براك وتل العشارة وتل ليلان الخ .. وذلك، فضلا عن المواقع القائمة الآن في لبنان مثل جبيل وكمودي، وفي الارض المحتلة مثل أريحا ومجدو، وغير ذلك مما يخرج عن نطاق هذا البحث.

هذه المراكز المدينية (أو المدن اختصارا) اتصفت بالاتساع، وبعضها، في مناطق البناء باللبن، بلغت مساحته خمسين هكتارا وبعضها أكثر من ذلك، كما كان من مميزاتها بناء الاسوار المنيعة وتطور أنماط الانتاج الفني والسلعي وازدهار صناعة المعادن وترقي الكتابة وتعاطي التجارة الاقليمية والدولية ... وأهم من ذلك، أو بنتيجة ذلك، امتلاك تلك المدن للادارة السياسية المنظمة والوصول الى مستوى معين من الحكم والحكام يضفي عليها مظاهر دولة لها سلالات وسجلات ومراسلات ويتضح فيها الاختصاص بين القصر والمعبد بشكل كاف.

* * *

ان **إبلا** هي احدى تلك المدائن السورية التي اتسعت وازدهرت في فترة الحضارة المدينية ... وقد دُبّجت حولها مئات، بل ربما ألوف وعشرات الالوف من الصفحات هنا وفي الخارج، وأدلى كثيرون دلوهم في بئرها، فلا حاجة لتكرار ما ذُكر عنها، لنقل باختصار ان قوة إبلا كانت مستمدة من حيوية اقتصادها، وكان تجارها يجوبون الآفاق ويعملون في تجارة اللازورد والاخشاب والاصواف، وكان ملوكها يتبادلون الهدايا مع ملوك مصر، وكانت تصنع النسيج الجميل والخشب المنزّل والاثاث وتعالج المعادن المستوردة وتبدع في صناعة الحلي، وتزرع، وتربي القطعان. كانت مزدهرة في كل المقاييس. أما قصرها الملكي فقد تركزت فيه أكثر الميزات التي أتينا على ذكرها وسنحدد مهمتنا في عمارته التي هي نمط سوري متقدم من العمائر (٢).

في موقع إبلا رابية طبيعية أقيم عليها في الربع الثالث من الالف الثالث ق.م قصر منيف يعرف باسم القصر G ويختلف في مفهومه المعماري، وفي تصميمه وانشائه وزخرفته، عن المعروف آنئذ في بلاد الرافدين مثلا. وان التنقيب شمل حتى الآن حوالي ثلاثة آلاف متر مربع من القسم المتبقي من هذا القصر الواسع الامتداد. ونقول القسم المتبقي لأن الائتكال في منحدر رابية الاكروبول (الحي الحالي) قد ازال الى الابد الاجزاء الغربية من القصر بما في ذلك الجانب الادنى من الباحة الرئيسية المعروفة

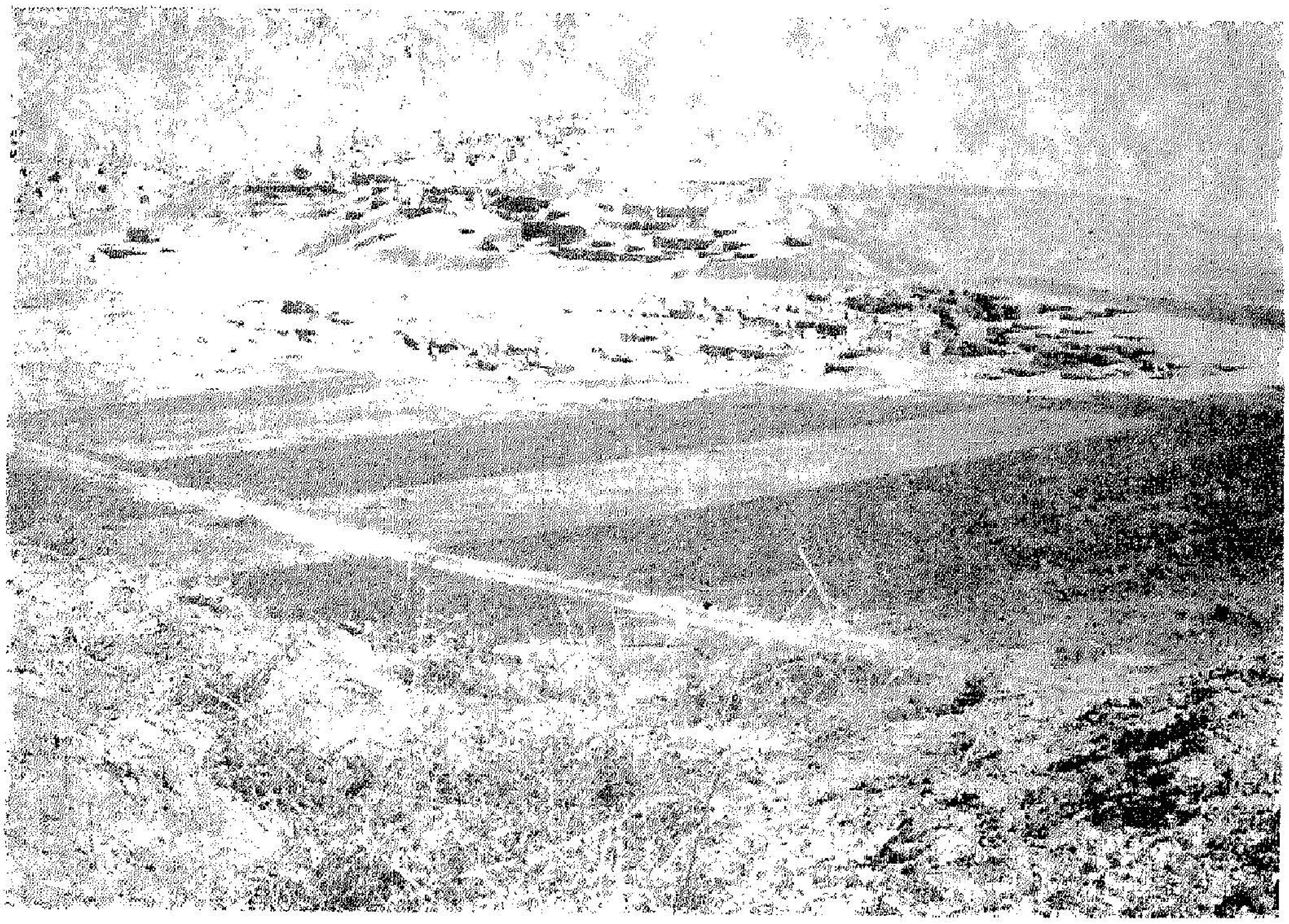

منظر عـام لتل مرديـخ (ابـلا)

باسم باحة الاستقبال الملكية ، كما أن الاقسام الشرقية من القصر كانت مغيبة تحت ركام السويات الاثرية الاحدث عهدا . وقد باشرت البعثة الايطالية في العام الماضي التنقيب في هذا القسم في قمة الاكروبول فوقعت على قسم جديد كان مكرسا لاعداد الولائم الملكية ومعالجة الحبوب والزيتون .

ان أحدث الدراسات التي جرت حول هذا القصر توضح أنه تكون نتيجة تلاحم تم ، خلال مدة من الزمن ، لأجنحة وأجزاء مختلفة المهمات ، انضافت الى نواة أو عدة نويات سابقة ، نظر بعين الاعتبار في تصميمها الى الوضع الطبيعي لمنحدر الرابية الجنوبي الغربي . وعند انتهاء هذا المجمع أصبحت له ثلاثة أدراج تؤمن الاتصال مع أجزاء القصر في السويات الاعلى : في الجنوب درج البوابة الكبرى المؤدي للقطاع الاداري حيث وجدت المحفوظات الملكية ، وفي الوسط درج الشرف الذي كان مجهزا بالاخشاب المنزلة بالصدف وهو يقوم في صدر باحة الاستقبال ويدور داخل برج حصين مؤديا الى الشقق الخاصة ، ويبدو أن الملك كان يستخدمه في مناسبات الاستقبال العامة . اضافة الى درج ثالث صغير في الشمال .

ان الدرج الذي سميناه درج الشرف ينطلق من صدر باحة أو ساحة يبلغ سمك جدرانها نحو ٣ أمتار معدة لاستقبالات الملك أو المراسم بشكل عام . طولها نحو خمسين مترا ، وهي مظللة بالاروقة المحمولة على عمد خشبية ضخمة . وتحت الرواق الشمالي تقوم منصة كان فوقها كرسي العرش .

في رأي البعثة المنقبة ، يلاحظ أن القصر اجمالا ، وبخاصة باحة الاستقبال ، تغلب فيه الناحية العمرانية على الناحية المعمارية . ان وضع هذا القصر وبالتالي هذه الباحة على مشارف المدينة التي تحتها . يؤمن الربط بين الحي الرسمي والمباني الادارية والسكن الرسمي وأحياء المدينة في السهل . وفي ذلك مفهوم مغاير لما في الرافدين حيث يكون القصر مجمّعا اداريا وسكنيا مستقلا يقوم على تخطيط مسطح يكرر أقسام القصر حول باحة مركزية .

وبعد قضاء الملك الاكادي نرمسين حوالي ٢٢٥٠ ق.م على قوة إبلا العسكرية والسياسية ، سكتت الاخبار عن هذه المدينة حتى وجدناها في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد تنبعث على يد سلالة أمورية جديدة تتصرف بفعالية اقتصادية فائقة وتصل علاقاتها حتى مصر ، الامر الذي تدل عليه المكتشفات الهامة العائدة لذلك الزمن ومنها المنشآت الضخمة الجديدة . وفي مقدمتها قصر جديد رحيب يعرف عادة باسم القصر الغربي (قصر Q) أو قصر ولي العهد مؤرخ بين ٢٠٠٠/١٩٠٠ ق.م . وقد تم التنقيب في هذا القصر بشكل كامل واتضح أن مساحته نحو ثمانية آلاف متر مربع ، وأقصى طول له ١١٥م وعرضه بين ٦٠ — ٧٥م . ولما كان هذا القصر محفوظا بكامل تفصيلاته ولو على مستوى الاساسات أو المداميك الاولى ، فقد اتضح أن تخطيطه يقوم على تجمع وحدات سكنية أو كتل معمارية منتظمة منفصلة عن بعضها لكنها متصلة وظيفيا ، وهو بذلك يختلف عن القصور الرافدية المعاصرة التي تتألف من وحدات سكنية أصغر تتجمع حول باحة مركزية . ومن الخصائص التي يتصف بها هذا القصر الانتظام الثابت للغرف وتعامدها مع الباحات ومع الجدار الخارجي للمنشأة ، في حين تتوازى الغرف في القصور الرافدية مع ضلع الباحة ومع الجدار الخارجي في وقت واحد . كما أن حركة التنقل داخل القصر مختلفة ، اذ نرى أن المداخل المفتوحة في جانبي كل باحة من باحات الوحدات السكنية تسهل نوعا من الدوران الدائم في كافة أرجاء القصر . وتحت هذا القصر وجدت مدافن ملكية من ١٨٠٠/١٦٠٠ ق.م أوضحت المكانة السامية التي بلغها فن الصياغة الابلية تلك الايام . وثمة قصر شمالي من الفترة الامورية نفسها يعرف باسم القصر الشمالي (أو قصر P) وهو في رأي بعثة التنقيب مركز مكرس للاحتفالات الملكية ، وبقربه معبد للرب حدد يعد الانأكبر وأقدم معبد سوري من النوع الوحيد الحجرة . وقد وُجدت في القصر وفي المعبد منحوتات بازلتية تمثل

أربابا وحكاما وتعد فتحا في تاريخ النحت القديم ، لكننا لا نريد الخوض في أمرها قبل أن تنشرها البعثة النشر العلمي المرتقب .

* * *

ومن معالم الالف الاول قبل الميلاد آبدة سورية فريدة تكوّن حلقة بين المعروف من معابد الالف الثاني قبل الميلاد ، والمعابد ذات الطراز الكلاسيكي اليوناني الروماني التي أخذت تنتشر في بلادنا بدءا من العصر الهيلينستي . وهي معبد آرامي من القرن الثامن قبل الميلاد يتسنم **تل عين دارا ،** (٣) في موقع مهيب في نطاق مملكة أرباد لا نعرف اسمه القديم ، قائم على الضفة اليسرى لنهر عفرين في بقعة جميلة ومنتزه شهير يقصده الحلبيون .

ان تل عين دارا مشكل من عدد من السويات الاثرية ، يعود المعبد للسوية السادسة منها . وهو مشيد في معظمه بالحجر البازلتي ، ومخططه على شكل مستطيل طوله ٣٨ مترا وعرضه ٣٢ م موجه بزاوياه ، وليس بجدرانه ، الى الجهات الاربع ، يقوم على مصطبة ارتفاعها متران مزينة بنقوش بارزة تمثل سباعاً وأشكال أبي الهول . ويكتنف حرم المعبد رواق يحيط بثلاث جهات ، عرضه أربعة أمتار من

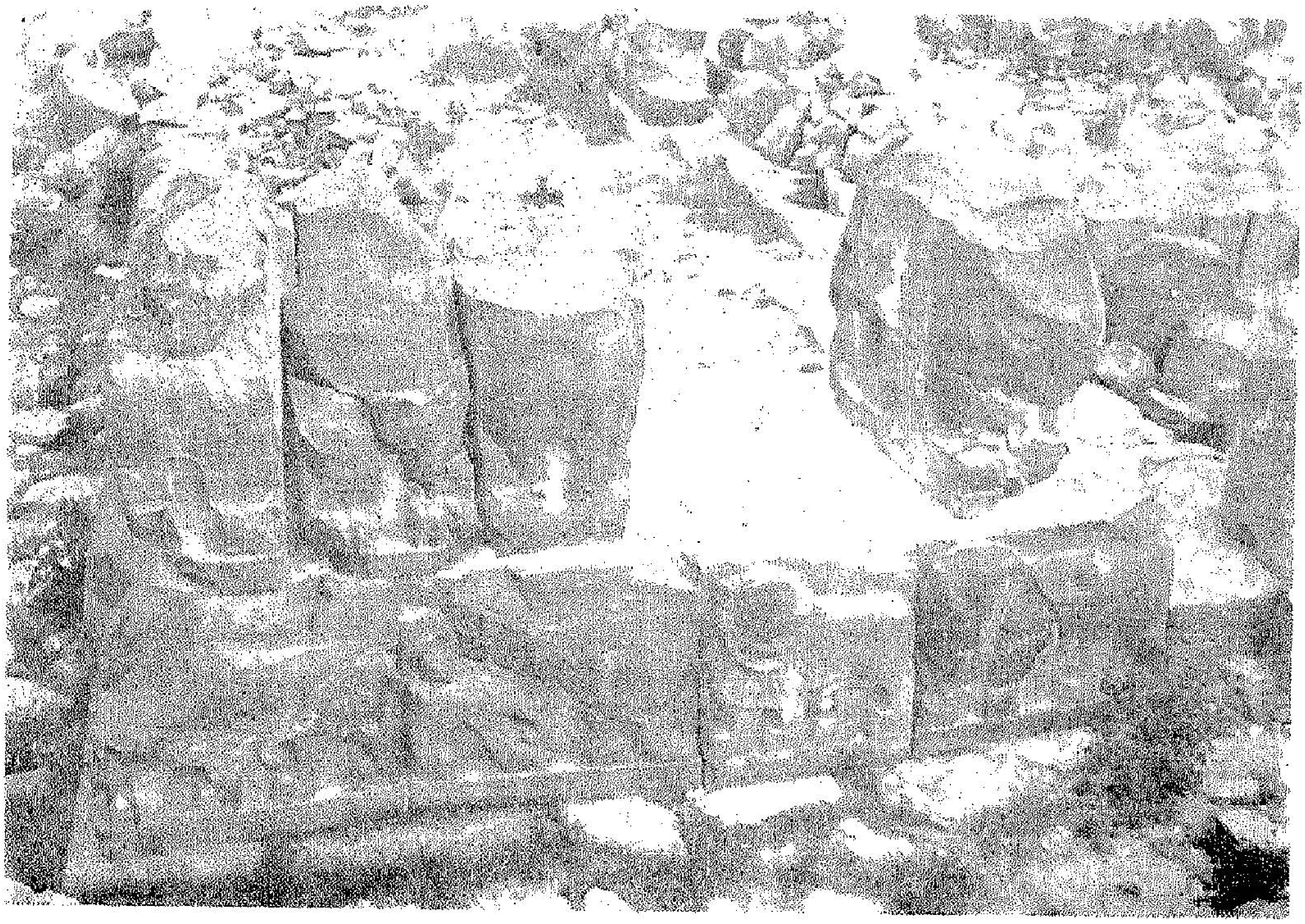

مدخل معبد عين دارا

الجانبين وثلاثة من الخلف . يدخل الى المعبد بممر في الجنوب الغربي تحرسه منحوتات السباع ، له عتبتان على الاولى نُحت شكل قدمين كبيرتين ، وعلى الثانية نُحت شكل قدم أخرى . يفضي المدخل الى ردهة (١٦×٧م) زينت جدرانها بمنحوتات ضخمة بينها أشكال ارباب ، ثم عتبة نحت فيها شكل قدم يمنى وهي حتما القدم الذي يجب أن يتقدم بها الداخل الى هذا المكان ، فاذا دخل للتعبد ولتقديم القربان انفتح أمامه حرم (١٦٫٥×٢١م) في صدره ما يعرف عادة بقدس الاقداس (وهو بيت الصنم أو الاصنام) وفي صدره قواعد حجرية مزوقة بأشكال تمثل أرباب الجبال . وكان هناك على الراجح صنمان للربين حدد وعشترة . ان هذا الشكل من المعابد ذات الشكل المستطيل والمدخل المحوري (المعروفة باسم المعابد السورية) تقاليدها قديمة في بلادنا، وشكلها ظل متبعا تقريبا حتى آخر عهود الوثنية على الاقل .

* * *

عمريت (أو **أمريد** في اللفظ المحلي) اسم كنعاني يرجح أنه مشتق من العمار ، يطلق على موقع في حدود نحو خمسة كيلومترات الى الجنوب من مركز مدينة طرطوس تنتشر فيه أبنية أثرية وأوابد عديدة تتوزع على طرفي نهر صغير يعرف باسم نهر

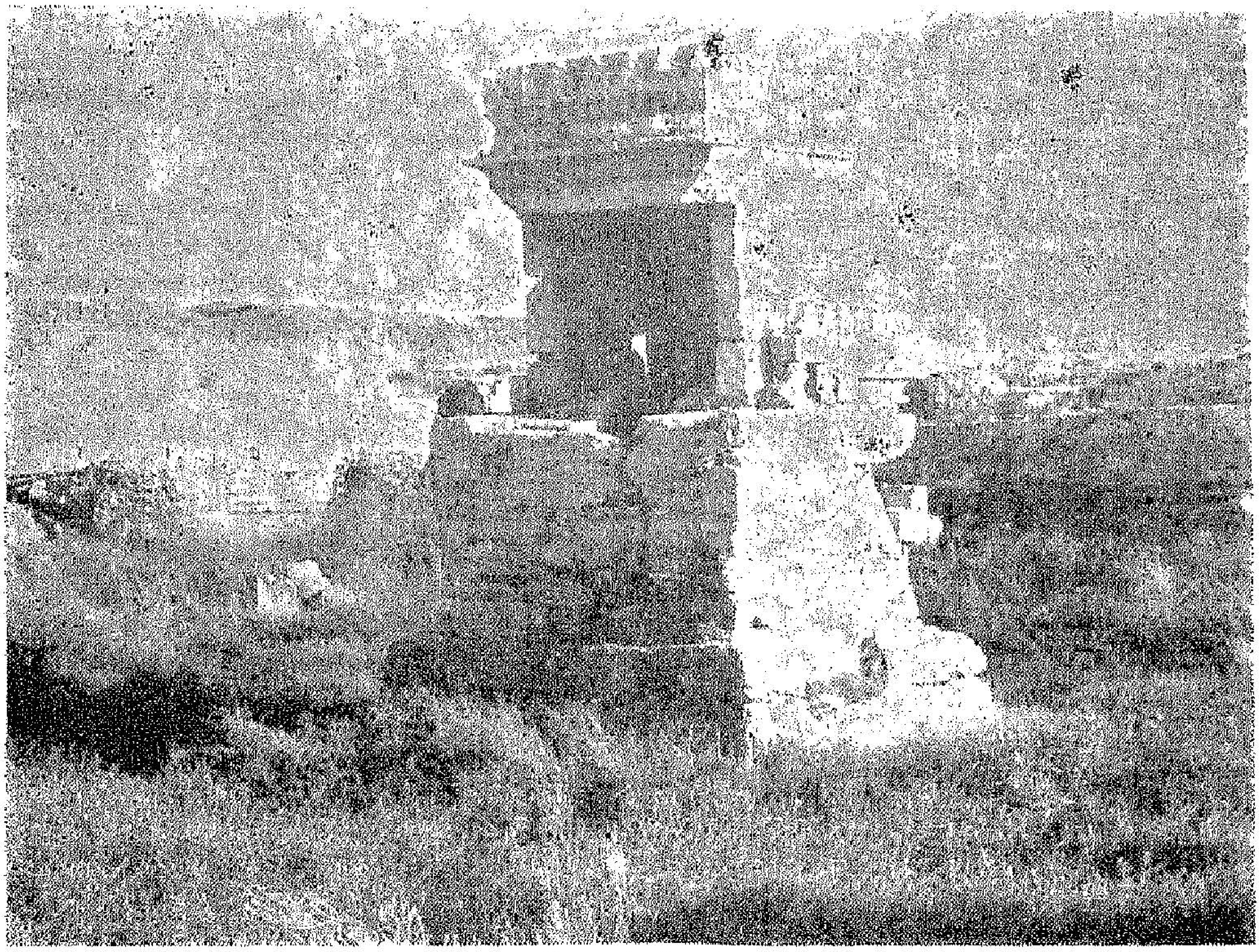

معبد عمريت

عمريت . عرفت عمريت أيام السلوقيين والرومان باسم « ماراتوس » . وهي تعود للألف الثاني ق.م على الاقل . لكن أزهر أيامها كانت في الالف الاول وبخاصة في القرن الخامس ق.م حين كانت في يد الاروادين . سقطت عمريت في يد الاسكندر والسلوقيين ،ومرت أيام حتى عاد اليها الاروادیون بعد استقلال أرواد في٢٥٩ق.م(٤).

لن نتحدث عن مدافن عمريت الباذخة الفريدة ولا عن ميدانها الشهير ، بل سنتناول معبدها المكرس لرب الشفاء ، وهو معبد ينفرد عن كل معابد الشرق والغرب ببحيرته المقدسة التي ليس ثمة ما يماثلها الا في معبد منبج .

يعود معبد عمريت في وضعه الراهن تقديرا للقرن الخامس ق.م. وهو محفور في الصخر على شكل حوض طوله ٤٨ مترا وعرضه نحو ٣٨ ، وعمقه ٣ أمتار تتوسطه كتلة صخرية فيها بيت أو هيكل المعبود ، ترتفع عن أرض الحوض نحو خمسة أمتار ونصف المتر . والهيكل كنعاني الطراز مزين بشراريف صماء ، وحول الحوض ممر عريض كالرصيف محفوظ على ثلاث جهات كان فوقه رواق محمول على دعمات مستطيلة المقطع ، وفي الجهة الشمالية كان المذبح .

أقيم هذا المعبد على نبع يتدفق من الصخر ، وهو حاليا على شكل كهف في الجهة الشرقية ، يمتد منه على الجدار الجنوبي قناة في الجدار مهيئة للتطهير . وأخرى تمتد في أرض الرواق كانت معدة للسقاية . وكان في الحوض على ما نظن ، سمك مقدس على الغالب ، ويغترف طالبو الشفاء من البحيرة ماءها المقدس بأباريق لها مصاف حتى لا يتسرب اليها السمك .

* * *

ولا بد ، ونحن في صدد غنى آثارنا وأصالتها ، من الحج الى واحة تدمر . ولن يكون مستحبا أن نكرر السرد المألوف عنها وعن تاريخها وبهاء مليكتها الذي يخلب الابصار ، لذلك نقتصر على بعض من خصائصها وبديع منجزاتها في الفن والعمارة .

ابتكرت تدمر فنا تشكيليا خاصا بها ، له طابعه ، فيه مبدعون ومقلدون ، لا يمكن ان تلتبس هوية منجزاته على أحد . والنحت التدمري يروي قصة كل يوم في حياة تدمر ، صلوات وأحزانا ، وصيدا وقافلة ورجال قوافل ، وكهنة وهجانة ورماة وفتيانا وفتيات وعرائس وأطفالا ، وروائع زينة وزي ومجوهرات يضرب بها المثل .. الخ . أبدعت تدمر عمارة دفنية فريدة في العالم ، في شكل المدفن البرج الذي كان حلا عقلانيا ومعماريا موفقا لمشكلة تشغل بال المدائن القديمة والحديثة . واذا كان علينا أن نقدم شيئا عن تدمر في بحثنا هذا فمن المناسب أن نصل الى قمة ابداعها وهو معبدها الكبير ومجمع أربابها الذي بني هيكله في ٦ نيسان ٣٢ للميلاد من قبل لشمش بن تيبول بن

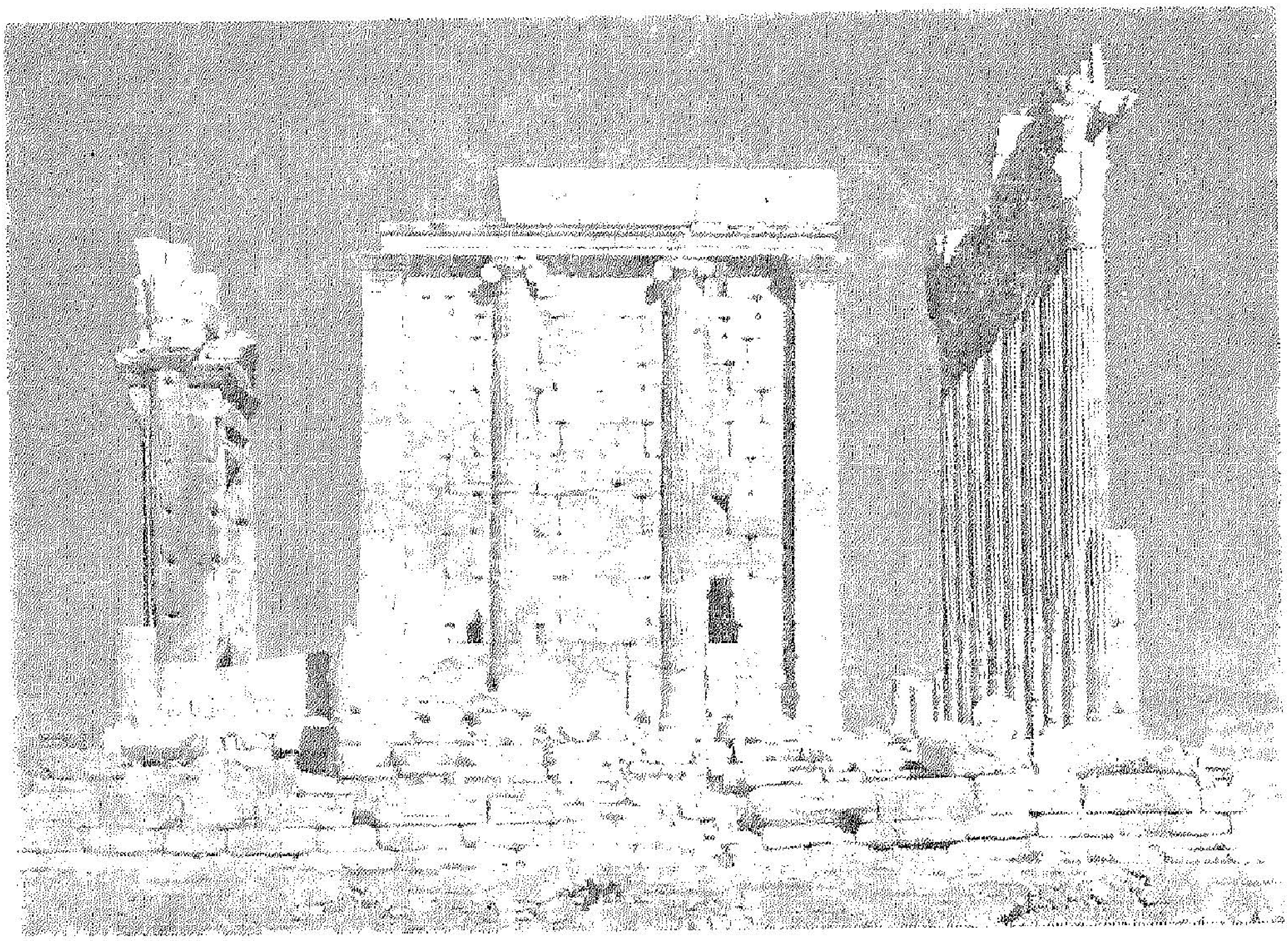

الهيكل المركزي لمعبد بل في تدمر

شكيبل من بني كمرا(٥) ، واتسعت رقعته مع الزمن حتى قيل ان أربعين (بارتينونا) تضيع فيه فهو واحد من أوسع معابد الشرق والغرب ، ويقوم على ركام أثري تشكل منذ الالف الثالث ق.م على الاقل .

في بواباته وأوأسواره وأروقته وباحته الرحيبة ، وكل تفاصيله الزخرفية ، سما معبد بل عن المألوف كماً وكيفاً وحقق ريازة متفردة واعجازا ، وفي هيكله المركزي تألق وجمع أجمل ما في الشرق والغرب فأخذ الصيغة اليونانية في بناء الهيكل المكتنف بالاعمدة ، ومن العمارة المصرية تخير شكل البوابة الصرحية ، ووفق التقاليد السورية أقام حجرة الصنم والبرجين على جانبيها ، ومن البابليين جاءه المدخل الجانبي ، ومن الهنود والفرثيين أخذ بعض عناصر الزينة ، لكن أكثر أشرطته الزينية ونقوشه البارزة كان تدمريا خالصا اقتبس من البيئة المحلية ومثل مراسم عبادته وايمانه . وهذه المحصلة المتوازية كانت وما زالت تبهر الزائرين .

* * *

في الجبال الجميلة قريبا من صافيتا ودريكيش كان يقوم المعبد المعروف باسم **حصن سليمان** . كان هذا المعبد ، في الاصل ، معبداً كنعانيا من معابد القمم الجبلية

في اقليم أرواد ، وهو يبعد عن الساحل نحو ٣٠ كم . وليس لدينا حاليا ما يشير الى الزمن الذي بدأ فيه الحج اليه ، لكن من البدهي أنه ، بسبب موقعه ، كان مكرسا لعبادة الرب بعل الكنعاني المولج بالصواعق والمطر والخصب . على أننا نعرف من النصوص أنه كان قائما زمن السلوقيين (٣١٢-٦٣ق.م) ومنسوبا لزوس وهو الرب اليوناني المقابل لبعل ولبعل شمسين (رب السموات)(٦) . وكان المعبد يتبع آنئذ اتحاد المدن الاروادية السبع ذات الحكم الذاتي ، وله امتيازات وسوق تعقد مرتين في الشهر واحتفالات دينية ومواسم ، ويتمتع بحق إلجاء العائذين به . وقد وقفت عليه قرية بيتوخيخي (بيت الخوخة) المجاورة .

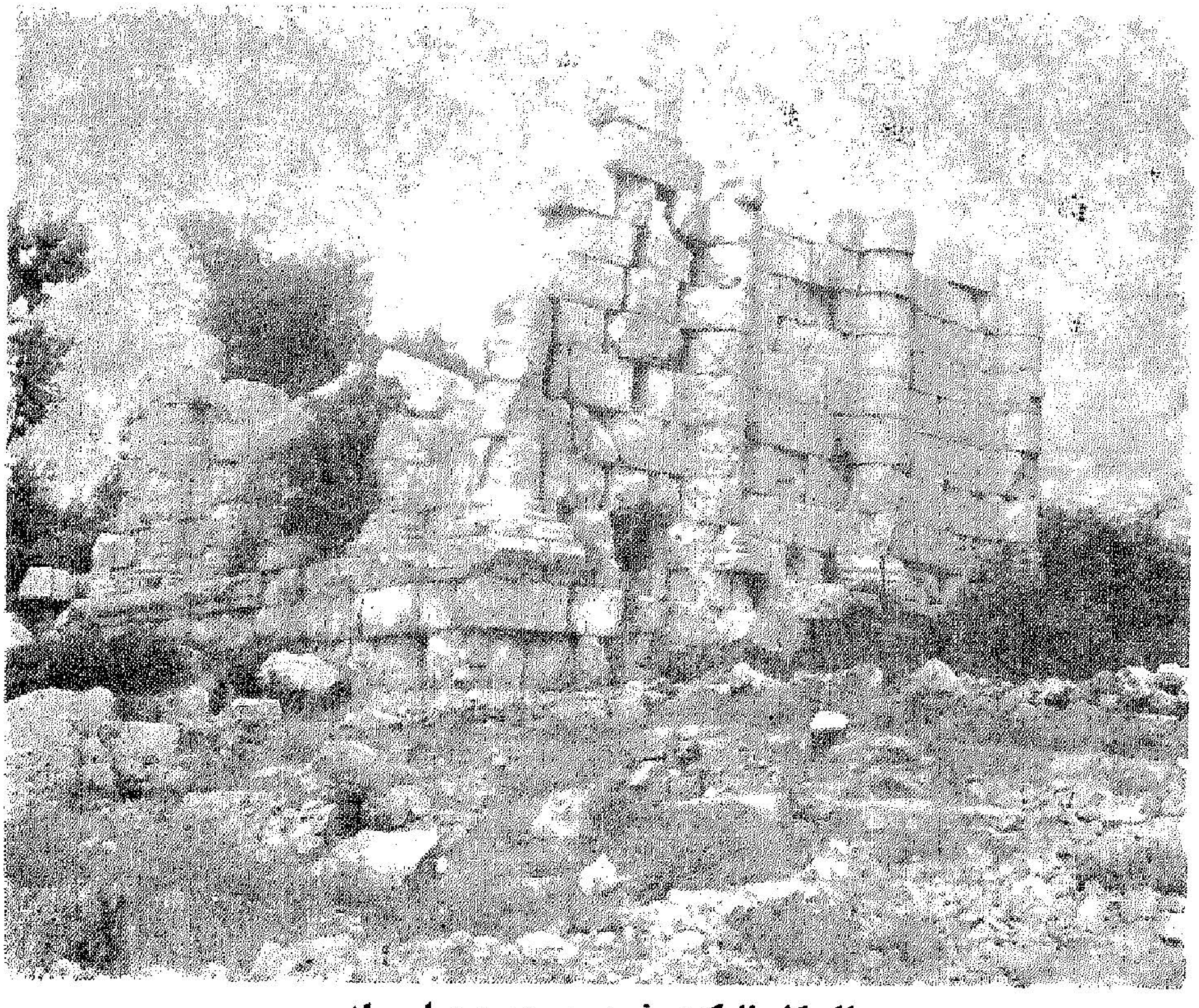

الهيكل المركزي في معبد حصن سليمان

من هذه الفترة لا نرى الا القليل ، فالمعبد الحالي يعود الى نهاية القرن الثاني ، أو الثالث الميلادي (زمن السلالة السيفيرية ـ البرقاوية السورية التي بدأت في ١٩٣ وانتهت في ٢٣٩م)(٧) . وقد شيّد هيكله المركزي على منصة عالية وزوّد بدرج عريض يتألف من ٣٩ درجة بينها سطيحتان تحملان المذابح ، وضوعفت جدران حجرته الاصلية بأنصاف أعمدة وفق الاسلوب المشبّة بالممدّ ، وذلك شكل روماني شاع في عالم البحر المتوسط ليناسب الذوق الرائج وقت تجديد المعبد . لكن الباحة الرحيبة

المحيطة بالهيكل بطول ١٣٤ مترا وعرض ٨٥، والمعدة لمواكب الطواف ، ظلت أمينة على على التقاليد الكنعانية السورية ، وكذلك الاسوار المشيدة بحجارة ضخمة يصل طول بعضها الى عشرة امتار بسمك مترين ونصف .

ويرجح ان الذين قاموا على اعادة تشييد المعبد كانوا جماعة من سراة المنطقة يقومون على سدانة المعبد وتضمهم جمعية اخوية خاصة بهم(٨) .

ان معبد « حصن سليمان » هو أكثر المعابد السورية القديمة سلامة بعد معبد جوبيتر في بعلبك ومعبد بل في تدمر ، واذا كان معبد بعلبك معبدا أشرف على تحسينه الاباطرة الرومان فان معبد بيتوخيخي هو من صنع المواطنين .

* * *

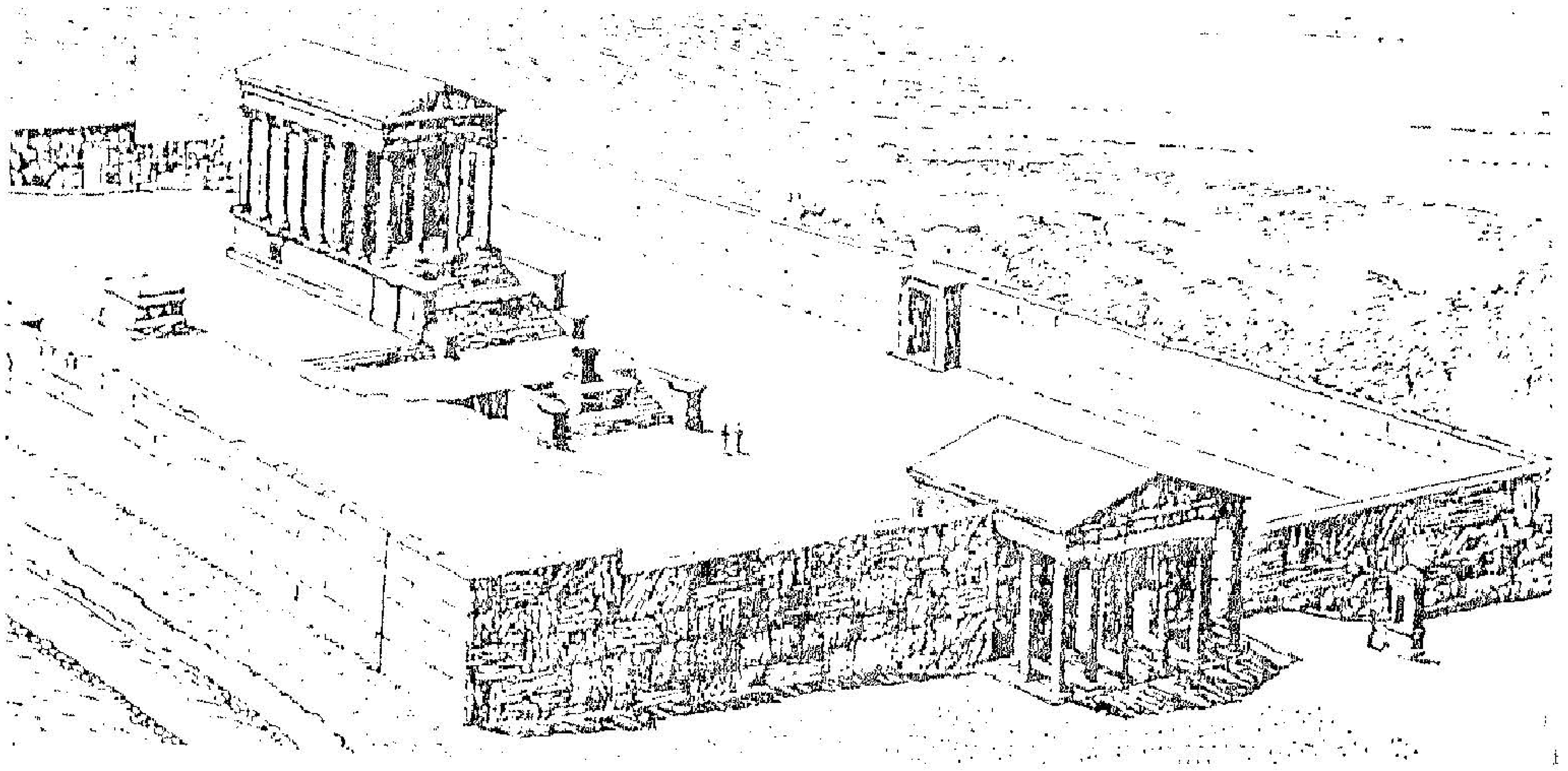

منظر تخيلي لمعبد حصن سليمان (من وضع المهندس هانش)

في الشمال الغربي من سورية تمتد ، في محافظتي حلب وادلب ، سلسلة جبلية يسميها الغربيون الكتلة الكلسية (ولا نعرف سبب هذه التسمية فمعظم جبال سورية كلسية) وتضم جبال سمعان والاعلى وباريشا والوسطاني والزاوية ، وفيها أكثر من سبعمائة موقع اثري تعود للعصر الروماني والبيزنطي ، ومطالع العصر العربي الاسلامي في سورية (أواخر القرن الاول حتى الثامن للميلاد) كانت هذه المواقع تعرف باسم « المدن الميتة » وفي الحقيقة انها لم تكن مدنا بل بلدان صغيرة وقرى بادت تاركة معالم وأوابد كثيرة . وفي احصاء قام به جورج تات وفريقه بقي من هذه البلدات والقرى نحو ستين محتفظة بمنازلها القديمة ونواديها ومعابدها وكنائسها وأديرتها وحماماتها وقبورها(٩) ، وهي تشكل تراثا رائعا أقامه مواطنون سوريون على أحسن ما يكون من

الاتقان والجمال والزخرفة في بيئة قليلة المطر كثيرة الحجارة ، وأنشأوا مدرجاتها الزراعية وورووها بالصهاريج الممتلئة بماء المطر . لقد بنوا كل المنازل والمنشآت المدنية والدينية بلا استثناء تقريبا بالحجر النحيت المتين الجميل ، المتماسك بلا اية مونة، الذي اكتسب مع الزمن لونا ورديا أو برونزيا مذهبا يروق في العين ويخلب النفس. ويغلب على هذه البني والمنشآت البساطة مع الانسجام والتساوق ، وتنتصب روائع من الفن السوري لا يدانها فن معاصر في الشرق والغرب . وفي مقدمة هذه الروائع مجمع **كنيسة القديس سمعان العمودي** .

تقع كنيسة القديس سمعان العمودي المعروفة حاليا باسم **قلعة سمعان** في الجبل المعروفة بهذا الاسم والمطل على سهل عفرين الى الشمال الغربي من حلب قرب بلدة دارة عزّة على طريق عفرين ، وبقربها القرية المعروفة باسم دير سمعان واسمها القديم تياذنيسوس ، وتربطها بالقلعة طريق مقدسة .

كان القديس سمعان بالاصل راهبا من أسرة رعاة بسطاء يؤمن الناس بكراماته وينسبون له بعض المعجزات ، وقد عاش على عمود كان يزيد في ارتفاعه حتى بلغ أربعين ذراعا (٢١ مترا) وقلده في ذلك عموديون كثيرون . ويقال انه عاش ٣٩ عاما على العمود حتى توفي في٤٥٩ أو ٤٦٠م ، ونقلت رفاته الى انطاكية بالقوة ثم الى جوار القسطنطينية .

بنيت على ذكرى القديس سمعان أشهر كنائس سورية بل كنائس الشرق في زمن الامبراطورين ليون وزينون على يد معماريين سوريين . وانتهى العمل في هذه الكنيسة عام ١٤٩٠ أو ١٤٩١ وكان تصميمها على شكل صليب يتوسطه مثمَّن ، كانت له في الراجح قبة ضخمة من الخشب . والمثمن يحف بالعمود أو بقايا العمود الذي كان يعيش فوقه القديس سمعان . وأضلاع الصليب الاربعة هي في الواقع اربع كنائس بازيليكية ، كل منها بثلاثة أجنحة . وفي صدر الكنيسة الشرقية منها ثلاث حنيات . تطور مجمّع الكنيسة مع الزمن وأحيط بسور في القرن السادس وأصبحت مساحة منشآته نحو ١٢ ألف متر مربع ، منها معمودية أماكن للرهبان وفنادق للحجاج المتوافدين من كل بلاد العالم القديم حتى من فرنسا وانكلترا ، ومنها فندق أقامه حجارو تل عقبرين، وتربط بين كل هذه المباني طريق مقدسة. وعند احتلال البيزنطيين للمكان مرة أخرى في القرن العاشر جعلوه بمثابة قلعة دعموها بسبعة وعشرين برجا ، وقد ركز عليها الحمدانيون جهدهم حتى استعادوها(١٠) .

ومن اللافت للنظر في عمارة الكنيسة المصلّبة أو الكنائس المتصالبة ، وفي كل هذا المجمع الكنسي ، صفاء الخطوط وتساوق العناصر وتناغمها وأناقتها ولطافة الزخارف المذهبة التي تدور بالابواب والنوافذ والاقواس والسواكف كأنها حواش

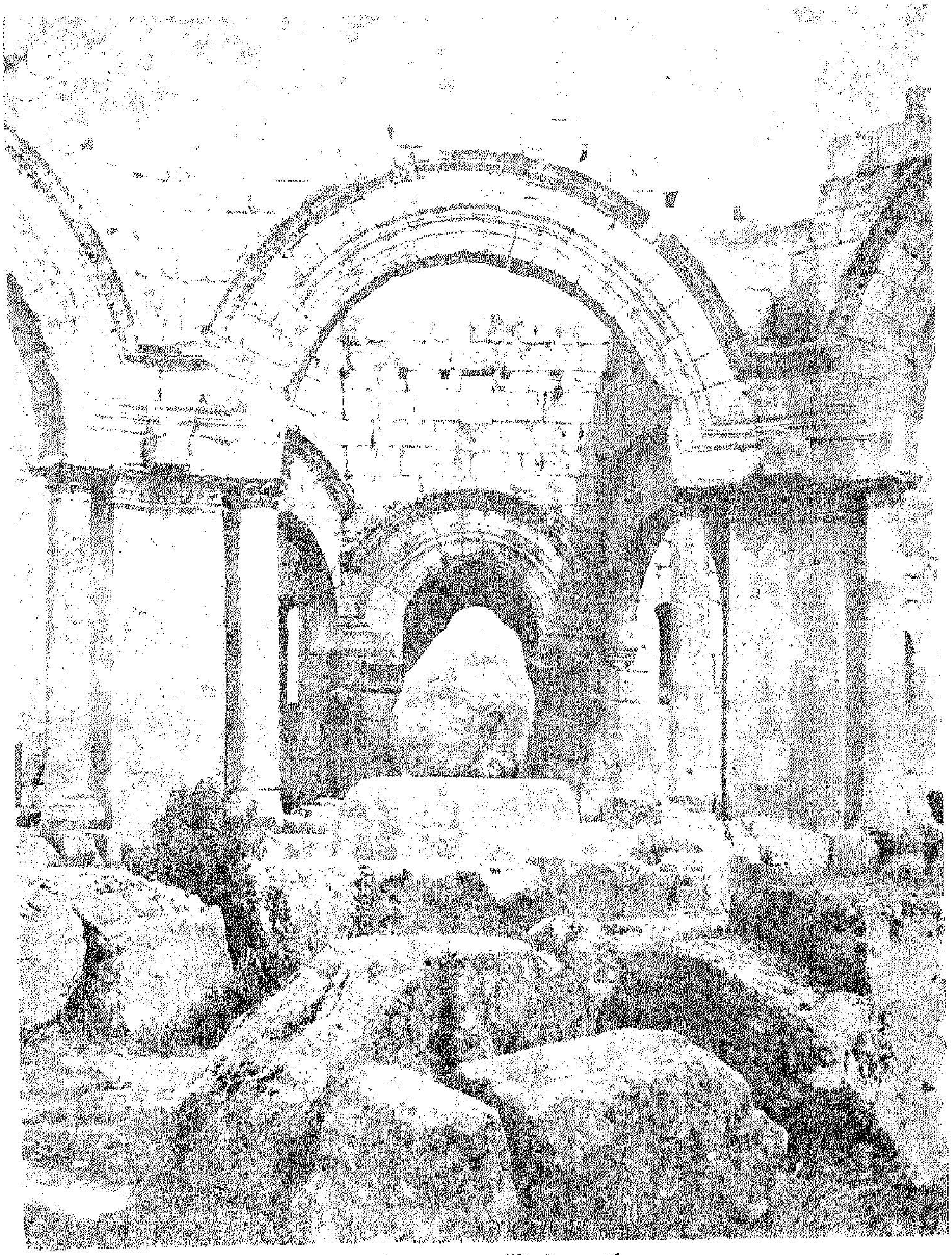

كنيسة القديس سمعان

مطرزة . والتيجان تميل أوراقها كأنها ترتعش في هبوب الريح . ان هذا الاسلوب السوري رومانسي يسبق الطراز الرومانسي في أوربا بستمائة عام .. ويقول هورست كلنغل انها أجمل العمائر المسيحية في بلدان المشرق على الاطلاق(١١) .

واذا كانت كنيسة سمعان هي جوهرة الكنائس الاحتفالية الضخمة فان لؤلؤة الكنائس القروية هي ولا شك **كنيسة قلب اللوزة** ، وقلب اللوزة قرية بسيطة قائمة على ذروة من ذرى الجبل الاعلى . الطريق اليها يتفرع من طريق حلب ـ انطاكية غير بعيد عن نقطة الحدود في باب الهوا . تنفرد كنيسة قلب اللوزة ، التي يرجعها جورج شالنكو لمنتصف القرن الخامس الميلادي(١٢) ، بأصالة تصميمها ، فالجناح الرئيسي ، أي الاوسط ، في هذه الكنيسة ذات الطراز البازيليكي لا يقوم على أعمدة بل على دعائم متينة ضخمة تحمل أقواسا واسعة المدى ، تؤمن اندماج الجناحين الجانبيين بالجناح الاوسط الذي ينتهي بقوس واسعة تؤطر حنية الصدر وذلك كله يضفي الوحدة على جسم الكنيسة من الداخل ، هذا وان هذه الدعائم المتينة من شأنها أن تصون البناء عند الزلازل ، وبقاء كنيسة قلب اللوزة بشكل شبه كامل حتى الان دلالة على سلامة هذا الانشاء .

وفي كنيسة قلب اللوزة تجديد آخر وهو بروز حنية الكنيسة نحو الخارج وتحميل نضدها على أعمدة خارجية تتخللها ثلاث نوافذ ، وقد تم تقليد هذا الطراز في كنيسة براد وكنيسة الويحة وكنيسة الرصافة وهي من القرن السادس الميلادي .

كنيسة قلب اللوزة

وللكنيسة خمسة مداخل ، الرئيسي منها في الجهة الغربية على شكل بوابة ذات رواق بين برجين بثلاثة طوابق ، يصعد منهـا المصلون ، اذا كثروا ، الى سـطح هذه البوابة وشرفاتها ، والى منوري الجناحين الجانبيين . ويطلون على داخل الكنيسة لمتابعة الطقوس .

والاضاءة في كنيسة قلب اللوزة موفقة جداً ، ففي كل من الجناحين تسع نوافذ، وللجناح الرئيسي منوران في كل منهما احدى عشرة نافذة حتى لتبدو الكنيسة غارقة في النور . والنور موزع بتوازن وتساوق بفضل اتساع مدى الاقواس لدرجة أن هذا البنيان الحجري الثقيل يبدو وكأنه يتلاشى في الفضاء . ان هذه المزايا ، فضلا عن روعة الواجهات وأناقة الزخارف ورصانتها ، تجعل من كنيسة قلب اللوزة قمة في فن العمارة السوري أيام البيزنطيين . وفي هذا المعنى يقول جورج شالنكو انها قمة العمارة في جبل بيللوس ، وقد بلغت هذه القمة بفضل مهارة فنان كبير ، ويضيف شالنكو : « هذا الفنان ليس أجنبيا اذ أنه استقى عمله من تقليد نعرف أصوله وتطوره من أطلال المنشآت الاخرى التي تنتشر في تلك الارجاء »(١٢) .

* * *

وثمة موقع أموي لا تؤدي اليه الآن طريق ، لكنه يمكن أن يطال ببعض المشـقة من الطريق الممتدة من تدمر الى الرصافة ، وهذا الموقع هو المعروف باسم **قصر الحير الشرقي** تمييزا له عن قصر الحير الغربي (المعاد بناء قسم منه في متحف دمشق) . لكن قصر الحير الشرقي ليس قصرا أو حصنا فحسب ، فهو يضم في الحقيقة قصرا وحماما وبستانا وشبكة ري وبلدة محصنة أنشأها الحمصيون لهشام بن عبد الملك . ولا أراني محتاجا لأن أوضح لِمَ أقام الامويون ، وبخاصة هشام بن عبد الملك ، القصور من العقبة حتى الفرات ، فالتعليلات كثيرة ، فمن قائل ان الهدف هو القرب من مراكز القبائل والتقوي بها والهروب من أجواء البلاط ، ومن قائل ان الغاية كانت استتباب الامن ، وهناك من يرى أن المتوخى كان الترويح عن النفس أو الصيد والقنص .

وكل ذلك محتمل . ولكن الطريق المارة بقصر الحير كانت منذ الالف الثاني على الاقل طريق تجارة وقوافل ، موفورة الينابيع والخيرات ومحمية بالجبال التدمرية ، ولا بد من تأمين حراسة لها بنقاط حصينة هي حصون سميت قصورا Castra . فاذا أمنت الطريق أمكن اقامة مشاريع استصلاح وسدود وقنوات ومزارع يقيم فيها وبقربهـا العاملون والمشرفون والجنود ، وكذلك الراغبون في الترويح عن النفس بمختلف الطرق .

يقع قصر الحير الشرقي على بعد ١٠٥ كم شمال شرق مدينة تدمر ، قريبا من قرية الطيبة ، وقد بني عام ١١٠هـ / (٧٢٨) م . وأكبر منشآت الموقع هي المدينة

واجهة قصر الحير الشرقي

المحصنة المعروفة باسم القصر الكبير ، وهي مربعة الشكل (١٧٠ × ١٧٠ م) . بنيت بمداميك من الحجر الكلسي المنحوت ، لها أربعة أبواب في منتصف الاضلاع ، تتصل بشوارع متعامدة الى باحة مركزية في وسط المدينة ، يحيط بها رواق معمد ، وفي منتصفها صهريج واسع سعته ثلاثة آلاف متر مكعب مبني بألواح من القرميد ، والسور الخارجي مدعّم بأبراج نصف اسطوانية في أعلاها غرف للحراسة ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية جامع هشام ــ وهو صورة مصغرة عن جامع بني أمية بدمشق ــ ودار الامارة ومعاصر الزيتون .

أما ما يسمى بالقصر الصغير فهو مربع الشكل (٧٠×٧٠م) ، أيضا أسواره مدعمة بأبراج نصف مستديرة بالحجر الكلسي المنحوت المتناوب مع مداميك الآجر ، وهو مزين بالزخارف الجصية الجميلة التي تزين الاقسام العلوية من البرجين على جانبي الباب في الجدار الغربي ، وفي وسط القصر بركة لحفظ المياه ، ويحيط بالباحة رواق محمول على أعمدة ، وهو يحدد مجموعة الغرف التي تفتح الى الباحة داخل الرواق ، وهناك درج في الزاوية الشمالية من الرواق الغربي كان يؤدي الى الطابق

الثاني في القصر . وهذا البناء الذي يعرف بالقصر لعب أدوارا أخرى خلال تاريخه . وتقوم دائرة آثار تدمر بصيانته وترميمه .

والحمام (٥٠ × ٣٠ م) يقع شمالي القصرين ، ويتألف من ثلاثة أقسام: البارد ، والدافيء والحار الذي يقع فوق القبو الذي يحوي بيت النار (الهيبوكوست) ، وأساساته والاقسام السفلى منه هي من الحجر ، أما الاجزاء العلوية فهي من القرميد المغطى بالجص ، وكانت تغطي الارضية وقسما من الجدران ألواح من الرخام .

أما ما يعرف بالبستان فهو مشروع زراعي عظيم يمتد شرقي القصرين ، محيطه ١٦ كم ، طوله ٦ كم وعرضه ٣ كم تقريبا . له سور من الحجر المنحوت المدعم بأبراج نصف اسطوانية من الداخل والخارج ، له باب غربي وباب في الجدار الشرقي ، ولا تزال أساساته وأجزاء من زاويته الجنوبية قائمة . وهناك القناة التي تصل حتى موقع الكوم على امتداد وادي السوق بطول ٣٠ كم وهي مشيدة بالحجر المنحوت ولا تزال قائمة مغمورة بالاتربة كانت تجلب المياه الى موقع قصر الحير الشرقي ، وتسقي البستان والسكان ، كما كان يستفاد منها أيضا في تشغيل طاحونة في نقطة دخولها الى البستان في الزاوية الشمالية . واكتشفت دائرة آثار تدمر عام ١٩٧٨ قناة للتصريف طولها ٥ كم ، مشيدة بأحجار منحوتة لسقاية السهل الواسع غربي القصرين ، وهي تمتد غربي القصر الكبير (٤ كم) وتتفرع جداولها الى الجنوب لتسقي سهل المنايف .

بقيت هذه الاطلال عامرة حتى نهاية القرن الرابع الميلادي ، مزدهرة بتجارتها وصلاتها مع مدن الفرات وحلب ، وظلت محطة على الطريق بين حلب والبصرة حتى افتتاح قناة السويس . وقد مر بها كثير من الرحالة والمسافرين ومنهم السيد روسو قنصل فرنسا في حلب عام ١٨٠٨ وشاهد لوحة مكتوبة على عضادة الجامع تقول (أمر ببناء هذه المدينة عبد الله هشام على يد سليمان بن عبيد من حمص .. سنة ١١٠ هـ)(١٤) وتدل بعض التيجان والزخارف المعمارية والكتابات التدمرية واليونانية « من القرن الثاني الميلادي » أن حصنا تدمريا كان فيه قبل أن يقوم هشام ببناء منشآته المذكورة وقد يكون اسم الموقع « ادادا » محطة على الطريق بين تدمر وسورا على الفرات .

* * *

أما قلعة حلب فليس في دنيا العرب والاسلام أروع ولا أمنع منها ، واذا كانت قلعة الحصن النموذج الاكمل لفن التحصين العسكري لدى الفرنجة فان قلعة حلب النموذج الاكمل لفن التحصين العربي الاسلامي . وفي بلاد الشام نظمت سلسلة من القلاع المنيعة لم تتجاوزها جحافل الصليبيين وهي قائمة حتى اليوم شاهدة على أيام مجيدة .

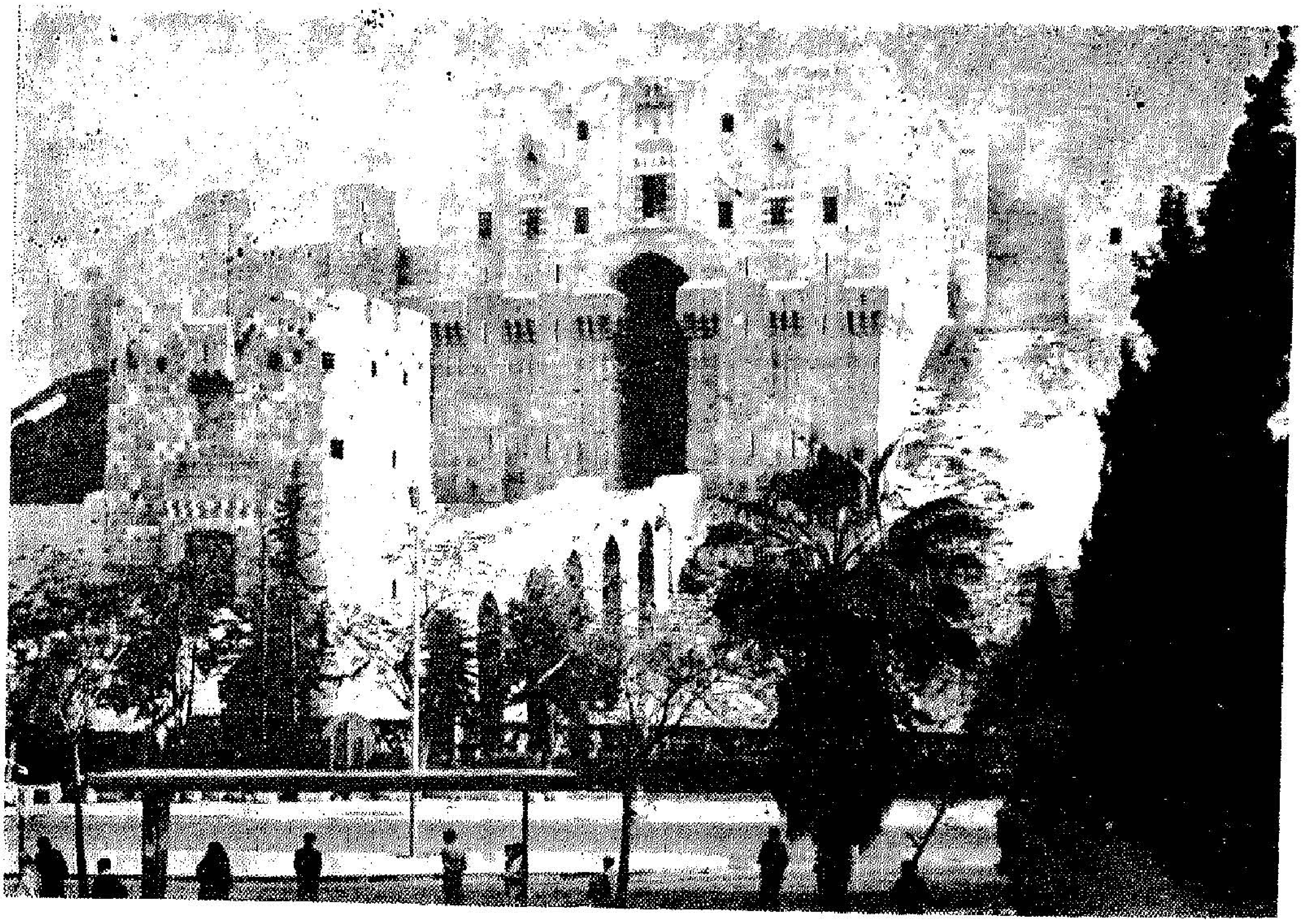

مدخـل قلعـة حلب

ونتعرف هنا على قلعة منها هي **قلعـة جعبر** ، التي كان انقاذهـا من مكاسب حملة الفرات .

تطل قلعة جعبر على بحيرة الأسد اطلالة شامخة في منظر أخاذ قـل نظيره ... وكانت في الاصل تبعد ٤ كم عن الفرات ثم أحاط بهـا الماء من كل جانب الا مـن ممر ضيق ترتفع ذروة القلعة ٣٤٧ مترا فوق سطح البحر ، و ٤٧ عن منسوب الماء الحالي، طولها ٣٢٠ مترا وعرضها ١٧٠ ويحيط بها سوران مدعمان بخمسة وثلاثـين برجـا بعضها مضلع (مخمس أو مسدس أو مثمن) وبعضها مستدير أو شبه مستديـر أو مضلع على قاعدة مستديرة أو مستديرة على قاعدة مضلعة . في وسط القلعة مسـجد جامع بمئذنة مستديرة ذات قاعدة مربعة من عهد نور الدين محمود بن زنكي ، وآثار مبان مختلفة عفا عليها الزمن .

ربما كان أصل القلعة يعود الى عرب ما قبـل الاسلام اذ يذكر ابـن خلكان في وفيات الاعيان أن دوسر غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة بنى هـذه القلعـة فنسبت له وسميت قلعة دوسر أو الدوسرية ، ولعل العثور على نقد بيزنطي وفخار بيزنطي من أيام النعمان أيضاً ، يؤيد ذلك . أما تسميتها بقلعة جعبر فيرجع الى القرن الخامس

الهجري (الحادي عشر الميلادي) حين كانت في حوزة جعبر بن سابق القشيري ، ثم أخذها منه السلطان السلجوقي ملكشاه بن الب ارسلان (٣٧٩هـ - ١٠٨٦م) ، ولقي عماد الدين زنكي مصرعه أمام أبوابها (١١٤٦م) لكن ابنه نور الدين محمود بن زنكي ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) استولى عليها . ووقعت بعد ذلك في ملك الدولة الايوبية وتملكها الملك الحافظ أحد أبناء الملك العادل ٤٢ سنة ، ثم آلت لاخته ضيفة خاتون . زرع هولاكو فيها الخراب (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) وظلت خرابا على تلك الحالة السيئة حتى تم تجديدها في عهد السلطان الناصر بن قلاوون بدءا بعام ٧٣٥ هـ (١٣٣٤م) عن طريق تنكر والي الشام الذي أرسل لها الرجال والصناع بالالاف وكلفت أموالا طائلة أرهقت مملكة حلب ، وكانت آنئذ في وضع حسن بل ممتاز لها جسر على الفرات وخندق ومدخل منيع وباشورة وكل لوازم العيش والدفاع .

أهملت القلعة في العصر العثماني وبقربها غرق سليمان شاه جد بني عثمان وكان قبره بجوارها الى وقت قريب(١٥) .

ان طرافة قلعة جعبر ، فضلا عن شموخها وتحكمها سابقا بواحد من أهم معابر الفرات الى بلاد الشام ، جاءت من كونها مشيدة بالآجر المشكل هندسيا سواء من حيث البنية أو من حيث الزخرفة وان مصمميها رأوا أن تنويع شكل الابراج من المربع الى المخمس الى المسدس الى المثمن الى المستدير من شأنه أن يبعد عنها الرتابة ويضفي جمالا على جمالها .

تلك هي بعض ما تزهو به آثار بلادنا ، موروثات أبدعتها الايدي الماهرة لمواطنينا القدامى ، صنعوها من حجارة هذه الارض ومن تربتها وتركوها أمانة لنا .

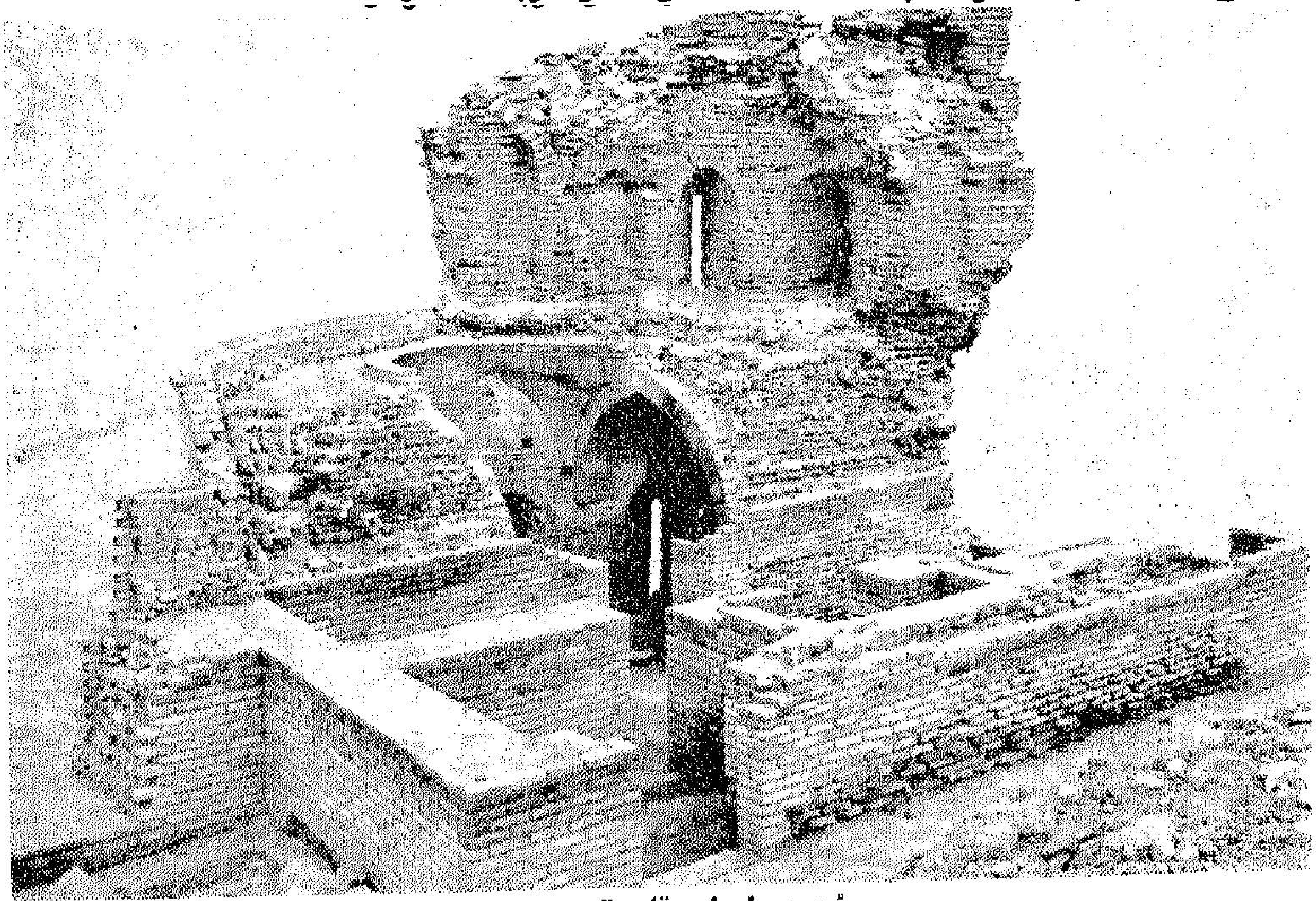

أحد ابراج قلعة جعبر

الحواشـــي

(١) وقائع المؤتمر التاسع للآثار الكلاسيكية بدمشق (١٩٦٩) ، الحوليات الاثرية السورية ، العدد ٢١ ، (١٩٧١) القسم الاجنبي ، ص ٣٣ .

(٢) اعتمدنا في موضوع عمارة ابلا ـ فضلا عن معرفتنا المباشرة بالموقع ـ تقارير الاستاذ باولو ماتييه مدير البعثة الايطالية في تل مرديخ التي قدمها للاكاديمية الفرنسية وبخاصة عام ١٩٨٣ وعلى تقاريره المقدمة للمديرية العامة للاثار والمتاحف وأكثرها غير منشور .

(٣) في الحوليات الاثرية العربية السورية نشرت تقارير التنقيب عن عين دارا وقد نشر الدكتور علي ابو عساف الذي يدير التنقيب في التل مؤلفا واسعا بالالمانية عن هذا المعبد ويعمل على نشره بالعربية حاليا .

(٤) ان كون ماراتوس هو الاسم اليوناني ـ الروماني لعمريت أمر متفق عليه بين العلماء بلا خوف منذ أيام أرنست رينان (١٨٦١) الذي اعتمد على مؤلف المؤرخ بلين الاكبر والتحريف ناشيء عن تعذر لفظ العين واضافة اللاحقة (أوس) .
وبالنسبة لتاريخ عمريت يرجع الى المؤلف الجديد التالي :
M. DUNAND et N. SALIBY , Le temple d'Amrith , Paris , 1985 .

(٥) نشر هذا النص أول مرة الاستاذ جان كانتينو في :
Inventaire des inscriptions de Palmyre . I (1933) No. 1 .

(٦) راجع :
J. P. REY - COQUAIS, Aradus et sa pérée, Paris , (1974) , P. 235 - 236 .

(٧) المرجع السابق ص ٢١٣ و ٢١٤ .

(٨) ان هذا الامر غير مؤكد بوضوح وقد أستنتج من احد النصوص المنقوشة في المعبد راجع :
J.P. REY - COQUAIS , Inscriptions grecques et latines de la Syrie, T. VII, (1970) No. 4028 et pages 65 - 66 .

(٩) في محاضرة القاها في جامعة اليرموك في ٢١ شباط ١٩٩٠ ولم تنشر بعد .

(١٠) شوقي شعث ـ قلعة سمعان، دمشق (١٩٨٤) ص ١٩ ـ ٢٤ .

(١١) هورست كلنغل ، آثار سورية القديمة (تعريب قاسم طوير) دمشق (١٩٨٥) ص١٣٢

(١٢) جورج شالنكو ، كنيسة قلب لوزة ، (تعريب عدنان البني) الحوليات الاثرية العربية السورية ٢٤ ، (١٩٧٤) ص ٢٢٧ .

(١٣) المرجع السابق ص ٢٢٦ .

(١٤) راجع : د. عدنان البني ، تدمر ، أثريا تاريخيا ، سياحيا ، الفصل الاخير في مختلف الطبعات (ص ١٣٣ من الطبعة الثالثة ١٩٧٧).

(١٥) المعلومات التاريخية عن قلعة جعبر اعتمدنا فيها أساسا على المرجع التالي :
عبد الرزاق زقزوق ، قلعة جعبر ، دمشق (١٩٨٤) ص ١٦ وما بعدها .

* * *

العلاقات العربية العثمانية

ثورة الكرك عام ١٩١٠

((الظروف السياسية))

د . سعد أبو ديه
جامعة اليرموك

مقدمة :

ما زال هناك الكثير من الصفحات المطوية في علاقات العرب مع السلطة العثمانية ، وبخاصة بعد زوال هيبة الدولة العثمانية بزوال هيبة السلطان عبد الحميد وتولي جماعة حزب الاتحاد والترقي الحكم ، وظهور بوادر الصراع العربي التركي الذي بلغ ذروته عام ١٩١٦م بالثورة العربية الكبرى ، وأصبحت المواجهة أوسع ودخل العرب في تحالفات دولية مع بريطانيا وفرنسا ضد السلطة . ولقد سبق هذه الثورة ثورات أخرى يمكن اعتبارها نمطا لعلاقات العرب والاتراك بعد تولي جماعة حزب الاتحاد والترقي الحكم عام ١٩٠٨ م حيث شهدت ولاية سورية عدم استقرار في لوائي حوران والكرك في أواخر عام ١٩١٠م فوقعت احداث حوران ثم ثورة الكرك وقد عرفت في الوثائق العثمانية بالفتنة شأنها شأن أحداث حوران ، وعرفها أهل الكرك بالهيّة، ووردت في اشعارهم حيث قال الشاعر :

عن هيّة صارت بالكرك	والكل سمع بطرياها
يا نجم من السما وقع	محمود يا خلفه طه (١)

وتعتبر هذه الحادثة أول ثورة مسلحة في لواء الكرك بين أهالي اللواء والسلطة . وفي هذه الدراسة يتم التركيز على الظروف السياسية التي حدثت فيها الثورة حيث تسلط الدراسة الضوء على هذه الظروف وتأثيرها على سير الثورة ..

وقد سارت الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على مبدأ تقويض نفوذ العائلات المتنفذة في سورية واضعاف مراكز العائلات في الريف اداريا للحد من نفوذها اجتماعيا وسياسيا ، وفي سبيل ذلك قامت السلطة بتعزيز وسائلها والتهيئة لقيام حكومة مركزية قوية فصدرت عدة قوانين وكان المسؤولون في

استانبول على اقتناع بأن خط همايون ١٨٥٦م للتنظيم الاداري والاجتماعي والسياسي للدولة يتطلب حكومة مركزية قوية . ولقد أصدرت الدولة عدة قوانين منها قانون الولايات لسنة ١٨٦٤م وقانون ادارة الولايات لسنة ١٨٧١م لاضعاف مراكز العائلات في سورية(٢) . ويلاحظ أن توجها من هذا القبيل قد تمت ممارسته في الكرك باستبعاد الشيخ قدر المجالي عن عضوية مجلس الادارة . وكانت السلطة قد قامت بتحسين طرق المواصلات وعندما رأت أن القبائل العربية في اليمن والحجاز تخفي شرا يلوح في الافق فانها عززت قوتها بمد الخط الحديدي الحجازي(٣) لتحقيق الاهداف السياسية والعسكرية وتعزيز مكانة السلطان عبد الحميد الثاني . وبالرغم من أن الدولة أرادته خطا حربيا لا تجاريا الا أنها أخذت الناحية التجارية بعين الاعتبار واختارت الطريق التاريخي للقوافل وهو الاكثر عمرانا ومياها فقام الخط بدور القوافل على طريق الحج الشامي وبذلك فان الخط أضر بالبدو اذ أصبح منافسا لهم وحرمهم من مزايا اقتصادية جمة فظهرت كراهية البدو للخط ، وبعد سنتين من وصول الخط للمدينة اندلعت ثورة الكرك فقام البدو بذلك الهجوم على محطات سكة الحديد على طول الخط الحديدي الحجازي .

المصادر وحدود الدراسة :

اعتمدت هذه الدراسة على المصادر العربية المباشرة التي تحدث فيها المسؤولون من ولاية سورية ومتصرفية الكرك مباشرة وهذه المصادر هي :

آ ـ كتابات المسؤولين : (في المقتبس)

١ ـ كتابات والي سورية اسماعيل فاضل	عدد ٥٨٩	١٩١١/٢/١ غ
	عدد ٥٩٢	١٩١١/٢/٥ غ
	عدد ٥٤٩	١٩١٠/١٢/١٧غ
٢ ـ كتابات متصرف الكرك	عدد ٥٥٣	١٩١٠/١٢/٢١غ
	عدد ٥٧٠	١٩١١/٠١/١٠غ
	عدد ٥٨٩	١٩١١/٠٢/٠١غ
	عدد ٥٩٠	١٩١١/٠٢/٠٢غ
٣ ـ تقرير المتصرف مع أعضاء مجلس الادارة	عدد ٥٥٢	١٩١٠/١٢/٢٠غ
٤ ـ كتابات مختلفة :		
آ) رواية شاهد عيان في الكرك	عدد ٥٦١	١٩١١/٠١/٣١ غ
ب) تقرير شكري أفندي مدعي الاستئناف في الكرك	عدد ٧٨٤	١٩١١/٠٩/١٨غ

حـ) رأي قائد الجندرمه (الدرك) عن الحادثة عدد ٥٨٩ ١٩١١/٠٢/٠١غ

جـ) رسائل كاتب المقتبس في حيفا عن الحادثة عدد ٥٤٤ ١٩١٠/١٢/٠٧غ
عدد ٥٤٥ ١٩١٠/١٢/٠٨غ
عدد ٥٤٦ ١٩١٠/١٢/١٠غ
عدد ٥٤٨ ١٩١٠/١٢/١٢غ

د) راي المدعي العام عدد ٧٨٢ ١٩١١/٠٩/١٦غ

ب ـ مخطوط مذكرات عودة القسوس ١٨٧٧ ـ ١٩٤٣ وثورة الكرك ١٩١٠ ، وثائق ووقائع من تاريخ شرق الاردن خلال ٧٠ عاما :

يقع المخطوط في حوالي ١٦٠ صفحة مطبوعة على الالة الكاتبة وتعود أهمية هذا المخطوط الى أهمية الكاتب الذي كان عضوا في مجلس الادارة عند وقوع ثورة الكرك وهو من أبناء العشائر في الكرك .

وتعتبر مصادر هذه الدراسة من المصادر العربية الفريدة . وقد اعتمد الدارسون الاخرون على مصادر غير عربية هي :

— Forder A., **In Brigands hand's and Turkish prisons 1914-1918** (London Marshall 1919).

— Mede bielle, P. **Kerak, histoire de la mission.** Jerusalem, Imp. du patriarcat Latin, 1961.

— F.O. 195/2343, 2370, 2371 Damascus Consul , Nov. Dec . 1910 Jan - June , July 1911.

وهناك مصادر أخرى غير مباشرة مثلا :

— Vatikiotis, P.J., **Politics and the Military in Jordan** London, Cass 1967.

في التعريف بالمصطلح :

استخدمت المصادر التي كتبت عن حادثة الكرك بعد الحرب العالمية الاولى لفظ (ثورة) حيث تذكر (ثورة الكرك) ولكن المصادر الرسمية التي تطرقت لهذه الحادثة في حينها لم تذكر كلمة (ثورة) بل ذكرت (فتنة) ، كفتنة الكرك وفتنة حوران) .

استخدم المؤرخان الاردنيان منيب الماضي وسليمان موسى لفظة (ثـورة)(٤) ، وكذلك عودة القسوس الذي عاصر احداث الكرك وكان في مجلس الادارة للواء الكرك

لانه كتب مذكراته بعد الحرب العالمية الاولى(٥) كما استخدم كلمة ثورة مؤرخون آخرون .

والواقع أن المؤرخين الاردنيين أطلقوا كلمة ثورة على حادثة(٦) أقل أهمية من حادثة الكرك وهي ما حصل في الشوبك عام ١٩٠٥م عندما اعترض أهل الشوبك على اجراءات السلطة فوقعت مصادمة(٧) .

تأسيس الادارة :

تزايد الاهتمام بالاجزاء الجنوبية من ولاية سورية لعدة أسباب ، منها فتح قناة السويس وفقدان البحر الاحمر لصفته التاريخية كبحيرة عثمانية ، واهتمام السلطان عبد الحميد وتركيزه على ولاية سورية بعامة والاجزاء الجنوبية بخاصة . وفي سبيل ربط هذه الاجزاء بالسلطة المركزية ارتباطا وثيقا ، عيّن عثمان نوري والياً جديدا لسورية لتنفيذ مهمة محددة ترتبط بتأسيس متصرفية في المنطقة الجنوبية من هذه الولاية .

قام الوالي الجديد بجولة في المنطقة وقدم تقريرا في ١٨/أيار ١٨٩٢م/ ٢٢ شوال ١٣٠٩هـ أشار فيه أنه لا بد من تأسيس متصرفية للسيطرة على المنطقة واقترح ما يلي:

آ ــ ارسال وحدتي مدفعية لكل من الكرك ومعان والطفيلة .

ب ــ اعتبار معان مركزا للواء أو المتصرفية وجعل كل من الكرك والطفيلة قائممقامية.

جـ ــ ارسال ٤٠٠ جندي دركي و ١٢٠٠ عسكري للمنطقة .

د ــ بيّن الوالي أن سكان المنطقة يكنون الولاء للسلطة ولا يتوقع منهم عدم الطاعة للسلطان المسلم .

رفع هذا التقرير الى نظارة الداخلية فمجلس الوكلاء (الوزراء) ثم السلطان عبد الحميد . وفي ١٨ آب ١٨٩٢م / ٢٥ محرم ١٣١٠ هـ صدرت الارادة السلطانية بتأسيس متصرفية معان وبذلك انتهت مهمة نوري عثمان التي جاء من أجلها واستمرت ثلاثة أشهر(٨) .

وفي سالنامة ولاية سورية يظهر وضع الولاية الاداري كما يلي :

هناك سبعة ألوية هي : لواء بيروت ، لواء طرابلس، لواء اللاذقية ، لواء حماء، لواء عكا ، لواء معان ، لواء حوران .

ويضم لواء معان (معان سنجاغي) ما يلي :

قضاء الكرك (كرك قضاسي) ، قضاء الطفيلة (طفيلة قضاسي) ، قضاء معان (معان قضاسي) ، قضاء البلقاء (بلقا قضاسي).

وامتدت حدود اللواء لتشمل منطقة لا تقل عن مساحة الاردن الحالية ، من العقبة جنوبا حتى نهر الزرقاء شمالا ومن الصحراء شرقا حتى نهر الاردن غربا .

وأخذت الدولة العثمانية تنفذ سياسة السلطان عبد الحميد بضرورة التركيز على هذا اللواء لربطه بالسلطة المركزية بصورة أفضل ، فاختارت له أفضل الموظفين وأخضعت مدراء النواحي لامتحانات خاصة . وفي خريف عام ١٨٩٣م ، باشر المتصرف حسين حلمي أعماله (٢ مارت ١٣٠٩ ش وبقي حتى ١٣ أيلول ١٣١٢ش) وأصبحت الكرك مركزا للادارة بالرغم من أنه كان من المقرر أن تكون معان(٩) .

وفي عهد حسين باشا بدأت الادارة باستقطاب أهالي اللواء(١٠) ، وقامت بكثير من الاعمال لتحبب الناس بالسلطة . ولم تقتصر أعمال حسين باشا على اللواء بعامة بل انها خصت الكرك (القصبة) بشيء كثير من الاهتمام لتحبيب الناس بالادارة . ولقد صرف حسين باشا مخصصات للشيوخ في الكرك كما أنه شكل منهم هيئة غير رسمية وهي (هيئة انضباطية) لمساعدته على تأدية أعماله ، وأعلن في الكرك العفو عن كل الجرائم الخاصة ووضع تقادير من المال للشيوخ على شكل رواتب شهرية(١١). ومقارنة مع باقي المدن في اللواء فان مدينة الكرك استأثرت بعدد كبير من المدرسين وفي سالنامه ولاية سورية لعام ١٣١١ – ١٣١٢هـ ظهر أن هناك ستة معلمين موزعين كما يلي : اثنان في الكرك ، واثنان عند عشيرة المجالي بمعنى أن للمجالي ثلث عدد المعلمين وهذا لا يتناسب مع عدد السكان ولكن يعكس رغبة الادارة في استقطاب المجالي كزعامة في الكرك واللواء ، اثنان في كثربا والخنزيرة(١٢) . وكان عدد سكان الكرك آنئذ (٨٠٠٠) نسمة منهم (٥٠٠) من المسيحيين(١٣) ولهم مدارسهم الخاصة .

مكث حسين باشا ثلاثة سنوات وخلفه صادق باشا الذي أساء معاملة أهل الكرك، ففكروا بالثورة عليه بخاصة عندما قطع رواتب المشايخ التي صرفها حسين باشا عندما دخل الكرك(١٤) . الا أنه لم يمكث طويلا ، فجاء رشيد باشا ، وهو رجل قانوني محب للاصلاح ويتمتع بشخصية اصلاحية ، فأكمل ما قام به حسين باشا ومن أعماله في اللواء :

أنشأ مخفرا على حافة نهر الموجب شرقا وآخر على حافة وادي الحسا وبهذا فهو يساعد على تحقيق الامن داخل الكرك ، فلو فكرت السلطة فيما بعد بنزع السلاح من أيدي الكركية فان المنطقة آمنة مما يجعل الكركي لا يعارض في أخذ السلاح من يديه ،

ووسع الجامع العمري ، وبنى مدرسة نهارية على طراز المكتب الحربي الموجود في الاستانة وأسس مدرسة للبنات ، وحسّن الطرق ، وأسس دائرة للبرق والبريد ، وجدد بنيان مقام نوح . وبشكل عام فقد اعتنى بشؤون اللواء وبنى دور الحكومة في السلط ومادبا والطفيلة .

أخذت أمور اللواء تستقر وبدأت السلطة توطد علاقاتها مع عشائر اللواء . ولم يمض وقت طويل حتى أخذت أمور اللواء تنتظم بتوزيع الخدمات وبالادارة الفعالة واستخدام كثير من المحليين لحفظ النظام ، وبدأت الحكومة بداية قوية لحفظ النظام وربط اللواء مع السلطة المركزية تنفيذا لارادة السلطان(١٥) . ولا يلاحظ ان اهتماما مماثلا تم توجيهه نحو البدو .

واستقر وضع لواء الكرك على الشكل السابق بحيث أصبحت الكرك مركز اللواء الذي يضم أقضية معان والكرك والطفيلة والبلقاء وبعض النواحي .

التحالفات في لواء الكرك (على مستوى القسم الجنوبي من اللواء) .

شهد لواء الكرك بعض التحالفات في المنطقة الجنوبية فيه ، ولقد بعثت هذه التحالفات نوعا من القوة غير الموجودة في باقي ألوية ولاية سورية . ونظرا لوجود البدو في هذه التحالفات فان المواجهة مع السلطة فيما بعد اتخذت طابعا خاصا اختلف عن طابع المواجهة في حوران ، حيث آزرت قبائل (الرولة) السلطة وقوات سامي باشا الفاروقي في حين أنها في ثورة الكرك كانت ضد السلطة ، والشيء نفسه تكرر في الحرب العالمية الاولى حيث وقفت هذه القوات ضد العثمانيين وحاربت بضراوة ، ولقد استفاد الثائرون في الكرك من وقفة القبائل البدوية الى جانبهم حيث هاجموا الخط الحديدي الحجازي في ثورة الكرك وهاجموا الخط في الثورة العربية الكبرى فيما بعد .

ولقد قسمت هذه التحالفات المنطقة الى قسمين أو قوتين رئيستين :

القوة الاولى : تحالف يضم مدينة الكرك مع معان الشامية(١٦) وقبائل بني عطية ومنطقة الشوبك .

القوة الثانية : تحالف آخر مضاد للتحالف الاول يضم معان الحجازية ووادي موسى والطفيلة وقبائل الحويطات .

واختلفت الاراء في أسباب هذه التحالفات ، وهناك من يرى أن هذه التحالفات قد نشأت نتيجة لقوة عشائر الكرك التي اشتدت بعد الاحتلال المصري وما تلاه من أحداث أدت الى ابتعاد الاهالي عن الكرك . واتفق الاهالي بعد عودتهم على الوقوف

صفا واحدا في وجه العشائر الاخرى في المنطقة فتحالفت عشائر العمر(١٧) مع الكركية ضد بني حميدة عشائر البدو في شمال الكرك . وفي منتصف القرن التاسع عشر وقعت **معركة شيحان** بين عشائر من الكرك والحمايدة وتغلب الحمايدة في البداية ولكن في معركة قدومه التي تلت معركة شيحان انحسم الموقف فيها لصالح الكركية(١٨) . ويرى أصحاب هذا الرأي أن شأن الكركية ارتفع بعد هذه الموقعة كثيرا وان الكرك أصبحت مركزا زراعيا للؤاب والشراة .وقد وقع شيخ بنيعطية (معاهدة بني العم) مع الكركية، وفعل أهل معان الشامية وأهل الشوبك الشيء نفسه(١٩) ونتيجة لظهور هذه القوة فقد تحالفت الحويطات مع معان الحجازية ووادي موسى والطفيلة(٢٠) لمواجهة الكرك وحلفائها . ويلاحظ أن قبائل البدو أدت دورا في التحالفات وان السلطة العثمانية لم تلتفت لاستقطاب البدو مثلما التفتت لاستقطاب أهل المدن .

والرأي الثاني يرى أن التحالفات تعود لحادثة قديمة تتلخص بطرد آل المجالي للقوات المصرية من الكرك بعد أن أساء الجنود والضباط التصرف(٢١) وان الكركيين بقيادة اسماعيل المجالي(شقيق عبد القادر المجالي) قادوا الهجوم على دارين تسكن فيهما القوات المصرية وأحرقوهما وأبادوا القوات المصرية فيهما ، ثم استسلمت قوات القلعة ، وبسبب خطأ الضابط وقعت مذبحة بينهم أيضا . ولقد أدى ذلك الى أن يهاجم ابراهيم باشا الكرك ويفتك بأهلها ويحرقها . ولقد وقع انقسام في تحالفات المنطقة بعد عودة الكركية للكرك حيث وقف أهل الكرك ضد الحويطات(٢٢) . وان التحالفات تبلورت بعد ذلك في المنطقة واستمرت حتى عام ١٨٩٠م حيث جرى الصلح .

والواقع أن هذه التحالفات أثرت على قوة المنطقة وجعلتها تعتمد على نفسها بدون حماية من الدولة ، وفيما بعد أرادت الدولة أن تتدخل لجمع السلاح فان تفكير الشيوخ لم يستوعب هذا التصرف على اعتبار أن السلاح ضروري للحماية وأن أهالي الكرك لم يتعودوا الحماية من طرف الدولة .

ولقد وحّدت هذه التحالفات من موقف سكان جنوب لواء الكرك ضد السلطة فعندما قامت الثورة بادر البدو للقتال الى جانب أهل الكرك على عكس ما حصل في حوران . وبالرغم من أن هذه التحالفات لم تكن على أساس قومي فانها لم تكن بعيدة عن النزعات الاستقلالية بسبب شعور أهل الكرك بالقوة ولضعف وسوء الادارة العثمانية من جهة أخرى .

تحالفات الكرك الداخلية : والواقع أن المنطقة شهدت زخما من التحالفات الكبرى

والصغرى على نحو لم يشهد له مثيل في أية ولاية أخرى . ولقد ظهرت تحالفات داخل الكرك نفسها حيث انقسم أهل الكرك الى قسمين جغرافيين .

- المجالي ومجموعتهم المعروفة بالغرابا ومنهم عشائر المعايطة والحباشنة والجعافرة .
- الطراونة ومجموعتهم المعروفة بالشراقا ومنهم عشائر الطراونة والصرايرة والقطاونة والضمور والصعوب والشمايلة والمحادين والمدادحة والنوايسة والذنبيات .
- وهناك عشائر مسيحية ، وهي :

الهلسة والحدادين والمدانات والصناع والزريقات والبقاعين والحجازين .

- وهناك عشائر القرى ، وهي : البرارشة : في كثربا ، البطوش : في الخنزيرة، والعراقية : في العراق ومنهم المواجدة(٢٣) .

وقد قسمت الاراضي بعد أن قويت شوكة أهل الكرك واستطاعوا تقسيم أراضي غرب الكرك بينهم بالتساوي ، وقسمت لقسمين : عشائر الشراقا ، وعشائر الغرابا ، ولم يكن لعشائر المجالي بينهم أرض في البداية لان هذه العشائر كانت حديثة العهد بالمنطقة (٢٤) .

ويلاحظ أن التحالفات كانت مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية في غياب السلطة ، وكان لها دور كبير في ازدياد قوة الجماعات المتحالفة وان هذه التحالفات وجدت على مستويات متفاوتة وكانت حياة الناس في الكرك تعتمد عليها .

ويلاحظ أن هذه التحالفات كانت للحماية وضرورة البقاء في ذلك الجو غير المستقر ، وان أهالي اللواء لم تكن لديهم نية للثورة على السلطة . وقد لاحظ الوالي العثماني ذلك وذكره في تقريره المقدم لمجلس الوكلاء واطلع عليه السلطان عبد الحميد وهذا يعزز فكرة أن الثورة لم تكن قومية بمعنى انها لم تندلع ضد السلطة لاسباب عربية قومية بقدر ما كانت نزعة استقلالية بسبب الشعور بالقوة وفساد الحكم .

هذا هو الجو السياسي الذي بدأت فيه الدولة العثمانية الاصلاح ومحاولة استقطاب أهالي اللواء ، ولكن في تلك الفترة تبلورت الظروف السياسية تماما ،وظهرت زعامة المجالي في اللواء ، وكان لا بد من الاستمرار بالسياسة التي بدأت بها السلطة عام ١٨٩٢م ، ولكن قبضة الدولة العثمانية أخذت تتراخى تدريجيا ، وظهر ولاة ليسوا من مستوى حسين باشا ورشيد باشا ، وكان لكل ذلك تأثيره الكبير على وضع مدينة الكرك .

أثر العوامل الادارية في نشوء الثورة :

يبدو أن الادارة مع مطلع القرن العشرين وبعد مد الخط الحديدي الحجازي قد استهانت بأوضاع المنطقة ، وان الهمة والحماس اللذين ظهرا منهـا في أواخـر القرن الماضي أخذا يختفيان تدريجيا ، فوقعت حادثة صغيرة هي حادثة الشوبك عام ١٩٠٥ عكست سوء الادارة وضعف هيبة الدولة . وازداد تدهور هـذه الهيبة بعـد عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م .

ولقد لاحظ الرحالة النمساوي « الوا موزيـل A. Musil » الذي زار معان في ١٠ تموز ١٩١٠ ، ان كل شيء في معان يوحي بقيام الثورة وانها واقعة لا محالـة في معان أو بين الحويطات ، بعد ان أُخبر انهم توجهوا غربا يستعدون لثورة لان الحكومة قطعت مخصصـاتهم المالية . ووصلت هذه الاخبار الى مسامع والي سورية ، واكتشف « موزيل » أن الوالي كان يتوقع الثورة ولكن في حوران وليس في معـان أو بين بـدو الحويطات . وتعد توقعات «موزيل » مبكرة جدا ، الا أن الادارة لم تنظر اليهـا بعين الاعتبار(٢٥) ، وظلت على لامبالاتها دون اتخاذ أية اجراءات وقائية . وأدى تلكؤ الادارة الى وقوع ما وقع .

وكانت الدولة العثمانية تدفع مبالغ من المال للبدو تسمى الصرة ، وبعد تأسيس متصرفية الكرك دفعتها للشيوخ في الكرك ، وبعد مد الخط الحديدي الحجازي والانقلاب العثماني تلكأت في دفعها وخفضت ما تدفعه للبدو من ٣٠٠,٠٠٠ الى ٢٤,٠٠٠ ، وفي السنة التالية الى ١٩,٠٠٠ ليرة . ثم طلب الشيخ سليمان الجوخهدار في ولاية سورية حذف المبلغ فحذف بعد أن وافق مجلس الادارة(٢٧) . ويبدو أن هذا السبب من أهـم الاسباب التي أثارت البدو ضد وجود هذا الخط الذي كان سببا في حرمانهم من مورد مالي كانوا يتلقونه من الدولة مقابل حراسة طرق القوافل .

والواقع أن هذا السبب لم يكن السبب الوحيـد للثورة ، لان الثـورة قامت في الكرك التي عانى شيوخها من تخفيض مخصصاتهم أيضا ، ولكن هناك أسبابا أخرى تبدو اكثر أهمية ومنها : احصاء النفوس ، والتجنيد ، وجمع السلاح .

وتؤيد رواية والي سورية اسماعيل فاضل وجهة النظر هذه ، وهـو يرى أن المرتبات كانت تدفع لبني صخر وان المهاجمين في محطة القطرانة ليسوا من بني صـخر بل من المجالي وبني حميدة والسلايطة(٢٨) الذين لا تصرف لهم مرتبات . والواقع أن هذا غير صحيح لان بني صخر قاموا بهجوم على بعض المحطات في مرحلة لاحقة .

احصاء النفوس : وقعت أحداث حوران قبل أحداث الكرك بشهرين واستطاع سامي باشا الفاروقي اخماد الفتنة نهائيا ، وشجعه ذلك على فرض قانون التجنيد الاجباري في المنطقة وأن يجند كل من بلغ عشرين عاما ولذلك كان لا بد من احصاء النفوس .

وبسبب الانتصارات التي حققها في حوران فانه قام بهذا العمل الكبير دون التنسيق مع الاستانة ، واكتفى بالتنسيق مع المتصرف ، فأبرق له مستفسرا عن امكانية القيام بما يلي :

جمع السلاح من أهل الكرك ، تسجيل الاراضي والاملاك ، احصاء (تحرير) النفوس مع التجنيد .

وطبقا لرواية قائد الجندرمه (الدرك) فان المتصرف طاهر بك بادر بالاتصال مع الشيوخ والوجهاء في دار الحكومة ، فطلب هؤلاء من المتصرف امهالهم أسبوعا بيد أن المتصرف طلب اجابة فورية وقال : « أجيبوني الآن » فخرج الشيوخ من مكتب المتصرف للتداول وانقسموا الى قسمين في رأيهم(٢٩) ، فقسم رفض التجنيد مثل الشيخ علي يونس من بني حميدة وقال « ما سمعتم ما جرى لاهل حوران وكيف نهبوا أموالهم ولم يقبلوا منهم بدلا من الخدمة العسكرية أما فيكم دم العرب والله أنا لا أقبل والذي يريد أن يأخذ مني شيئا فليلحقني ، وتركهم ومضى »(٣٠) .

قسم آخر هادن الحكومة لانها قوية ، ورأى انتظار ظروف سانحة لاستغلالها في الثورة أو الفتك برجال الحكومة(٣١) .

أسباب الثورة المباشرة :

جرى احصاء النفوس في الكرك قبل وقوع الثورة في معظم المناطق(٣٢) . وتعد طريقة احصاء النفوس احدى الاسباب التي أدت الى وقوع الثورة .

ذلك أن احصاء النفوس لم يكن في حد ذاته ليسبب الثورة لو تم بطريقة معقولة ولم تصاحبه اشاعات . ولكن المشكلة بدأت من طريقة الاحصاء . فقد تشكلت في الكرك سبع هيئات لاحصاء النفوس هي :

الهيئة الخاصة بمنطقة المجالية والمسيحيين وفيها الشيخ قدر المجالي .
الهيئة الخاصة ببني حميدة .
الهيئة الخاصة بعشيرة السلايطة والكعابنة .

الهيئة الخاصة بمنطقة الشراقا وفيها الشيخ حسين الطراونة .
الهيئة الخاصة بمنطقة العراق .
الهيئة الخاصة بمنطقة بني طريف .
الهيئة الخاصة بمنطقة الكرك(٣٣) .

ويبدو أن طريقة هذه الهيئات في الاحصاء لم تكن موفقة ، فقد وقع صدام بين عشيرتي السلايطة فأرسلت قوة من الكرك بقيادة رشدي بك الى أم الرصاص شمالا حتى تبعث الهيبة في نفوس الناس هناك . ولكن شاكر بك أخطأ في ذلك ، اذ كان من المفروض أن ترسل قوة من السلط لا من الكرك لانها الاقرب لأم الرصاص ، ولان ارسال جزء من القوات شمالا سبب نقصا في قوات شاكر بك في الكرك نفسها وأساء الى توزيع القوة وأطمح الاهالي في سلطة الكرك . ويذكر كذلك أن عدم ذهاب (رفيفان المجالي) مع القوات لأم الرصاص أضعف هيبة هذه القوة(٣٤) .

وقعت أحداث أخرى أثناء احصاء النفوس ، ففي الهيئة الاولى مثلا تصادم الشيخ قدر المجالي مع الضابط المسؤول ، وكان الضابط لا يحترم الشيخ قدر أمام جماعته ، وعندما كان يدخل الشيخ قدر مع الضابط لاحد البيوت كانا يختلفان على العدد الصحيح فيقول الشيخ قدر « خمسة أشخاص » ولكن الضابط يشكك في الرقم ويقول « عشرة أشخاص » ، وكان تكذيب الضابط للشيخ يتم بحضور جماعة الشيخ قدر مما يزيد في وقع الاهانة(٣٥) . يضاف لما تقدم أن الشيخ قدر كان جريحا في كرامته لاستبعاده من مجلس الادارة وتعيين مصطفي الجعفري بدلا عنه(٣٦) .

ساهم ضعف هيبة الدولة في تزايد الاشاعات التي خلقت رأياً عاما في الجزء الجنوبي من ولاية الكرك . معبأ ضد السلطة وقد لاحظ ذلك الرحالة «موزيل » في معان وأوساط البدو . وهناك مؤشرات عامة في الرأي العام تعكس ضعف مبادرة السلطة ، فقد ترددت الاشاعات مثلا أن الحكومة رفضت أن تأخذ (بدلا) من الدروز وأصرت على التجنيد الاجباري . وأخافت فكرة التجنيد الاجباري وعدم وجود بديل شيوخ الكرك كما حصل مع الشيخ علي يونس من بني حميدة الذي استشهد بما حصل في حوران في حواره مع شيوخ الكرك عندما قابلهم المتصرف وسألهم عن رأيهم في التجنيد. في حين كان من المفروض أن تقوم السلطة بتعبئة الرأي العام ، مذكرة اياه بأن الخدمة العسكرية ، وكانت من قبل لا تطبق الا على ١٥ مليونا فقط ، قد أصبحت عامة في البلاد (٣٧) .

وأسهم النزاع بين المسؤولين في تشجيع الاهالي على مناهضة السلطة(٣٨) ، من ذلك سوء التفاهم بين متصرف الكرك طاهر بك ووالي سورية اسماعيل فاضل ، الذي

وصلت أخباره الى أهالي الكرك ، فأطاح ذلك بما تبقى من هيبة الحكومة. كانت علاقات المتصرف مع الوالي قد وصلت حدا من التوتر جعل الوالي يكتب ضد المتصرف لنظارة الداخلية(٣٩) وتعود نقمة الوالي(٤٠) على متصرف الكرك لاتصال المتصرف بسامي باشا الفاروقي قائد الحملة الحورانية . فقد كان الوالي يعتقد أن متصرف الكرك تلقى أوامره في مسألة احصاء النفوس والخدمة العسكرية من سامي باشا . ويتهم الوالي المتصرف بأنه تبادل البرقيات ونسق مع سامي باشا في ثلاثة مواضيع : احصاء النفوس ، والتجنيد ، وجمع السلاح من أهالي الكرك .

وينفي متصرف الكرك هذه الاتهامات ، وانه تبادل البرقيات مع سامي باشا ، ويذكر أنه أبرق للوالي وان المواضيع التي تحدث فيها مع الوالي هي موافقة أهل الكرك على احصاء النفوس وليس جمع السلاح لان أهل الكرك يخشون من جيرانهم لو بقوا بدون سلاح . وفي هذه النقطة بالذات وافق سامي باشا على حماية المنطقة وتأمينها قبل جمع السلاح(٤١) .

٢ ـ عدم التنسيق بين المدنيين والعسكريين :

يلاحظ أن هناك صراعا على السلطة بين سامي باشا الفاروقي والوالي اسماعيل فاضل الذي كان يرغب بقيادة الحملة الحورانية وساءه أن وزارة الداخلية اختارت سامي باشا للحملة(٤٢) . وهذا يفسر عدم تعاون الوالي في أية اجراءات وقائية في الجزء الجنوبي في ولاية الكرك وأراد تحميل سامي باشا المسؤولية فيما حدث في حوران والكرك متهما اياه بعدم الكفاءة في اختيار مساعديه ومنهم المتصرف طاهر بك . والعسكريون مثل شاكر بك وقائد الدرك فؤاد بك(٤٣) .

ويعد الصراع بين سامي باشا واسماعيل فاضل مظهرا للصراع على السلطة في ولاية سورية بين المدنيين والعسكريين وان انتصارات سامي باشا لم ترض اسماعيل فاضل . ولم يكن هذا الصراع ، الصراع الوحيد بين المدنيين والعسكريين فهناك صراع آخر حدث في الكرك نفسها وتمثل في المواجهة بين شاكر بك والمتصرف طاهر بك ، اذ تلكأ شاكر بك في تنفيذ أوامر المتصرف فوقع الهجوم .

وفي الوقت الذي حمل فيه الوالي المسؤولية للمتصرف في الكرك ولسامي باشا الفاروقي فان الوالي استبعد أن يكون لاهالي الكرك مسؤولية فيما حدث بل دافع عنهم(٤٤) . ان رأي الوالي لا يختلف عن رأي الوالي عثمان نوري الذي تم تكليفه بدراسة تأسيس متصرفية في الكرك ، فذكر في تقريره أن الناس يحترمون السلطان ولا توجد لديهم نية في مناهضة السلطة. وهذا ما يعزز الرأي أن السلطة كانت مسؤولة عما حدث

سواء في اجراءاتها الوقائية أو العلاجية . ويختلف رأي الوالي عن رأي المتصرف الذي وجه اللوم لرؤساء العشائر واتهمهم بالخبث والانانية(٤٥) .

ويلاحظ أن الاراء عند المسؤولين لم تتفق على تحديد الاسباب ففي حين يبرىء الوالي الاهالي فان المتصرف يتهمهم،والواقع أن سوء الادارة وعدم المبادرة هو السبب. فبالاضافة للاسباب السابقة الذكر هناك ما يشير لسوء ادارة الوالي في ولاية سورية حيث عزل رئيس بلدية دمشق أربع مرات في فترة قصيرة نسبيا(٤٦) . وعلى مستوى المتصرف فانه لم يحسن التنسيق وهو في الموقع ، فلم ينسق مع رئيسه تنسيقا جيدا ولم ينسق مع شاكر بك أيضا وترك له اتخاذ القرار ، ولم ينسق مع شيوخ العشائر الذين كان لهم دور كبير في انتصارات سامي باشا الفاروقي في حوران(٤٧) .

اخطاء السلطة ومبادرة أهل الكرك :

ويمكن اجمال أخطاء الادارة في عدم التنسيق بين سامي باشا والوالي في دمشق، مما أفقده دعم الادارة المدنية التي وقفت موقف المتفرج ، وتسرب أخبار الاتصالات بين المسؤولين الى أهالي الكرك ، الامر الذي ساعدهم على اتخاذ القرارات وشجعهم على العصيان بعد أن لمسوا الشرخ بين الوالي والمتصرف . فانقسام الادارة المدنية أضعف هيبة الدولة وأدى الى ضعف التنسيق بين الاطراف المتعددة ، وكذلك الانقسام بين الادارتين المدنية والعسكرية ، في حين كان الرأي العام عند الاهالي موحدا ضد السلطة.

ومن جملة أخطاء الادارة تسرع سامي باشا في اتخاذ قرار احصاء النفوس والتجنيد في الكرك ، دون تمهيد وتنسيق مع المدنيين ، ودون تأمين حماية الكرك قبل اثارة فكرة جمع السلاح من الكركية والبدو . وساعد قطع مخصصات شيوخ العشائر في تعبئة البدو ضد السلطة .

ولقد استفاد أهالي الكرك من أخطاء السلطة ، وكان أكثرهم نشاطا الشيخ قدر المجالي الذي قام بما لم تقم به السلطة فأرسل شقيقيه مشاقق المجالي وعبد القادر المجالي للتعبئة في الطفيلة ووادي موسى ومضارب عشائر الحويطات وعشائر الكرك وغور الصافي والصخور والنعيمات والحمايدة وبني عطية ، وأشاع بينهم ما يخافون منه وهو التجنيد(٤٨) . وكان الشيخ قدر قد فقد امتيازات سابقة ، منها ١٠٠٠ قرش كان يتقاضاها شهريا(٤٩) ، ومنصبه في مجلس الادارة ، ومن هنا كان حماسه لخلق رأي عام مضاد للسلطة(٥٠) .

والواقع أن آل المجالي لم يفقدوا امتيازاتهم فتوفيق المجالي كان عضوا في مجلس المبعوثان ، وكان منهم أعضاء في المجلس البلدي . ويمكن القول ان الذي فقد امتيازاته

الشيخ قدر . وما كان للمتصرف والوالي أن يفرطا بزعامة مثل زعامة الشيخ قدر في تلك الظروف الحساسة والمرحلة الانتقالية . ولقد حمل والي سورية (المجالي) المسؤولية بشكل عام واتهمهم بكراهية السلطة ، ووسع الوالي دائرة اتهامه لتشمل بني حميدة والسليط(٥١) .

بداية الثورة :

مساء يوم الاحد ١٩١٠/١١/٢١ش قامت مجموعة من شباب المزاز بالهجوم على الضابط (اليوزباشي) الممتاز سعيد أفندي ومعه خمسة جنود من الالاي ٣٣ متوجهين للطفيلة ، وقتلوهم جميعا واستولوا على سلاحهم(٥٢) . وبعد ذلك توجه محمد علي الطراونة وشخص آخر اسمه عياد الى قريتي العراق والخنزيرة ، فاستجابت العراق وقتل أهلها جميع من في المضافة ما عدا محي الدين أفندي مأمور الاحصاء(٥٣) . وفي العاشرة والنصف ليلا توجه الشيخ حسين الطراونة ومعه المفتي صالح لابلاغ السلطات وتحذيرها ، وابلاغ المتصرف بما جرى . غير أن المتصرف لم يصدق . وفي هذه الاثناء وقعت تصرفات تعكس سوء التنسيق بين العسكريين والمدنيين وسوء التنسيق مع الناس وضعف المبادرة .

فقد استدعى المتصرف شاكر بك، فلم يحضر وأرسل بدلا عنه ضابطا آخر . وهذا يبين أن شاكر بك كان مطمئنا لعدم حصول مشكلة ، أو انه لا يريد الرد على المتصرف. فاستدعاه هذا ثانية مؤكدا حضوره ، فحضر ودار بين الاثنين حديث استغرق ساعة ونصف الساعة .

وخرج (اليوزباشي قائد الدرك) للاستطلاع والتأكد من وجود مهاجمين على الكرك ، فلم يجد شيئا ، وأرسله شاكر بك ثانية ليطوف حول البلدة فعاد دون أن يجد شيئا يدل على الهجوم . واستأنف المتصرف وشاكر بك الجدل ، وفي هذه الاثناء وقع الهجوم .

ويضع المتصرف اللوم على شاكر بك الذي ماطل حتى وقع الهجوم ، وبعد الهجوم أخطأ بأن أرسل جنودا لاحضار الطعام من الخارج فقذفتهم المدفعية خطأ عند عودتهم(٥٤) .

الهجوم على مدينة الكرك :

في تمام الساعة ١٢ عربي (نحو السادسة) من صباح يوم الاثنين الموافق ١٩١٠/١٢/٥ غ / ١٣٢٦/١١/٢٢ ش / ٣ ذي الحجة ١٣٢٦ هـ وقع الهجوم المفاجىء

على مدينة الكرك . « وروى شاهد عيان أنه استيقظ صباحاً على أصوات صياح وصوت نفير حرب »(٥٥) .

استهدف الهجوم بيت المتصرف ، وأُقتحمت دار الحكومة وأحرقت . وارتبكت الاجهزة الرسمية وكبار الموظفين ولولا تدخل مدفعية القلعة التي أعطت الفرصة لكبار الموظفين بالانتقال الى داخل القلعة ، لابيد أكثرهم(٥٦) .

واستهدف الهجوم المباني التالية (حسب التقرير الرسمي) :

١ ـ دار الحكومة .

٢ ـ دار البلدية .

٣ ـ ادارة حصر الدخان .

٤ ـ ادارة البرق .

٥ ـ المكتب الرشدي ـ مدرسة البنين.

٦ ـ تخريب دور المأمورين ونهبها .

٧ ـ تدمير المحلات والدكاكين .

٨ ـ مكتب البنات ـ مدرسة البنات.

٩ ـ الجامع الشريف .

١٠ ـ كسر صندوق المالية وأخذ مافيه من نقود .

٢٨٢٠٠٠٠ قرش

٥٢ر٠٠٠ قرش قيمة اوراق مالية

١١ر٠٠٠ قرش أمانات .

حوصرت القلعة صباح الاثنين ١٩١٠/١٢/٥ غ حتى الاربعاء ١٩١٠/١٢/١٤غ بمعنى أن الحصار استمر عشرة أيام . وكانت حصيلة الهجوم قتل أحد عشر دركيا ، وقتل اربعين موظفاً خارج الكرك .

الهجوم على مناطق اخرى :

صباح يوم الاثنين نفسه وقع هجوم مركز على دار الحكومة (مركز الناحية) في العراق . لاقى المهاجمون مقاومة وقتل منهم اثنا عشر شخصا ، وبعد ان نفذ سلاح المدافعين هوجموا وقتلوا .

وفي صباح يوم الاثنين نفسه حاصر بني حميدة والسلايطة القوة العثمانية التي استحكمت في خربة ام الرصاص حتى انتهت الثورة(٥٧) ولولا مساعدة تاجر نجدي (عبد الله العقيلي) لواجهت القوة مشاكل كبيرة .

لقد ادت المفاجأة دورها في محاصرة الجنود داخل قلعة الكرك، الى جانب أسباب أخرى ساعدت الثوار على التفوق منها : التحاق عدد من الدرك بالثائرين وفتح باب دار الحكومة(٥٨) لهم ،وعدم وضع قوة على مدخل القصبة وبرج القطاونة حسب

اقتراح حسين الطراونة ، مما أضعف الموقف الدفاعي ، والسبب تساهل شاكر بك وتهاونه(٥٩) .

اشترك جميع أهالي الكرك في الهجوم ، ووقف المسيحيون على الحياد ثم رفعوا الاعلام البيضاء مما جعل المهاجمين يسيئون فهمهم(٦٠) . أما قادة الهجوم فلم يدخلوا الكرك ، فظل قدر المجالي واقفا على قمة الجبل المقابل للقلعة من الناحيةالشرقية(٦١) .

الهجوم على القطرانة :

في يوم الاثنين الموافق ١٩١٠/١٢/٥ ع في الساعة الخامسة مساءا ١٣٢٦/١١/٢٢ ش /٣/ ذي الحجة / ١٣٢٨ هـ جاء عشرة فرسان ونزلوا في محطة القطرانة وتجولوا فيها ثم دخلوا على الموظف (خالد الجركسي) وسألوه عن ابنة لهم لجأت للمحطة ثم امتطوا خيولهم وذهبوا . ولم يكن قصدهم البحث عن الفتاة ، بل التاكد من خلو المحطة من الجنود ، ولما تأكدوا من ذلك هاجمها ١٥٠ فارسا بالبنادق والمسدسات وقتلوا مأمورها توفيق أفندي وآخرين ، في حين اختفى معظم الفنيين ، مما أدى الى ارتباك الامور فيها(٦٢) .

وجاء أول اشارة عن أحداث الكرك من حيفا بهذه الصيغة : « أغار أمس مائة وخمسون فارسا بدويا على محطة القطرانة على الخط الحجازي فنهبوها وقتلوا المأمور وجرحوا البعض ولا يزالون يعترضون القطارات باطلاق الرصاص والمواصلات مقطوعة بين عمان ومعان »(٦٣) .

ولم يكن المهاجمون من البدو فقط ، بل شاركهم فيه أهالي الكرك كما يقول التقرير .

وفي اليوم التالي امتد نطاق الثورة شمالا ووصل الى محطة ضبعة ، وورد في برقية من قائمقامية السلط ما يلي :

« ان مقدارا كبيرا من العربان تجمعوا في المحطات الواقعة بين القطرانة وضبعة وخربوا الخط الحديدي وقطعوا الاسلاك البرقية وقتلوا مأمور محطة القطرانة وجرحوا أربعة من العملة (العمال) ، وأن عربان الطفيلة حاصروا صباح الاثنين مأموري الحكومة والجند »(٦٤) .

وأشارت قائمقامية السلط ان الحمايدة والسلايطة قتلوا مأموري تحرير النفوس والعسكر الموجودين . وفيما بعد ترددت أنباء تفيد ان محطات عديدة هوجمت على طول ١١٠ كم في وقت حرج جدا كان الحجاج فيه على وشك العودة من الديارالمقدسة،

ومنها المحطات التالية : القصر ـ ٢٣٤ كم ، اللبن ـ ٢٤٩ كم ، الجيزة ـ ٢٦٠ كم ، ضبعة ـ ٢٧٩ كم ، خان الزبيب ـ ٢٩٥ كم (كسرت الالات بما فيها التلغراف والزجاج)، سواقة ـ ٣٠٩ كم (هوجمت ثم احرقت) ، قطرانة ـ ٣٢٦ كم،(هوجمت ثم احرقت وقتل مأمور المحطة) ، منزلة ـ ٣٤٨ كم ، فريفرة ـ ٣٦٧ كم (قتل مأمور المحطة مخلص صبري) الحسا ـ ٣٧٨ كم (قتل ملاحظ خزان المياه وملاحظ تبديل الخطوط يحيى شيخو) ، جرف الدراويش ٣٩٧ كم ، عنزة ـ ٤٢٣ كم ، وادي جردون ـ ٤٤٠ كم .

ويلاحظ أن الخط الحديدي الحجازي استهدف من قبل المهاجمين في عمليات بعيدة عن أسباب الثورة المرتبطة بالتجنيد وتعداد النفوس وجمع السلاح ، ولم يكن الهدف قطع الامدادات ، فقد ترددت الانباء ان الهجوم استهدف المحطات في سبيل جمع غنائم كما حصل في القطرانة ، وحصل ما بين الكيلو ٢٣٤-٢٢٢ (القصر وعمان) ثم نهب القطار لان مرتبات ومخصصات الشيوخ لم تصلهم(٦٦) .

الهجوم على الطفيلة :

انقسم الاهالي في الطفيلة ، فقسم أيد الكرك وقسم آخر دافع عن الجنود العثمانيين . وفي اليوم الثاني لنشوب الفتنة في الكرك هاجم مختار قرية صنفحة محمود بن موسى الشباطات دار الحكومة في صنفحة ، وقام آخرون من الحويطات وبعض أهالي الطفيلة بالهجوم في الطفيلة مثلا (جراد بن حرب ونهار العودات) .

وقف ذياب العوران من وجهاء الطفيلة موقفا مضادا ، وفي مذكرة المدعى العام لمحكمة الاستئناف لولاية سورية أتهم ٤٧٣ شخصا في الطفيلة غيابيا و ١٠٨ شخصا وجاها . وبرأ الديوان الخربي المتهمين(٦٧) . والشيء نفسه حصل في معان حيث انقسم أهل معان بين مؤيد ومعارض .

أما في شمال لواء الكرك فلم يشترك سوى الحمايدة والسلايطة في الثورة واستنكر شيوخ البلقاء والعدوان والعجارمة وابو الغنم والفايز وغيرهم هذه الحوادث التي فيها خروج على طاعة السلطان وابرقوا للسلطة بذلك(٦٨) .

الهجوم المعاكس :

ارسلت الحكومة بعد يومين (١٩١٠/١٢/٧) قوة ضخمة من الدرك والفرسان والتقوا بأهل الكرك في معركة حامية ، وتمكنت القوة بقيادة (صلاح الدين) من فك الحصار عن القلعة يوم ١٩١٠/١٢/١٤ ، فهرب أهل الكرك شمالا وجنوبا وشرقا ، وبدأت السلطة في الاعتقالات ثم المحاكمات ومن أبرز محاكمات حوران محاكمة ثلاثة حكم عليهم بالاعدام وهم :

رئيس فرقة اللوانسي علي سليمان اللوانسي ، بتهمة قيادة الهجوم على المفرزة العسكرية والتسبب في مقتل ثمانية عسكريين وضابطين والاشتراك في حصار القلعة ومهاجمة الخط الحديدي والحجازي . ومختار المعايطة ساهر المعايطة ، واتهم بقيادة الجنود على القلعة . مختار الجعافرة درويش الجعافرة(٦٩) . ويلاحظ ان الثلاثة هم قادة في جماعاتهم فالاول هو رئيس فرقة اللوانسي من بني حميدة والثاني والثالث من المخاتير ، فالقيادات شعبية محلية .

خاتمـة :

يلاحظ أن المنطقة شهدت تسارعا في الاحداث وان النصف الثاني من القـرن التاسع عشر في المنطقة كان حاسما . ويلاحظ ان الادارة ابدت اهتماما مفاجئا بالمنطقة وان الجزء الجنوبي من ولاية سورية قد اخذ يحظى بالاهتمام المفاجىء من السلطان ولكن الادارة وقعت في عدة اخطاء ، منها :

١ ــ لم تفهم الادارة البيئة العملية في المنطقة ، ونعني بالبيئة العملية الرأي العام والتدخل الدولي في المنطقة . ويلاحظ أن الرأي العـام كان معبأ ضـد السلطة لعدة أسباب منها ما يتعلق بأمور شخصية مثل عدم تعيين الشيخ قدر المجالي في مجلس الادارة ، وقطع الرواتب عن الشيوخ ومنها ما يتعلق بأمور عامة تهم اللواء كله مثلا احصاء النفوس والتجنيد ، ولقد خلط الزعماء الامور الشخصية بالامور العامة وأثروا على الرأي العام الذي توافرت لديه الاسباب للثـورة . يضاف لما تقدم عدم معرفـة السلطة بحقيقة قوة المنطقة ذات الخبرة في التحالفات ومضاعفة القوة بالتحالف حيث هاجم الكركيون والبدو وغيرهم جميع المحطات الواقعة في متناول يدهم مما يعكس ضعف هيبة السلطة لاسوأ حد .

٢ ــ لم تبادر الادارة باتخاذ الاحتياطات ، وقد علمت في وقت مبكر ان ثـورة سوف تنشب في معان أو بين البدو ولم يعبأ الوالي بما أخبره به (موزيل) .

٣ ــ لم يكن التنسيق بين المسؤولين فعالا . (الوالي وسامي باشا الفاروقي والمتصرف) ووقع المتصرف ضحية للصراع بين العسكريين والمدنيين ودفـع الجميع الثمن .

٤ ــ كانت خبرة أهالي الكرك أكثر من خبرة المسؤولين العثمانيين في انتهـاز فرص المبادهة والتعبئة والتحالف .

وهناك ملاحظات عامة على الثورة ، فقد ركزت على أهداف محددة وهي مهاجمة القلعة والمدينة ومحطات القطار ولم تكن لها افكار وعقائد (ايدلوجية) محددة . حتى

هذا الهدف لم يتحقق اذ أن الدولة تمكنت من السيطرة على الموقف ولم تحقق الثورة هدفا أكثر من كسر هيبة السلطة .

أدت الاحداث اللاحقة الى تخفيف قبضة السلطة على المنطقة ، ثم بدأت الحرب العالمية الاولى ، ولم تظهر نتائج ثورة الكرك بشكل واضح على سياسة الحكومة .

الحواشي

(١) يرثي الشاعر محمود طه الضمور ، احد الذين اشتركوا في الثورة واعدموا . والهية هي الثورة .
انظر : احمد جميل عبد العزيز الضمور ، مخطوط عن عشيرة الضمور بالكرك (عمان ١٩٨٧) القاعة الهاشمية في مكتبة الجامعة الاردنية عمان مسلسل ٢٤٤٥٢٠ صص ٥-٦ .

(٢) الكزاندر شوش ، تحولات جذرية في فلسطين ، دراسة حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، ترجمة د. كامل العسلي ، الجامعة الاردنية ، عمان ١٩٨٨ ، صص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٧٦ .

(٣) محمد كرد علي ، « سكة الحجاز » مجلة المقتطف ، نوفمبر ١٩٠٤ ، صص ٩٧٠-٩٨٠ .

(٤) راجع منيب الماضي وسليمان موسى ، تاريخ الاردن في القرن العشرين ، ط٢ ، (عمان : مكتبة المحتسب ١٩٨٨) ص ١٦ وانظر هزاع المجالي ، مذكراتي (بلا تاريخ ولا ناشر) ص ٤١ .
انظر : د. علي محافظة ، تاريخ الاردن المعاصر ، عهد الامارة ٢١-١٩٤٦ (عمان ، مركز الكتب الاردني ١٩٨٩م) ص ٨ .

(٥) وعن ثورة الكرك راجع : عودة القسوس ، « مذكرات ١٨٧٧ - ١٩٤٣ وثورة الكرك »، هذا المخطوط محفوظ في مركز الوثائق والمخطوطات / الجامعة الاردنية وسوف ننشر لهذا المصدر بالقسوس .

(٦) بيتر جوبسر ، السياسة والتغيير في الكرك - الاردن ، دراسة لبلدة عربية صغيرة ومنطقتها ، ترجمة دكتور خالد الكركي مراجعة د. عدنان البخيت (عمان - ١٩٨٨) ص ١٠٦ وما بعدها . سوف نشير لهذا المصدر بجوبسر .

(٧) انظر طه علي الهباهبة ، الشوبك في التاريخ والوجدان الشعبي (عمان : وزارة الثقافة ١٩٨٤ م) ص ٧٥ .
وقعت الحادثة عندما اراد الجنود الاتراك استخدام النساء في نقل المياه للقلعة فرفض الرجال ووقعت مصادمة ساعد فيها البدو أهل الشوبك .

(٨) انظر عن تأسيس المتصرفية دراسة الاستاذ انجين اكرلي .
Engin Deniz akarli, « Establishment of the Ma' an Karak Mutasarrifiyya 1892 - 1894 » in **Dirasat** Vol. XIII 1986 , No. 1, pp 28-29 .

(٩) انظر سالنامة ولاية سورية لسنة ١٣١٠ - ١٣١١ تعادل ١٨٩٣م ص ٢٤٠ .
وسالنامة لسنة ١٣١١ - ١٣١٢ وتعادل ١٨٩٤ م صص ٢١٦ - ٢٢٢ . وانظر سالنامة ولاية سورية ١٣١٧ هـ - ١٣١٥ هـ . وعن حدود اللواء انظر Akarli, p. 41.
وهناك أسباب عديدة لجعل الكرك مركزا للواء بدلا من معان وبعضها تتعلق بالاستراتيجية والدفاع ويذكر القسوس ان الوساطات مع الباب العالي هي السبب انظر :
Akarli, p. 41.
القسوس ، ص ٤٣ ، يروي ان المرحوم جرسيوس في القدس قد تدخل في الاستانة من أجل تغيير ما حصل في اللواء وفعلا تحقق

له ما اراد واصبحت الكرك مركزا للواء. يحدد الدكتور يوسف دخول حسين باشا يوم ١٨٩٣/١١/٤م ، وان دخوله لمدينة الكرك لم يكن بطريقة عادية تقليدية اذ كان من المتوقع ان يكون هناك مقاومة للسلطة فخيم حسن باشا في الثنية قرب الكرك ثم دخلها بلا مقاومة .

انظر : الدكتور يوسف سليم شويحات العزيزات في مادبا ، بلا تاريخ ولا ناشر ، سوف نشير لهذا المصدر بالعزيزات .

(١٠) شهد اللواء حروبا ومذابح وفتنا بين أهاليه الذين كانوا بحاجة للسلطة وقد ذكر شعراء بعض هذه المذابح مثلا هنا قصيدة مطلعها :

سوينا لزوبر عديل
بين سقع والدرج

أي اننا قمنا بتعويض لما حصل في زوبر وهي وقعة بين أهل الطفيلة والكركية . وسقع والدرج اسماء مكانين . أما الشعراء الاخرين فلقد خلدوا ذكر المذبحة التي تعرض لها الكلالدة (من عشائر الطفيلة) على أيدي عشائر اخرى من الطفايلة :

يا راكبا تسعين ملحة تحني
ما نوقهن غير العبيد المشرات(١)
علمة العوران درهش لهن
وازيونهن راعي العلوم الرديات(٢)
دلالكو لضيوفكو شر بني
يا ذابحين الضيف من عقب ما بات(٣)
تسعين جوز غراب لعبيد جن
يا كل لحم والريش لبعيد رايات(٤)
يا عبيد ذبح الطفل ما هو سنه
ياشين ما يجلي عن القلب حسرات(٥)
أما لن سهل الله والليالي اقبلن
تكتال بصاع المجيدي بعركات(٦)
بضف أو سليمان لهن سرن
بايمانا مثل المحوص المدلات(٧)

١. ملحة : ناقة ، تحني : تحن . العبيد: المشرات : العبيد المشترين .
٢. علمة العوران : شباب العوران والعوران قبيلة في الطفيلة : درهش : استقبل. أزيونهن: قائدهن ، راعي العلوم الرديات: صاحب الاخبار السيئة .
٣. عقب مابات بعد ان نام وقضى ليلته .
لعبيد : عبيد العوران ، جن : جاءت.
٥. ياشين : يا سيء.
٦. تكتال : تستخدم المكيال .
٧. بضف : بمعية ، سرت : خرجن في وقت مبكر ، المحوص : الرماح . المدلات : المتدلية .

القصيدة تشير لمذبحة الكلالدة بايدي الجوابرة بعد ان ناموا عندهم ليلة أو ليلتين . مقابلة مع السيد شوكت المحسين في منزلة بعمان يوم ١٩٩٠/٥/١٨ الساعة الثانية ظهرا وتؤكد روايات السادة :

- عبد الكريم سالم الغبايشة
- سليمان عميشان المعايرة من أهالي الطفيلة
- ياسين سلامة الزغابية

ان هناك تحالفات مزقت المنطقة وانها كانت تتسع وتوقع البعض ان تشمل قبائل سيناء جنوبا والبلقا شمالا والشعلان غربا . مقابلة مع السادة المذكورين اعلاه في مبنى البلدية يوم ١٩٨٩/١١/١ ، الساعة ١١ صباحا . ويشير الكاتب سليمان القوابعة لهذه الاحداث سليمان القوابعة. ويشير الكاتب سليمان القوابعة لهذه الاحداث سليمان القوابعة ، الطفيلة تاريخها وجغرافيتها، ج٢ ، (الطفيلة ١٩٨٦) ص ١٠٢.

(١١) انظر المقتبس عدد ٥٥٨ ١٩١٠/١٢/٢٧ ، ٥٥٣ ١٩١٠/١٢/٢١ القسوس ، ص ٥١ .
(١٢) سالنامة ولاية سورية ١٣١١ – ١٣١٢ ،ص ص ٢١٦–٢١٧ وسالنامة ولاية سورية ١٣١٦ ، ص ص ٢٢٩–٢٣٦ .
(١٣) المقتبس ٥٥٨ تاريخ ١٩١٠/١٢/٢٧ غ .
(١٤) القسوس ، ص ٥١ ، يذكر عودة ان الكرك

ابتليت يصادق باشا وكان يحب الرشوة وله اهتمامات بكلابه فسمي ابو الكلاب وعندما فكر الاهالي بالثورة عليه ارسلت الحكومة خسرو باشا (قائد الاي الجندرمة) فتراجع الاهالي وتولى خسروا أعمال اللواء حتى جاء رشيد باشا.

(١٥) انظر المقتبس ٥٥٨ ١٩١٠/١٢/٢٧ ، ٥٥٣ ١٩١٠/١٢/٢١ .

(١٦) انظر للباحث ، سعد ابو دية « نموذج في دراسة تاريخ واصول العشائر الاردنية (معان) في الوثائق العثمانية» ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، العددان ٣٤/٣٣ ايلول — كانون الاول ، ١٩٨٩م . ص ص ٤٩-٧٤.

(١٧) عشائر العمر من بني عقبة كانت لهم الزعامة اولا قبل ان تأخذها منهم عشائر المجالي.

(١٨) القسوس ، ص ص ٢٦-٢٩.

(١٩) اشار محمد السنوسي للتحالفات انظر : محمد السنوسي ، الرحلة الحجازية ، تحقيق الدكتور علي الشنوفي (تونس ، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨١) ، ص ٢٤٨ — ٣٤٩ .

(٢٠) انقسمت الطفيلة في تحالفها مثلما انقسمت معان حيث ان (الكلالدة) في الطفيلة كانوا حلفاء لاهل الكرك والسبب يرجع لنزاع الكلالدة مع الجوابرة في الطفيلة حيث دبرت عشائر الجوابرة للكلالدة مذبحة على طريقة (محمد علي) باشا حاكم مصر مع المماليك في القرن الماضي ولقد نفذوا هذه المذبحة وقتل كثيرون من وجوه الكلالدة . هاجم الكركيون الطفيلة فانتصروا ثم هاجموا وادي موسى ووقعت مبارزة قتل فيها واحد من العزازمة الفارس مصلح المجالي وتمت الهزيمة بعد ذلك ويعتبر شوكت المحيسن (كاتب وقاضي سابق) افضل من وثق لهذه المذبحة والمركتين اللتين حصلتا بين أهل الكرك وحلفاؤهم من جهة وخصومهم في الجهة الاخرى ويقول إن شاعرا وصف هذا التوازن في المعركتين بقصيدة منها : سوينا لزوبر ..الخ انظر هامش رقم (٨).

(٢١) تفاصيل هذه القضية : ان جنديا مصريا من قوات ابراهيم باشا الموجودة في الكرك حاول الاساءة لسيدة من الكرك من جماعة الحجازين (عشيرة من عشائر الكرك المسيحية) ، فاشتكت السيدة (صبحا) لاسماعيل المجالي الذي اجتمع بجماعته وقرروا طرد القوات المصرية من الكرك وهكذا حصل مما جعل ابراهيم باشا يصب جام غضبه على الكرك ويحرقها. اتهم اسماعيل المجالي بالقيادة والتحريض وأعدم في سوق البتراء بالقدس . بعد الحادث ظهر تحالف ضد الحويطات لان هناك من يتهم الحويطات بالتعاون مع ابراهيم باشا في موضوع القاء القبض على أسماعيل . بيد ان عودة القسوس يتهم جماعات اخرى غير الحويطات وهذا الاصوب . على العموم بدأت التحالفات تظهر . انظر صحيفة الكرمل عدد ١١٢٩ تاريخ ٨ اب ١٩٢٥م وعدد ١١٣١ تاريخ ١٥ اب ١٩٢٥م .

(٢٢) كانت القوات المصرية تعسكر في دارين للضمور والقسوس ولقد هاجم الكركيون هاتين الدارين بعد استلام القوات المصرية في القلعة فان ضابطا اساء لبدوي اخذ طربوشه فهاجمته الجموع ، وبعد هجوم ابراهيم باشا فان دليلا كركيا يدعى جلحد الحباشنة ضلل القوات المصرية وقادها الى منطقة منحدرات القنية وبسبب المطر الشديد فان القوات المصرية حوصرت في قعر الوادي وهوجمت من الكركية مما اضطر ، ابراهيم باشا للتوقف عن المطاردات فترك الكرك واحرقها واخذ معه عشائر مسيحية فاسكنها منطقة بني نعيم في الخليل وظلوا هناك حتى غادر ابراهيم باشا بلاد الشام. ولقد تم اعدام الشيخ اسماعيل المجالي وصالح عبد القادر المجالي في سوق البتراء في القدس.

(٢٣) عن العشائر انظر تقرير القوة السيارة عام ١٩٢٢ في تحديد عشائر الشراقا والغرابا . (القوة السيارة نواة الجيش العربي الاردني اسسها الضابط البريطاني برنتون ثم تولاها بيك) وقد وضعت تقريرا عن العشائر في الكرك يعتبر من ادق الدراسات الميدانية . التقرير موجود في كتاب : خير الدين الزركلي،

عامان في عمان (القاهرة : ١٩٢٦) . ص‌ص ٨٤ـ١٠٨ .
وذكر القسوس عشائر الكرك أيضا، انظر ص٦ وانظر العزيزات وجوبسر وكلهم تطرقوا للعشائر .

(٢٤) تحدث عن هجرة المجالي للكرك العزيزات وذكر انهم جاؤوا عام ١٧٤٠م للكرك وان جدهم جلال بن شديد في‌حين يذكر القسوس ان جدهم مجلي جاء من الخليل عام ١٦٤٠ وان يوسف حفيد مجلي وقف مع الكركية عندما حصلت مجاعة فاستدان رز وقمح لاهل الكرك من القدس والخليل فاحبه الاهلون لهذا السبب ولانه من نسل تميم الداري الصحابي المعروف ولدماثة اخلاقه انظر :
العزيزات ، ص ٣٤.
القسوس ، ص ٦ .

(٢٥) تحرك «موزيل» من دمشق يوم ١٩١٠/٥/٢١ جهة معان بالقطار . كان الوالي اسماعيل فاضل نفسه يقوم بجولة في المنطقة وكان‌يرجح وقوع الثورة في حوران واراد ان يقوم بالحملة بنفسه ولكن وزارة الداخلية رجحت كفة سامي باشا الفاروقي .
اثناء وجود « موزيل » في معان وقع حادث اطلاق النار عفوي من جندي فتوقع الجميع بمن فيهم « موزيل» ان الثورة اندلعت ، انظر :
A. Musil, **The Northern Hejaz** (New York, American Geographical Society 1926) pp. 238 - 239 .

(٢٧) المقتبس عدد ٥٩٢ ، ٥/شباط/١٩١١ غ.
(٢٨) المصدر نفسه .
(٢٩) المقتبس / ٥٨٩ ، ١/شباط ١٩١١م .
(٣٠) المصدر نفسه ، جرى احصاء النفوس قبل الثورة بعشرة ايام .
(٣١) المصدر نفسه .
(٣٢) رواية شكري أفندي مدعي الاستئناف في في الكرك تؤيد هذا الشيء وان حصر النفوس تم يوم ١٠ تشرين الثاني ١٣٢٦ في حين ان الثورة وقعت يوم ٢١/منه . المقتبس ٧٨٤، ١٩١١/٩/١٨ .
وظهر ان أهالي الكرك تهافتوا على جمع النفوس . ولم تظهر مشكلة . انظر المقتبس ١٩١٠/١١/١٣غ ، عدد ٥٢٣ ، ١١ ذو القعدة ١٣٢٨هـ . وتم جمع الاسلحة أيضا ، انظر: المقتبس/عدد ٥٢٤ تاريخ ١٩١٠/١١/١٤غ ، ١٢ ذو القعدة ١٣٢٨ هـ .
(٣٣) القسوس ، مصدر سابق .
(٣٤) رواية المدعي العام في المقتبس/عدد ٧٨٢ تاريخ ١٩١١/٩/١٦ .
ويتهم والي سوريا امير اللواء شاكر بك بسوء الادارة لانه ارسل للكرك اربعة طوابير واحد لمعان وبلوكين لمكان اخر واخذ يعاقر الخمرة في الكرك . رواية الوالي في المقتبس /عدد١/ كانون الثاني ١٩١١ .
(٣٥) المقتبس ، عدد ٥٨٩ تاريخ١/شباط/١٩١١غ.
(٣٦) كان الوالي اسماعيل فاضل قد زار الكرك وطلب اعادة انتخاب الاعضاء ما عدا الشيخ قدر مما أغضب الشيخ قدر .
انظر ، القسوس ، ص‌ص ٥٧ـ٥٨ .
(٣٧) الدليل ، عدد ٣٢٩ سنة ٧ تاريخ ٣/٢٨/ ١٩١٠ .
(٣٨) المقتبس ، عدد ٥٤٧ ، ١٩١٠/١٢/١١ .
(٣٩) المقتبس ، عدد ٥٧٠ ، ١٩١١/١/١٠ .
(٤٠) تصريح والي سورية السابق اسماعيل فاضل منشور في‌المقتبس عدد ٥٩٢، ٥/شباط ١٩١١غ ٢٣/كانون الثاني ١٣٢٦ ش، ٥ صفر ١٣٢٩هـ.
(٤١) المصدر نفسه .
(٤٢) المقتبس عدد ٥٦٤ ١٩١/١/٣.
المقتبس عدد ٥٨٩ ١/٢/٩١١ ١.
(٤٣) المقتبس عدد ٥٨٩ ١٩١١/٢/١ وانظر المقتبس عدد ٥٦٤ ١/٣/٩١١ ١.
(٤٤) المقتبس ، عدد ٥٨٩ ، ١٩١١/٢/١ .
يروي اسماعيل فاضل ان أهل الكرك تعاونوا مع السلطة في الاعمال التطوعية وبناء المدارس وهذا صحيح وقد حصل في الكرك‌والطفيلة .

(٤٥) المقتبس ، عدد ٥٩٢ ، ١٩١١/٢/٥ .

(٤٦) المقتبس ، عدد ٥٨٩ ، ١٩١١/٢/١ .

(٤٧) المقتبس ، عـدد ٥٩٠ ، ١٩١١/٢/٢ . كان لاشتراك الشعلان من (الرولة) دورا هاما في انتصارات سامي باشا حيث قطعوا الطريـق على الدروز من الناحية الجنوبية .

(٤٨) رواية المدعي العام . اخذ عبد القادرفرسين من الجيش في الكرك متذرعا بان معان هوجمت من الحويطات ولكن استغلها في التعبئة .

(٤٩) المصدر نفسه .

(٥٠) يذكر المدعي العام ان المجالي قاوموا الاصلاحات الدستورية لانها تفقدهم امتيازاتهم والواقع ان الامتيازات التي فقدها الشيخ قدرجعلته يقاوم اجراءات السلطة بطريقة غير مباشرة.

(٥١) انظر رسالة والي سورية للمقتبس عدد٥٤٩، ١٣٢٦/١١/٣٠ ش ، ١٩١٠/١٢/١٧ .

(٥٢) المقتبس عدد ٥٦٢ ١٩١١/١/١ .

(٥٣) استجار بسيدة في المنزل .

(٥٤) المقتبس ٥٧٠ ، ١٩١١/١/١٠ انظر روايـة المتصرف وانظر رواية القسوسـي نفسه في القسوس صص ٦٤ـ٦٥.

(٥٥) المقتبس ٥٦١ ، ١٩١٠/١٢/٣١غ . روى شاهد العيان انه استيقظ صباحـا وسمع أصوات نساء يصرخن «اذبحوا الكلاب» فذهب للقلعة فوجد المتصرف والمفتي والقائد والنائب . تم ارسال ثلاثة جنود من نابلس بعد أن غيروا ملابسهم وذهبوا للقطرانة للابلاغ عما حصل .

(٥٦) المقتبس ٥٥٣ ، ٢١/كانون الاول ١٩١٠غ . المقتبس ٥٥٢ ، ٢٠/كانون الاول ١٩١٠غ تقرير وقع عليه المتصرف طاهر ، النائب شكري ، المحاسب محي الدين ، مديـر التحريرات خيري ، المفتي صالح ، العضو عودة القسوس .

(٥٧) القسوس ص ٦٤.

(٥٨) المقتبس ٧٨٤ ١٩١١/٩/١٨ .

(٥٩) المقتبس ٥٧٠ ، ١٩١١/١/١٠ .

(٦٠) المقتبس ٥٥٣ ، ١٩١٠/١٢/٢١ .

كان المهاجمون يرددون يا سامي باشا لا نطيع ولا نعد عيالنا .
لعين مشخص والبنات ذبح العساكر كارنا .
وانظر القسوس ص ٦٧.

(٦١) المصدر نفسه .

(٦٢) المقتبس عدد ٥٤٦ ، ١٩١٠/١٢/١٠ م . عدد ٤٨ ٥، ١٩١٠/١٢/١٢م .

(٦٣) رسالة مكاتب المقتبس عدد ٥٤٤ ، ١٩١٠/١٢/٧غ ٥/ذي الحجة /١٣٢٨ هـ ، ١٣٢٦/١١/٢٤ش

(٦٤) المقتبس عدد ٥٤٥ ، ١٩١٠/١٢/٨ ، ٦/ ذي الحجة / ١٣٢٨هـ ، ١٣٢٦/١١/٢٥ ش .

(٦٦) المقتبس عدد ٥٤٩ ، ١٧/ كانون الاول ١٩١٠ غ ٤/ كانون الاول ١٣٢٦ ش .
المقتبس عدد ٥٥٣ ، ١٩١٠/١٢/٢١ غ .
المقتبس عدد ٥٤٧ ١٩١٠/١٢/١١غ .

(٦٧) المقتبس ٧٨٢ تاريخ ١٩١١/٩/١٦ . وبسبب هذا الموقف فان سامي باشا خلع على الطفايلة كثيرا من الهدايا ومنحت الحكومـة العثمانية الشيخ ذياب العوران الوسـام العثماني من الدرجة الرابعة ، المقتبس ، ٥٥٣ ، ١٩١٠/١٢/٢١ .

(٦٨) المقتبس ٥٤٩ تاريخ ١٩١٠/١٢/١٧ غ ٤كانون كانـون الاول ١٣٢٦ ش ومـن المستنكرين اسماء عائلات واشخاص : سلطان العلي ، شيخ سالم ، شيخ برجس ، شيخ عايد ، شيخ فهد ، شلاش ، عوازم ابو ستة ،دياب الفايز ، مزيد، صايل الشهوان، عبد المهدي، عقيل العقيل .

(٦٩) أوصى اللوانسي بما يلي عند اعدامه :
« أوصي لاهلي على حالهم وحلالهـم . أنـا مو داري اوصي ، الامانة عند الله أوصيهم ببعضهم وأودعهم بعض لبعض » .
وأوصى الجماقرة وقال :
« دمي في رقبة ظالميني ... لو الدولة تحقق»
اما ساهر المعايطة فقد أوصى بما يلي :
« أولادي وحريمي وبناتي ١٦ يخدمون السلطان»
انظر المقتبس ٦٩٢ تاريخ ١٩/مايس ١٣٢٧م ١٠/ حزيران / ١٩١١ تمت اعتقالات اخرى

فاعتقل من المجالي . عبد القادر المجالي ، ابراهيم خليل المجالي مع اشقائه واعتقل شيوخ اخرين من المعايطة وغيرهم مثلا :

١ ـ يوسف المعايطة ٢ ـ داود المبيض
٣ ـ سالم الصرايرة ٤ ـ خلف رمضان
٥ ـ محمود طه الضمور ٦ ـ عبد القادر الجبور
٧ ـ زعل المعايطة ٨ ـ حامد الكفاوية
٩ ـ عارف افندي ١٠ ـ فارس ذنيبات
١١ ـ سليمان فايز منصور طريف ١٢ ـ عبد الله وممدوح بن فارس وموسى بن صالح.

انظر المقتبس ٥٧٣ تاريخ ١٩١١/١/١٤

٥٧٧ ت ١٩١١/١/١٨ ، ٥٨٠ت ١٩١١/١/٢٢ ٥٤٩ ت ١٩١٠/١٢/١٧ .

ولم يلق القبض على قدر المجالي الا في ١٩١١/١١/٦ .

المقتبس ٧٩٠ تاريخ ١٩١١/١١/٣٠ .

ولقد أرادت الحكومة بالقيام بأكثر من الاعدام والانتقام واسترداد المنهوبات حيث فكرت بفصل غور الصافي بالطفيلة ثم فصل هذا اللواء .

انظر المقتبس ٧٣٤ ١٩١١/٧/٢٠ .

* * *

امارة حلب في عهد بني مرداس وعلاقاتها الخارجية

د. شوقي شعث
المديرية العامة للاثار والمتاحف

بعد موت سيف الدولة الحمداني أمير حلب اضطربت الاحوال السياسية في حلب وسورية الشمالية على وجه العموم نظرا لعدم تمكن أحد من خلفائه من حسم الامور لصالحه وبالتالي تأمين الاستقرار ، ويبدو أن ذلك عائد الى الصراع بين أمراء بني حمدان الذين جاؤوا بعده بسبب كثرة الطامعين منهم بالامارة ، وكثرة الطامعين بالبلاد من خارج الحدود ، وتأتي على رأس تلك القوى الطامعة القوى العظمى في ذلك العصر وهي : الخلافة الفاطمية بالقاهرة والخلافة العباسية ببغداد والامبراطورية البيزنطية في بيزنطة ناهيك عن امراء العرب المحليين اهمهم أمراء بني مرداس الكلابيون(١) .

ونظرا لان السياسة الخارجية المرادسية خضعت لعوامل اقتصادية ومذهبية وسياسية ، فقد اختلفت طبيعة العلاقات بينها وبين القوى المتنافسة الرئيسة في المنطقة ، فبات من الضروري الوقوف على طبيعة تلك العلاقات التي تحكمت في سياسة الامارة المرداسية الخارجية .

المرداسيون والفاطميون :

تعود علاقة الفاطميين بحلب الى عهد الدولة الحمدانية خاصة بعد موت سيف الدولة وبعد سقوطها(٢) ظلت الخلافة الفاطمية تتطلع الى السيطرة على حلب وشمال سورية لمواجهة الخلافة العباسية في بغداد ونفوذها في الشام والجزيرة ، وكذلك الامبراطورية البيزنطية التي ساعدت أمراء العرب على نبذ طاعتها أي طاعة الخلافة الفاطمية وتقسيم بلاد الشام بموجب حلف تم بينهم فكانت فلسطين لحسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح أمير طي ، وكانت دمشق لسنان بن عليان امير كلب ، وكانت حلب لصالح بن مرداس أمير كلاب ، اذ تمكن الاخير عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م من اخذ حلب من يد الفاطميين بعد حصار طويل لقلعتها(٣) وظل يحكمها دون منازع حتى عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، وبالطبع لم ينظر الفاطميون بعين الرضا لحلف الامراء العرب وذلك لانه قام على تقليص سلطتهم في بلاد الشام فباشروا من أجل عودتهم الى حلب وبلاد الشام ممارسة سياسة ذات اتجاهين : مهادنة البيزنطيين ، واصطناع آل رافع الكلبيين ، فقد قام الخليفة الظاهر بابرام صلح مع البيزنطيين في عهد قسطنطين الثامن كان من أهم بنوده أن يتوقف الفاطميون عن تهديد حلب لتستمر في دفع الجزية السنوية للبيزنطيين ، وفي مقابل ذلك تعهد هؤلاء بعدم تقديم المساعدة لحسان

الطائي بفلسطين ، وظل هذا الاتفاق صامدا حتى عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م حين قام الخليفة الظاهر الذي عقد هذا الاتفاق مع البيزنطيين . بعد وفاة قسطنطين الثامن ، بارسال جيش كبير تمكن من كسر جيوش تحالف الامراء العرب المار ذكره في موقعة الاقحوانة بالقرب من طبرية عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، فقتل صالح وولده الاصغر وفر ولده نصر الى حلب ولجأ حسان الى الدولة البيزنطية(٤) .

على الرغم من انتصار الفاطميين في هذه الموقعة فانهم لم يتمكنوا من القضاء على المرداسيين أو أخذ حلب من يدهم ، وفي الوقت نفسه أثاروا حفيظة البيزنطيين لانهم نقضوا الاتفاقية التي كانت بينهم من جهة ، واقتربوا من منطقة نفوذهم وحدودهم الجنوبية من جهة اخرى ، اقتسم الحكم بحلب في هذه الفترة ابنا صالح بن مرواس وهما : شبل الدولة أبو كامل نصر وحكم المدينة ، ومقر الدولة ابو علوان ثمال وحكم في القلعة (٥) .

في هذه الفترة اشتد الضغط البيزنطي على الدولة المرداسية وقد أدى ذلك الى توقيع اتفاقية بين المرداسيين والبيزنطيين على قاعدة التبعية عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م على نحو ما سنرى عند الحديث على العلاقة المرداسية ـ البيزنطية . لم ترض بنود هذه الاتفاقية الدولة الفاطمية لاتاحتها الفرصة للبيزنطيين بتدعيم سلطاتهم في شمال سورية ، وقد حاول الامير المرداسي شرح وجهة نظره للخليفة الفاطمي ، فارسل الى القاهرة رسولا من قبله هو شيخ الدولة ابي الحسن بن الايسر بعد أن حمله هدايا الى الخليفة الفاطمي ، مما غنمه المرداسيون من البيزنطيين، شملت الثياب والحلي والاواني وغيرها ، الا أن الخليفة أهمل الرسول فأقام هذا بالقاهرة ينتظر المقابلة مدة خمسة أعوام . ومات الخليفة ولم يستقبله . وتغيرت الاوضاع السياسية وأسفرت عن طرد المرداسيين المقيم البيزنطي بحلب عام ٤٢٦هـ/١٠٣٥م . وعندما حاول دوقس انطاكية اعادة حلب الى التبعية تصدى له الامير نصر المرداسي وكسره وطارده وبذلك تحقق لامارة حلب الاستقلال التام(٦) .

لقيت عملية طرد المقيم البيزنطي من حلب هوى في نفس الفاطميين ، فقام الخلفية الفاطمي الجديد المستنصر(٧) باستقبال الرسول المنسي ، رسول نصر ، ابن الايسر بناء على تنسيب من وزيره الجرجرائي وخلع عليه وسير معه خلعا وتوقيعا للامير المرداسي ولقبه بخمسة ألقاب هي : مختص الامراء ، خاصة الامامة ، شمس الدولة ومجدها ، وذو العزيمتين اضافة الى لقب شبل الدولة ، كل ذلك رغبة في احتواء حلب وملء الفراغ الذي نشأ عن طرد البيزنطيين(٨) .

وبعد ثلاث سنوات من طرد البيزنطيين ومحاولة الفاطميين الحلول مكانهم ، اتفق الطرفان عام ٤٢٩هـ/١٠٢٨م(٩) على عقد هدنة بينهما لم يتمسك البيزنطيون فيها

بالشرط الذي تمسكوا به في اتفاقية عام ٤١٨هـ/١٠٢٧م ، والذي كان ينص على أن لا يتعرض الفاطميون لحلب وبذلك تخلوا عن مطامعهم بحلب مما ترك الفرصة للفاطميين لاستعادة سيطرتهم على حلب ، ومن أجل ذلك قام نائب الفاطميين انوشتكين الدزبري نائب الفاطميين ببلاد الشام بمكاتبة الامبراطور البيزنطي يستأذنه في حرب نصر المرداسي فأذن له(١٠) ، التقى الدزبري بنصر عند تل غربي بلدة السلمية ثم عند تل فاس غربي بلدة لطمين عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م حيث سقط نصر عن جواده وقتل ونقل الى حماه حيث دفن بجامعها الكبير الى أن نقله ابن عمه مقلد بن كامل الى قلعة حلب نحو عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨(١١) .

بعد موقعة تل فاس هذه ، عاد ثمال أخو نصر الى حلب وتجمع أهلها حوله للدفاع عن مدينتهم ضد جيش الدزبري وتقرب هو من أهلها فسدد الديون التي كان أخوه نصر قد استدانها ولاطف كبار تجارها الا انه لم يأمن غدرهم فقرر مغادرة المدينة تاركا ابن عمه مقلد بن كامل على القلعة وخليفة بن جابر الكعسبي على المدينة(١٢) ، ولم يمض على حكمه بحلب سوى شهر واحد ، وتوجه الى الرحبة التي كان يتولاها من قبل أخيه نصر ، وبعد رحيله عن حلب تقدمت جيوش الدزبري الى حلب وتسلم حلب وقلعتها باتفاق الطرفين وبذلك عادت حلب للمرة الثانية الى تبعية نائب الفاطميين بالشام(١٣) .

استقر ثمال بالرحبة وأخذ يمهد الطريق لاستعادة إمارته في حلب ، وقوى صلاته بالقبائل العربية في بلاد الشام والجزيرة عن طريق الزواج ، فتزوج علوية بنت وثاب النميري التي كانت زوجة لاخيه نصر والتي ورثت حكم الرافقة بجوار الرقة (هي الان ضمن الرقة) بعد وفاة أخيها واتبع ذلك بزواج اخر من أرملة شبيب بن وثاب ، وبذلك أصبحت الرحبة والرافقة والرقة في حكم ثمال(١٤) . لكن هذه التحركات لم تكن غائبة عن الدزبري فقاومها بأعمال شبيهة حيث تزوج بنت صاحب ميافارقين وديار بكر ، كما قام بشراء قلعة جعبر القريبة من الرقة وبذلك أصبح ثمال محصورا من الشمال الشرقي ومن الغرب(١٥) ، وفي محاولة لفك ذلك الحصار طلب عون الامبراطور البيزنطي الذي وعده بالمساعدة ، فقام هذا من أجل تخفيف الضغط على ثمال ، بمهاجمة افامية وحماه مما أشغل الدزبري عن ثمال(١٦) .

ويظهر أن الدزبري قام بتلك الاعمال دون علم الخليفة الفاطمي مما أثار الشك في نفسه وخاف من ازدياد نفوذ الدزبري وتعاظم سلطانه ، سيما وأنه كان يتباطىء في تنفيذ أوامر الخلافة بمصر بل انه احيانا كان لا ينفذها . وعندما تأكد للخلافة نية الدزبري عملت على التخلص منه(١٧) ، فكتب الخليفة لثمال توقيعا بحلب شرط أن يحمل ما بقلعتها من الاموال اليه(١٨) . ولم يطل أمر الدزبري ، فثار عليه جند دمشق(١٩) ففر الى بعلبك ثم حماه وبعدها الى حلب الا أن القدر لم يهمله فتوفى فيها بالفالج عام ٤٣٣هـ/١٠٤٢م(٢٠) .

عاد ثمال الى مقر إمارته بحلب في ظل التبعية الفاطمية بعد أن تسلمها من بنجوتكين(٢١) بموجب توقيع المستنصر له ، ولكنه بعد أن استقر في حلب ووطد الامن فيها لم يلتزم بارسال ما اشترطه الخليفة الفاطمي من ارسال جميع ما بقلعة حلب من الاموال الى مصر ، فقد قام باجتزاء مبلغ كبير من المال بحجة عمارة القلعة وتعويض ما هلك من الاسلحة وما نفذ من العدد . وعندما علم المستنصر بالامر تغير عليه(٢٢)، ومع أن الوزير فخر الملك أبا منصور صدقه بن يوسف الفلاحي(٢٣) حاول التقليل من اهمية الحدث واصلاح ذات البين بين أمير حلب المرداسي والخليفة الفاطمي الا أن ثمال لم يوصل ما انقطع الا بعد عامين ، فعد ذلك عصيانا من ثمال يستوجب التأديب عليه من وجهة نظر المستنصر . ومن أجل ذلك سعى لقطع الطريق عليه اذا ما حاول الاستنجاد بالبيزنطيين ، فقام بتجديد الهدنة التي وقعها معهم وتبادل معهم الهدايا الثمينة وذلك عام ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م(٢٤) . وفي السنة التالية صدرت أوامر الخليفة المستنصر الى نائبه بدمشق ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني بالسير الى حلب لحرب ثمال ولكنه هزم وعاد الى دمشق بعد أن تخلى لثمال عن حماه وحمص وبذلك عادت حدود الامارة المرداسية الى سابق عهدها(٢٥) .

أثارت هزيمة ناصر الدولة الحمداني غضب المستنصر فعزله وولى مكانه بهاء الدولة طارق الصقلبي(٢٦) ، وانفذ أمير جيشه عدة الدولة أبو الفضل رفق الخادم عام ٤٤١هـ/١٠٤٩م لقتال المرداسيين ، غير أن حظه لم يكن بأسعد من حظ ناصر الدولة ، فوقع في الاسر جريحا وحمل الى حلب وشهر به بأن أركب على بغل مكشوف الرأس ومعه عدد من كبار جنده فاختلط عقله ومات بالقلعة بعد ثلاثة أيام(٢٧) .

كان للهزائم التي أوقعها المرداسيون بجيوش الفاطميين أثر كبير في اعادة تنظيم الادارة المركزية الفاطمية بالقاهرة فقام الخليفة بالقبض على وزيره صفي الدين الجرجرائي ونفيه الى صور ، وحمله مسؤولية تلك الهزائم لانه أشار عليه بارسال تلك الحملات العسكرية(٢٨) ، كما أفرج عن ناصر الدولة الحمداني والغى منصب الوزارة واستحدث منصب « الواسطة »(٢٩) ثم ما لبث أن عاد الى تسمية الوزارة عندما قلد قاضي القضاة أبا محمد الحسن اليازوري (نسبة الى بلدة يازور بفلسطين) وسماه سيد الوزراء(٣٠) .

وجد ثمال في تغيير الجهاز الاداري بالخلافة الفاطمية فرصته في اعادة ما انقطع، فطلب ود المستنصر لانه رأى ذلك أنفع له من استمرار العصيان ، بعد أن علم أن الفاطميين يعملون سراً لاسقاطه ، فأرسل رسولا هو شيخ الدولة علي بن أحمد الاسر بقسط من الاتاوة المفروضة عليه وبعض الهدايا والنفائس الجميلة ، وسير معه ولده «وثاب» وزوجته علوية رغبة في اثبات حسن النية فقبل المستنصر توبة ثمال ووقع له بحلب وسائر أعمالها(٣١) .

بدأ منذ عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م موقف ثمال يتحرج بسبب ظهور قوة ثالثة ، هي القوة السلجوقية التي كانت تحكم الى جانب الخليفة العباسي ببغداد ، وكان عليه أن يتلمس طريقه بين هذه القوى المتشاحنة المتباينة في الملة والنحلة والمصالح ، وعندما قام البساسيري بثورته ضد الخليفة العباسي أمده بالمال وتنازل له عن الرحبة كل ذلك من أجل ارضاء الخلافة الفاطمية(٢٢) ، ولكنه كان في كل ذلك مترددا خائفا من الخديعة فوقع بذلك بين غضب الفاطميين ، بسبب ذلك التردد ، وبين التوسع السجلوقي غربا فزاد قلقه وبدأ يخاف على امارته وبالتالي على نفسه ، فكتب الى المستنصر كتابا في عام ٤٩٩هـ/١٠٥٧م ، بتشجيع من المؤيد هبة الله الشيرازي ، يظهر فيه رغبته « أن يتفيأ ظلاله ويسكن الى جواره ويتنازل له عن حلب »(٢٣) . وسرعان ما لبى المستنصر طلب ثمال وأرسل ابن ملهم العقيلي الملقب بمكين الدولة نائبا عنه الى حلب فتسلمها من ثمال وعوضه عنها عكا وبيروت وجبلة(٢٤) ، لكن ثمال لم يباشر حكمها بنفسه وانما أناب عنه غيره لانه أجبر على الاقامة بالقاهرة(٢٥) .

عادت أطماع المرداسيين من جديد لأخذ حلب ، شجعهم على ذلك فشل حركة البساسيري ، وعندما لم يتمكن عز الدولة محمود بن نصر من أخذ حلب عندما سار اليها(٢٦) ، أثار الاحداث ضد حاكمها ، فطلب ابن ملهم النجدة من القاهرة(٢٧) ، فأنجد بجيش على رأسه ناصر الدولة الحمداني ، الا أن عز الدولة محمود بن نصر تمكن عند تل السلطان (الفنيدق) من الحاق الهزيمة بناصر الدولة وابن ملهم ، ووقع ناصر الدولة بالاسر (٢٨) مما شجع أمراء العرب على الالتفاف حول عز الدولة وحاول ابن ملهم بذر الشقاق بين عز الدولة محمود وعمه عطية فسلم حلب لعطية ، الا أن محمودا جاء في نفس اليوم الذي تسلم عطية فيه المدينة ودخلها وذلك عام ٤٥٢هـ/١٠٦٠م(٢٩) . ويقول عبد المولى ، نقلا عن المؤرخ البريطاني جب ؛ ان ذلك العام كان الميلاد الحقيقي للدولة المرداسية(٤٠) .

آلمت هزيمة محمود بن نصر المرداسي لناصر الدولة المستنصر ولكنه لم يكن في وضع يمكنه من الرد السريع على تلك الهزيمة لاضطراب أحوال مصر السياسية والاقتصادية وجاءت هذه الهزيمة لتزيد الامر تعقيدا ، وفي محاولة لتهدئة الامور وايجاد حلول لتلك الازمة ، ألقى القبض على وزيره اليازوري بتهمة اتصاله بالسلاجقة أعدائه(٤١) ، كما تمكن من اخماد ثورة الجند واسترضى الناس ، وبذلك هدأت الاحوال ، وبدأ يفكر بحل للعقدة المرداسية ، فدله تفكيره على ضيفه ثمال المقيم اقامة اجبارية بالقاهر . وثمال هذا هو عم محمود بن نصر أمير حلب الجديد ، الخارج على الدولة الفاطمية ، فقام باسترجاع الاقطاع الذي أقطعه اياه (٤٢)، وقال له « هذه حلب وقد أخذها ابن أخيك فتمضي اليها وتستعيدها منه » ؛ وأمده بالسلاح والمال . فسار ثمال الى حلب وتجمع الناس حوله وهو في الطريق اليها ، واستنجد محمود بمنيع

ابن شبيب النميري الذي هب لنجدته بنفسه ، وحاول الاستنجاد بالروم البيزنطيين فلم ينجدوه ، وأخيرا تمكن ثمال من استرداد حلب بموجب صلح تم بينه وبين ابن أخيه محمود عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م كتابع للخلافة الفاطمية(٤٣) .

حافظ ثمال هذه المرة وهي المرة الثالثة التي يحكم فيها كزعيم للامارة المرداسية والتي لم تمتد سوى سنة وتسعة أشهر على علاقة الود مع الفاطميين ، لأنهم هم الذين أعانوه على استرداد امارته ، لكنه انشغل في حرب مع الروم البيزنطيين خاصة مع انطاكية(٤٤) وتبادل الغارات معهم ولم يمهله القدر فمرض ومات في الايام الاولى من ذي القعدة عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، ولما شعر بدنو أجله استدعى أخاه أبو ذؤابة عطية من الرحبة وعهد له بحكم حلب(٤٥) .

المرداسيون والسلاجقة العباسيون :

كانت إمارة عطية على حلب بداية حرب أهلية بين عطية هذا وبين ابن أخية محمود بن نصر ، الذي كان يقول إن إمارة حلب له لأن ثمال شرط على نفسه أن يردها اليه بعد وفاته عندما تسلمها منه ، سيما وانه ، أي محموداً ، استرد حلب بسيفه من الفاطميين(٤٦) . وبذلك انقسم البيت المرداسي قسم يشايع عطية والقسم الآخر يشايع ابن أخية محمود ، وما يهمنا هنا هو المداخلات الخارجية في ذلك الخلاف العائلي . وعلى الرغم من أنه جرى اتفاق بين الطرفين عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م(٤٧) الا أن محمود لم يلتزم بذلك الاتفاق(٤٨) ، ومن أجل التخلص من منافسه قام عطية بالاستنجاد بالسلاجقة . ويبدو أن ذلك تم بمباركة بيزنطية(٤٩) . ولكن سرعان ما دارت الاحداث(٥٠) فانحازوا الى محمود والتقوا بعطية الذي اضطر بعد معركة مرج دابق عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م الى تسليم حلب الى ابن أخيه محمود على أن يحتفظ بحكم اعزاز ومدن الفرات ، وبهذا تم تقسيم الامارة المرداسية ، الذي كان مقدمة لاضعافها ثم سقوطها(٥١) .

عندما أخذ نفوذ السلاجقة العباسيين بالتنامي في سورية الشمالية قابله ضعف وتراجع للنفوذ الفاطمي ، فقام محمود بن نصر بنقل الخطبة على منابر حلب الى الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ألب أرسلان(٥٢) ، ويورد ابن الاثير أسباب ذلك التغيير بقوله وسبب ذلك أنه (أي محمود بن نصر) رأى أقبال دولة السلطان ألب ارسلان وقوتها وانتشار دعوتها فجمع أهل حلب وقال : « هذه دولة جديدة ومملكة شديدة ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلون دماءكم لاجل مذاهبكم والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأت وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل ، فأجاب المشايخ الى ذلك ولبس المؤذنون السواد وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان »(٥٣) ، الا أن السلطان السلجوقي ألب ارسلان لم يقبل بالخطبة على المنابر بحلب للخليفة العباسي وله واعتبر

ذلك بابا من أبواب الشكل أو الخداع ، وكان طلبه تقديم فروض الطاعة والولاء من الامير المرداسي كغيره من امراء العرب وتقديم ما فرضه عليه من الاموال ، كان محمود يخاف من واجهة الب ارسلان وقد فشلت جميع الوساطات والمفاوضات بين الطرفين(٥٤) . وعندما تقدم ألب أرسلان وفرض الحصار على مدينة حلب ومن ثم على قلعتها وجد محمود أن لا مفر من موادعة السلطان وملاقاته ليلا بصحبة والدته التي تمكنت من اقناع السلطان بالصفح عن محمود وتثبيته في ملكه كتابع للخلافة العباسية، وبالتالي للسلطان السلجوقي ، وذلك عام ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م ، ينفذ ما يطلب منه(٥٥). وكان على رأس تلك الطلبات بالطبع محاربة الفاطميين أسياده بالامس والروم البيزنطيين حلفاء الامارة المرداسية وقت الشدة ، فقام بناء على طلب السلاجقة بغزو دمشق ومقاتلة القائد الفاطمي ابن منزو الكتامي في ٤٦٣هـ/١٠٧١م(٥٦) ، كما قام بملاقاة البيزنطيين وعمه عطية اللاجىء عندهم وهزمهم(٥٧)، واغار عام ٤٦٤هـ/١٠٧١-١٠٧٢م على طرابلس الشام(٥٨) ، وهكذا كانت سياسة محمود في هذه الفترة تقوم على ارضاء سادته الجدد ، وبتلك السياسة يبدو انه حافظ على امارته من الانهيار ، ويعده بعض المؤرخين اخر أمراء بني مرداس الاقوياء الا أن الظروف قهرته(٥٩) .

توفي الامير محمود بن نصر عام ٤٦٧ هـ/١٠٧٥، بعد نحو أربعة أعوام من خضوعه للعباسيين والسلاجقة ، وتولى الامارة بعده ولده الاكبر أبو المظفر نصر الثاني الملقب بجلال الدولة ، وسار الامير الجديد على سياسة والده بالولاء للسلاجقة ومحاربة الفاطميين والبيزنطيين ، الا أن « ملك شاه » السلطان السلجوقي الجديد لم يقنع بما قنع به سلفه ألب أرسلان ، فلم يكتف بالولاء، وأخذ يعمل للقضاء على الاستقلال الشكلي للامارة المرداسية واحتواء حلب ، ويضيق الخناق عليها سيما وأن الامير المرداسي الجديد لم يكن على قدر من المسؤولية والقوة فمال الى الانغماس في السكر والملذات فثار عليه الجند الاتراك ورموه بسهم قاتل وولوا أخاه أبا الفضائل سابق الملقب بعز الدولة مكانه(٦٠) .

اضطربت أحوال الامارة المرداسية في عهد سابق بسبب ازدياد نفوذ الغز الناوكية . وعندما تذمر الكلابيون من ذلك لم يصغ اليهم سابق فانتفضوا عليه وكان على رأس المعارضين أخواه وثاب وشبيب وابن خاله مبارك ، وتمسك كل فريق برأيه فحدثت الحرب الاهلية(٦١). وطمع السلاجقة في حلب مستغلين الظرف وحاصروها فخاف أهل حلب من الاتراك المرتزقة الذين كانوا في الجيوش السلجوقية واتفقوا فيما بينهم على تسليم حلب الى أمير الموصل العربي شرف الدولة مسلم العقيلي على الرغم من معارضته المرداسيين فجاء العقيلي وتسلم المدينة عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩ - ١٠٨٠م واسترضى سابقا باقطاعه الرحبة وأخويه قلعتي أعزاز والاتارب ثم تزوج بأختهم «منيعة »(٦٢) مخلصا بذلك حلب من شر الاتراك وقاطعا الطريق على

غيرهم من الطامعين ، ومحققا السياسة العباسية في بلاد الشام(٦٣) ، وبذلك انقرضت دولة بني مرداس في حلب وشمال الشام(٦٤) .

المرداسيون والبيزنطيون :

يميل نفر من المؤرخين الى الاعتقاد بأن الامارة المرداسية قامت في ظل الحماية البيزنطية بموجب اتفاق بين الطرفين يقوم المرداسيون بموجبه بدفع جعالة سنوية للبيزنطيين ، وثار خلاف بين الفاطميين والبيزنطيين حول هذه المسألة واتفق الطرفان في النهاية على ابرام صلح بين الخليفة الظاهر والامبراطور قسطنطين الثامن ينص على توقف الفاطميين عن تهديد حلب لتستمر في دفع ما ترتب عليها سنويا للبيزنطيين وفي مقابل ذلك يطلق البيزنطيون يد الفاطميين في جنوب بلاد الشام ولا يقدموا أي عون لحسان الطائي صاحب فلسطين(٦٥) . الا أن الفاطميين لم يتقيدوا بتلك الاتفاقية وقاموا بمهاجمة الحلف العربي الذي المحنا اليه فكانت معركة الاقحوانة على نحو ما أسلفنا . أثار هذا العمل بالطبع غضب البيزنطيين فقاموا بدفع ميخائيل سبونديل دوق انطاكية بالاغارة على حصن قيبار الواقع ضمن ممتلكات المرداسيين الا أن هؤلاء هزموه(٦٦) ، فرأى الامبراطور أرمانوس الثالث أن لا مفر من قيادة الجيش البيزنطي بنفسه لاعادة التوازن الذي جرى الاخلال به على أثر نقضه من قبل الفاطميين . وجاءت الفرصة سانحة عند استنجاد نصر المرداسي به ضد أخيه ثمال فسار على رأس جيش كبير جداً من الجند النظاميين والمرتزقة(٦٧) . ولما علم الاخوان المرداسيان بخبر هذه الحملة تناسيا خلافاتهما واستعدا لمواجهة الامبراطور البيزنطي على الرغم من اظهارهما ميلا للمسالمة ، فقام نصر بارسال سفارة الى أرمانوس على رأسها ابن عمه سيف الدولة مقلد بن كامل بن مرداس يعرض عليه التزام المرداسيين بشروط الهدنة المعقودة بين الطرفين ومعاودتهم للتبعية ، الا أن أرمانوس لم يعبأ بهذه السفارة وتجاوز الاعراف الديبلوماسية بأن أقدم على سجن السفير(٦٨) . تقدم الامبراطور البيزنطي من انطاكية الى حلب ونزل بجيشه عن تبل (ولعلها نبل) الى الشمال الغربي من حلب واخذ يرسل السرايا لاختبار قوة خصمه ، وكان من بين تلك السرايا سرية بقيادة ليو / خيرو ــ سفاكتيس Leo Chirosphaktes الا أن الكلابيين كمنوا له وأوقعوا به وأسروه(٦٩) . وشجعت هذه الواقعة القبائل العربية على التدفق من كل حدب وصوب يطوفون المعسكر البيزنطي ويمنعون عنه المياه والمؤن فأسقط في يد الامبراطور واضطرب جيشه فقرر العودة الى انطاكية فطارده المرداسيون الكلابيون وأوقعوا به هزيمة منكرة يتحدث كثير من المؤرخين العرب والاجانب عنها(٧٠) ، ويذكر بعضهم أن الامبراطور هام على وجهه واستبدل بخفه الاحمر المعروف به خفاً أسود للتمويه على مطارديه . لكن بعض جنده تعرف عليه وحملوه قافلين به الى حدود بلادهم(٧١) . الا أنه لم يمض وقت حتى عادوا الى الضغط على حلب للثأر من موقعة

قبل عامي ٤٢١ و ٤٢٢هـ / ١٠٣٠ و ١٠٣١م وفي النهاية اضطر الامير المرادسي الى توقيع هدنة معهم على قاعدة التبعية عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١ م ، على ان يحمل نصر كل عام الى البيزنطيين خمسمائة الف درهم على قسطين ، وان يطلق سراح أسيره القائد البيزنطي خيرو سفاكتيس ، ومقابل ذلك يطلق البيزنطيون مقلد بن كامل السفير السجين(٧٢) . ونلاحظ في هذه الفترة استمرار العلاقة الحميمة بين المرادسيين والبيزنطيين ، خاصة في عهد نصر ، حتى أنه اشترك معهم في حملاتهم العسكرية ضد الفاطميين ، كما هدد بهم عام ٤٢٣هـ / ١٠٢١ م عندما أراد النائب الفاطمي أنوشتكين الدزبري مهاجمة حلب(٧٣) .

بعد موت أرمانوس الامبراطور البيزنطي وتولي ميخائيل الرابع أصاب الامبراطورية بعض الضعف فوجد الامير المرادسي الفرصة للتخلص من التبعية البيزنطية فطرد نائبها عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م(٧٤) ، ويبدو أن هذه الخطوة جاءت بتشجيع من الفاطميين وتدخل في آلية السياسة الخارجية المرداسية القائمة على صيانة كيان الامارة ، وبالطبع رحب الفاطميون بهذه الخطوة واستقبل الخليفة الفاطمي الجديد المستنصر رسول نصر ابن الايسر وخلع عليه وسير معه خلعا للامير المرداسي على نحو ما مر معنا عند الحديث عن العلاقات الفاطمية المرداسية(٧٥) .

في هدنة عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م تخلى البيزنطيون عن حماية الامارة المرداسية وسمحوا للفاطميين بمحاربة المرداسيين مما مهد الطريق للاستيلاء على حلب واعادتها الى التبعية الفاطمية . ومع هذا لم يغب البيزنطيون عن المسرح السياسي في سورية الشمالية واستمروا في مراقبة الوضع حتى لا يخل ميزان القوى السياسية في ذلك العصر ، كما أن المرداسيين أنفسهم حرصوا دائما على علاقة هادئة مع البيزنطيين لأن في ذلك ردعا للاطماع الفاطمية التي كانت تهددهم باستمرار ، حتى أننا نجد « ثمال » الامير المرداسي يحاول اتباع سياسة التوازن بين الفاطميين والبيزنطيين ففي الوقت الذي كان فيه يقبل الخلع والتشريف المرسلة من الخليفة مع ابي الغنائم صالح بن علي أبي شيبة نجده يتبادل وفي نفس السنة الهدايا مع الامبراطورة البيزنطية تيودورا الثانية Theodora II ، كما نجد ، بعد موت ثمال ، وتولى اخيه ابو ذؤابة عطية ، وقوف البيزنطيين الى جانبه في حربة مع محمود بن نصر ، ابن أخيه ، وامداده بالخلع والدنانير « اكراما لاسد الدولة عطية لانه كان مهادنا لهم » ، كما سمحوا للنجدات السلجوقية أن تمر في أراضيهم ، والجأوه الى ديارهم عندما فقد أملاكه فظل في بيزنطة حتى مات عام ٤٦٥هـ/١٠٧١(٧٦) . ويبدو أن موقعة منازكرد :(ملازجرد) (١٠٧١م) التي هزم فيها السلاجقة البيزنطين فتحت أبواب آسيا الصغرى وبلاد الشام أمام تأسيس الامارات السلجوقية على حساب البلاد البيزنطية(٧٧) .

أضواء على سياسة المرداسيين الخارجية :

سبق أن المرداسيين لم تكن لهم سياسة خارجية دائمة ، فنجدهم تارة مع الفاطميين وتارة مع البيزنطيين وفقا لاطماعهم ، وقد يكون سبب ذلك ان دولتهم كانت قبلية عشائرية ،اضافة الى كونها دولة حدودية منطلقها ،كما يبدو ، انه لا وجود لعدو دائم ولا لصديق دائم ، وانما هناك مصلحة دائمة فهل هذا هو الذي حدا بهم الى التنقل من سيد الى حام ومن حام الى صديق وبالعكس ..عموما ان هذه الدولة الصغيرة لم تملأ الفراغ السياسي والحضاري الذي تركته الدولة الحمدانية السابقة وجودا لها ، وهي كغيرها من دول القبائل التي ظهرت في القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين ، في العراق والشام وكانت اضعافا للخلافة العباسية ، حيث أصبح المرء يجد دولا صغيرة كثيرة في غرب اسيا ، وقد ادى هذا بالطبع مع غيره من الاسباب الى اثارة طمع القوى الاجنبية كالروم البيزنطيين والافرنج الصليبين ، وبالتالي الى تعرض البلاد العربية الاسلامية الى هجمة صليبية لم يستطع العالم العربي الاسلامي التخلص منها الا بعد قرنيين من الزمان تقريبا .

ومن الحق أن يقال ان المرداسيين بذلوا جهدا كبيرا في سبيل الاحتفاظ بامارتهم حرة مستقلة ، الا أنهم اضطروا للانحياز الى البيزنطيين تارة أو الى الفاطميين تارة اخرى في سبيل بقاء الامارة ، ومع هذا فانهم عندما كانوا يجدون فرصة للتخلص من هؤلاء أو اولئك كانوا يهتبلونها ، وفي هذا البحث أمثلة كثيرة تدل على رغبة المرداسيين في الاستقلال التام بامارتهم وفي رأينا أنه لولا انانية بعض الامراء المرداسيين وجشعهم الذي كان يؤدي الى انقسام الامارة أحيانا أو الى قيام الحرب بين امراء الاسرة ، كما كان يقود في أحيان كثيرة لان يستظهر الواحد منهم على الاخر بالروم البيزنطيين أو الفاطميين ـ لا ستمرت في العيش اطول من المدة القصيرة التي عاشتها (٤١٤-٤٧٢هـ) أي نحو ثماني وخمسين سنة .

لقد كان ضعف الامارة في أواخر أيامها والخلافات بين الاخوة سابق بن محمود آخر امراء بني مرداس في حلب وأخويه وثاب وشبيب سببا في جعل كثير من أمراء العرب ينفضون من حولها ويلتحقون بالسلاجقة الذين أخذوا يهددون الامارة المرداسية بالحاقها بممتلكاتهم ، غير مكتفين بالتبعية كما المحنا سابقا ، وأطمعت شرف الدولة مسلم بن قريش ابن بدران العقيلي صاحب الموصل فسار اليها بعد أن تلقى طلبا من أهل حلب لنجدتها وحاصر القلعة واستولى عليها . وقد أحسن العقيلي للمرداسيين وأقطعهم الاقطاعات واقترن باختهم منيعة ، ثم أرسل الى ملكشاه سلطان السلاجقة والخليفة العباسي ليقراه على حلب مقابل مبلغ من المال يؤديه سنويا ،

وبهذا قضي على الامارة المرداسية التي شغلت السياسة الدولية في حلب وشمال الشام مدة تزيد على نصف قرن من الزمان .

وفي الختام يمكن القول انه على الرغم من الحروب المستمرة التي كانت تخلق الاضطراب في كثير من الاحوال الا أن حلب حافظت في ظل الدولةالمرداسية على ازدهار اقتصادي كبير يؤيد ذلك مما سجله الرحالة الفارسي ناصر خسرو عندما زارها عام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م حيث ذكر أن تجارا كثيرين كانوا يأمون المدينة من العراق ومصر وآسيا الصغرى وكان المرداسيون يفرضون مكوسا(٧٨) (ضرائب باهظة) في بعض الاحيان ، كما نجد الطبيب النصراني البغدادي ابن بطلان يتحدث في رسالة لأحد أصدقائه عن زيارته لحلب في عهد المرداسيين قائلا : « المدينة محاطة بسور مبني بالحجر الابيض ، فيه ستة أبواب وقد قامت قلعتها القديمة الى جانب السور وازدانت قمة الرابية بالعمائر الدينية وكانت بالمدينة عدد من الكنائس ومسجد جامع كما أن هناك مشفى ، وأهل المدينة يستقون من أحواض تجمع فيها مياه المطر ، وكان في بناء واحد من مباني السوق عشرون تاجرا من تجار الالبسة كانوا بعشرين سنة يجرون أعمالا تجارية تقدر بعشرين ألف دينار في اليوم الواحد »(٧٩) .

كما شهد هذا العصر تفتحا ذهنيا كبيرا على الرغم مما كان سائدا من فوضى سياسية وتشاؤم فكري أحيانا ، وقد انعكس ذلك جليا في شعر ابي العلاء المعري التنوخي الذي كان يمثل روح عصره في شعره وكانتله مكانةمرموقة في قومه ومجتمعه وهذا مادفعه الى الخروج في احدى المرات ليتوسط لدى صالح بن مرداس بشأن ستين من وجهاء بلدته كان صالح قد اعتقلهم فنزل صالح على طلبه تكريما لذلك الشاعر الفيلسوف(٨٠) .

الهوامش

(١) بنو مرداس عشيرة من عشائر كلاب بن ربيعة من بطون بني عامر بن صعصعة من عرب الشمال الحجازية ، والدمرداش هو ادريس بن نصير بن حميد بن مدرك بن شداد ... ابن كلاب . ذكر هذا الدكتور محمد احمد عبد المولى في كتابه بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام ط ١٩٨٥، ص ١١و٢٨، حاشية (رقم ٢) نقلا عن ابن خلكان فيوفيات الاعيان وأبناء الزمان ، ج ١ تصحيح محمد بن عبد الرحمن العدوي القاهرة ١٢٧٥هـ ، البلاذري : انساب الاشراف جا تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، مجموعة ذخائر العرب (رقم ٢٧) ، نشر معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩ بالتعاون مع دار المعارف بمصر .

(٢) منذأن أخذ الفاطميون مصر عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م حرصوا على تأمين حدود مصر الشمالية الشرقية وقد تمكنوا من السيطرة على جنوب الشام عام ٣٥٩هـ /٩٧٠ م ، وظلوا يحاولون مد تلك السيطرة نحو الشمال ، وعلى الرغم من الهدنة التي عقدوهامع البيزنطيين ،ومدتها

سبع سنوات ، الا انهم ظلوا يتطلعون الى امتلاك حلب الى أن أصبحت ولاية فاطمية عام٤٠٧هـ/١٠١٧م بعد طرد منصور بن لؤلؤ بسبب تواطؤ غلامة ابن نصر فتح المعروف بالقلعي ضده مع الفاطميين والكلابيين فولى الخليفة الحاكم بأمر الله أبا شجاع فاتك الارمني مملوك بنجوتكين ولقبه « أمير الامراء » عزيز الدولة وتاج الملة . انظر : (عبد المولى محمد أحمد (الدكتور) في كتابه : بنو مرداس الكلابيون ٠٠) ، الاسكندرية ١٩٨٥ ص ١٥-٢٣، وكذلك ابن العديم زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج ١ ص ٢١٥ — ص ٢١٦ ، تحقيق سامي الدهان، المعهد الافرنسي بدمشق ، ١٩٥١ — ١٩٥٤ ٠

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٩ ص٧٩ ،عبد المولى المصدر نفسه ص٢٥، ويذكر عبد المولى ان صالح بن مرداس أخذ حلب عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م من نائب حلب الفاطمي سديد الدولة أبي الحارث ثعبان الكتامي ومن نائب قلعتها. وصوف الخادم ويبدو ان المجاعة التي حلت بمصر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣-١٠٢٤ هي التي منعت الفاطميين من الرد السريع على المرداسيين ، ويتحدث عن تلك المجاعة المقريزي في كتابة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ج٢ (القاهرة ١٣٢٤هـ) ص ١٦٨-١٦٩٠

(٤) ابن الاثير ج٩ ص ٢٣١ (حوادث عام ٤٢٠)، ابن العديم ج ١ ص٢٣١ ، ابن تغري بردي ج٤ ٢٥٢-٢٥٣ ، وفي ابن القلانسي ص٧٣ يذكر أنه خلال المعركة لحق رجل من عرب فزاره اسمه طريف بن صالح المرداسي وضربه بالسيف على رأسه فوقع عن فرسه وقام رجل اخر بقتله وقطع رأسه ، وحمله الى رافع بن أبي الليل الذي حمله بدوره الى الدزبري نائب الفاطميين بالشام ,ويذكر أيضا هذه الرواية ابن العديم ج ١ ص ٢١ الا ان روايته تضيف ان رافع هو الذي قطع راس صالح المرداسي، سرور محمد جمال الدين النفوذ الفاطمي في بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ط٢ ، ١٩٥٩القاهرة ، ص٥٦٠

(٥) ابن العديم ، ج١ ، ص ٢٣٧ ٠

(٦) ابن الاثير ج٩ ص ٤٤٤، ابو الفداء م١/ج٢ ص١٦٦ ، ابن تغري بردى ج٤ ص ٢٥٣-٢٥٤ ٠

(٧) تولى بعد موت والده الظاهر وكان عمره سبع سنين وحكم مصر منذ ٤٢٧هـ/١٠٣٦ حتى ٤٨٧هـ/١٠٩٥م أي نحو ستين عاما وزر له الجرجرائي ٠ انظر المقريزي في الخطط ج٢ ص١٩٦-١٧٠، ابن تغري بردي ج٥ ص١٠

(٨) ابن العديم ، ج١ ص ٢٤٨٠

(٩) ابن القلانسي ص ٧٥ ابن الاثير ج٩ ص ٤١٠، ابو الفداء م١/ج٢ ص ١٦٢، ابن العديم ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها ٠

(١٠) ابن العديم نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

(١١) ابن العديم ، ج ١ ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٣١ — ٤٦٠ ٠ ابن القلانسي، ص ٧٤-٧٥ ٠ ابو الفداء، م١/ج٢ ،ص١٤٨٠ ابن خلدون ، ج٤ ، ص٢٧٢-٢٧٣ ٠

(١٢) عبد المولى ، بنو مرداس ، ص ٩١ ٠ ابن العديم ، ج ١ ص ٢٥٥٠

(١٣) ابن العديم ، ج ١ ص ٢٥٧ ٠ ابو الفداء، م ١ ج٢ ص ١٤٨ ، ابن تغري بردي، ج ٥ ص٧٢ ٠

(١٤) سبطين الجوزي ج١ ورقه ٣٥-٢٦ ، ابن العديم ج١ ص ٢٥٩ ٠

(١٥) ابن العديم ج١ ص٢٥٩ ٠

(١٦) عبد المولى ،بنو مرداس ص٦٤٠

(١٧) يذكر ابن الاثير ج٩ ص ٥٠٠ في حوادث عام ٤٣٣/ ١٠٤١-١٠٤٢م « انه كان كبيرا على مخدومه بما يراه من تعظيم الملوك له وهيبة الروم منه » ٠ ويذكر ابن القلانسي (ص٧٩) ان الدزبري ناسب عرب الشام من طيء وكلب كما تزوج من ابنة الامير حسام الدولة من كبار رجاله الاتراك ٠ كما يذكر ابن العديم في كتابه الزبدة ج١ص٢٥٩ ، ان الجرجرائي وزير المستنصر لما أنكر على الدزبري أفعاله قال له « قد خرف الوزير » وبسط لسانه

فيه بالقبيح ومن الاعمال التي كوتب فيها ولم ينفذها أنه كوتب بابعاد كاتبه المعروف بأبي سعد الا أنه لم يفعل .

(١٨) ابن العديم جـ١ ص ٢٥٩.

(١٩) ابن الاثير جـ٩ ص ٢٣١ وص ٥٠١ ويعتقد أن ذلك كان بتحريض من الخلافة الفاطمية .

(٢٠) ابن الاثير جـ٩ ص٢٣١ وص٥٠١ ، ابن العديم جـ١ ص ٢٥٩، ابن خلدون جـ٤ ص ٢٧٣.

(٢١) ابن العديم ، جـ١ ، ص ٢٦٠. لقد تولى بنجوتكين هذا في حلب بعد وفاة الدزبري.

(٢٢) ابن العديم ، جـ١ ، ص ٢٦٣.

(٢٣) خلف فخر الملك ابن منصور صدقه بن يوسف الفلاحـي ٤٣٦-٤٣٩هـ / ١٠٤٥ - ١٠٤٧م أبا القاسم الجرجرائي ، انظر ابن الاثير جـ٩ ص٥٥٢ في حوادث سـنة ٤٤٠هـ ١٠٤٨/ ١٠٤٩ م .

(٢٤) ابن الاثير جـ١ ص ٥٤١ .

(٢٥) عبد المولى ، بنو مرداس ، ص ٩٨ . حيث يذكر ان سبب هزيمة ناصر الدولة هو هطول الامطار الغزيرة على شكل سيل عارم أصاب معسكره عند قرية صلدى الواقعة على نهر قويق بأضرار جسيمة في المعدات والارواح ويقال ان الماء بلغ ما يقارب قامتين ارتفاعا ، ولو لم يبادر ناصر الدولة وجنده بالرحيل لغرقوا. انظر ابن الاثير جـ٩ ص٥٤٩ في حوادث عـام ٤٤٠هـ/١٠٤٨/١٠٤٩ م .

(٢٦) ابن العديم جـ١ ص ٢٦٤ ، ابن القلانسي ص ٨٣، و٨٤ ، أمر المستنصر طارقا بالقبض على ناصر الدولة الحمداني وبالفعل قبض عليه وسيره الى مصر انظر : عبـد المولي ص١٩ ، وقد ظل الصقيلي نحو عام في ولايته تلك ٤٤٠-٤٤١هـ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩م .

(٢٧) يذكر ابن الاثير جـ ٩ ص ٥٦٠ في حـوادث سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩-١٠٥٠ ان ثمالا خاف عسكر مصر الذي وصل الى حلب لكثرتهـم فانصرف عنها أي عن حلب فملكها المصريون، ويذكر المقريزي في الخطط ، جـ٢ ص ١٧٠ ، ان حملة رفق كانت في سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، عبد المولى بنومرداس ..ص٩٩.

(٢٨) ابن ميسر ص ٦ ، المقريزي الخطط جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٢٩) كان أول من تولى منصب الواسطة هذه هو أبو الفضل صاعد بن مسعود وحـول هـذه الوساطة انظر كتاب الدكتـور محمد حمـدي المناوي « الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي» دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٥٦ -ص٢٥٧. لقد دامت وساطة أبي الفضـل صاعد اثنين وثمانين يوما .

(٣٠) ابن القلانسي ص ٨٤، ابن الاثير جـ ٩ص٥٧٠ وحول وزارة اليازوري انظـر : ابن منجب ص ٤٠-٤٥ ، ابن ميسـر - ٨٥ ، وعمر صالح البرغوثي في كتابه « الوزير اليـازوري » ، دار الفكر العربي بالقاهرة بدون تاريخ .

(٣١) الشيخ محمد (الدكتور) الامارات العربية ص١٦٣-١٦٤ ، ابن العديم جـ١ ص ٢٦٦-٢٦٨ .

(٣٢) ابن العديـم جـ ١ ص ٢٧٠ ، الخطيـب البغدادي م٩ ص ٤٠٠.

(٣٣) سيرة المؤيد هبة الله ص (١٧١-١٧٣) . وهبة الله الشيرازي الملقب بالمؤيد هو داعي الدعاة الفاطمية بمصر فيما بعد .

(٣٤) ابن العديم جـ ١ ص ٢٧٣.

(٣٥) الشيخ محمد (الدكتور) : الامـارات العربية ص١٢٦ .

(٣٦) ابن القلانسي ، ص ٩٠ ، ابن العديـم جـ١ ص ٢٧٦ ، وعن القاب محمود بن نصر انظر ابن العديم ، جـ١ ص ٢٩٧ حيث نجد ان له لقبا هو رشـيد الدولة ، كما أن ابـن تعري بردي جـ ٥ ص٧٩ وص ١٠٠) يكتبه ابن الروقلية مثل جده صالح بن مرداس .

(٣٧) ابن الاثير جـ٩ ص ٢٣٢-٢٣٣ ، ابن العديم جـ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣٨) عبد المولى ، بنو مرداس . ص ١١٨ والفنيدق حسب ما يذكر ياقوت م١/جـ٢ ص ٨٦٧ أنه موضع يبعد بمقدار مرحلة عن حلب بالتجاه دمشق ، ويذكر ابن العديم جـ٢ ص ١٩ أنه

سمي بتل السلطان لان السلطان السلجوقي آلب ارسلان أقام به .

(٣٩) ابن العديم جـ١ ص ٢٧٩ ، ابن الاثير جـ٩ ص٢٣٣ ، عبد المولى ص ١١٨ .

(٤٠) عبد المولى .. ص ١١٩ .

(٤١) قبض المستنصر على اليازوري ، بتهمة اتصاله بطغرلبك وحثه على غزو مصر ،ثم قتله ، انظر ابن الاثير جـ ٩ ص ٦٣٥ – ص ٦٣٦.

(٤٢) كان مما قاله المستنصر لثمال حين استرجع الاقطاع الذي أقطعه اياه « ان هذه الاماكن اخذتها عوضا عن حلب ، وقد عادت الى ابن أخيك ، فتمضي الى حلب فتستعيدها منه » فقبل على مضض وقام المستنصر بتجهيزه بالمال والسلاح ولقبه بالقاب منها « الاجل الاعز ، تاج الامراء ، عماد الملك ، سيف الخلافة ، عضد الامامة ، بهاء الدولة العلوية وزعيم جيوشها المستنصرية علم الدين ، ذو الفخرين ومصطفى أمير المؤمنين » انظر : ابن العديم ، جـ ١ ص ٢٨١ ، ابن الاثير جـ٩ ص ٢٢٣ ، عبد المولى ص ١٤٣ . ويضيف ابن العديم أن ثمال قال للخليفة « ان نوابكم فرطوا فأعينوني بمال » ابن العديم جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٤٣) ابن العديم جـ ١ ص ٢٨١ وص ٢٨٦ ، ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٧٤ .
يذكر أن الصالح والموادعة استقرار بن ثمال وابن أخيه محمود على أن يأخذ الاخير معيشة بخمسين ألف دينار وثلاثين ألف مكوك غلة .

(٤٤) ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣٣ ، راجع عبد المولى ، ص ١٤٥ .

(٤٥) ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣٣ ، ابن العديم جـ١ ص ٢٨٨ . يجعل سوبرنهايم موت ثمال نهاية عام ٤٥٣هـ/١٠٦١ بدلا من ٤٥٤هـ/١٠٦٢م وبموت ثمال فقدت الاسرة المرداسية أعظم امراء بني مرداس قاطبة بعد أن حكم حلب ثلاث مرات ، بلغ مجموع سني حكمه فيها نحو ثماني عشرة سنة ونصف (الاولى شهرا واحدا والثانية ست عشرة سنةوثمانية اشهر والثالثة سنة واحدة وتسعة أشهر) راجع عبد المولى .. ص١٤٦.

(٤٦) ابن العديم جـ ١ ص ٢٩٣ .

(٤٧) المصدر نفسه ونفس الصفحة . كان الاتفاق يقضي بان يأخذ محمود اقطاعا بخمسة وعشرين الف دينار من جملته سرمين وبعض نواحي حلب .

(٤٨) في عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م قام محمود باغتصاب اقطاع ابن عمه ثابت بن ثمال وعاد يضايق حلب .

(٤٩) استنجد بطائفة من مرتزقة السلاجقة على رأسها هارون بن خان عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م انظر ابن العديم جـ١، ص ٢٩٤ .

(٥٠) تذكر الروايات أن عطية عندما هزم ابن أخيه بمعونة المرتزقة قرر التخلص منهم فاغرى بهم احداث حلب الذين بغتوهم ليلا وقتلوا منهم جماعة ونهبوا خيولهم وسلاحهم وما قدروا عليه من رحلهم ، عند ذلك انحاز من نجا منهم وعلى رأسهم ابن خان الى محمود انظر ابن العديم جـ١ ص٢٩٥–٢٩٦ .

(٥١) عبد المولى ..ص١٤٨–١٤٩ ، ابن العديم جـ١ ص ٢٩٣ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣٤.

(٥٢) كانت الخطبة للخليفةالعباسيالقائم والسلطان ألب أرسلان على منابر حلب يوم الجمعة تاسع عشر من شوال سنة ٤٦٢هـ/٣٠. تموز ١٠٧٠م بأمر من الامير محمود بن نصر وقد لقي هذا ارتياحا لدى الخليفة حيث قام بارسال الخلع مع نقيب النقباء الكامل ذي الشرفين ابي الفوارس طراد بن محمود العباسي وكانت الخلع عبارة عن جبة وعمامة وفرس بمركب ولواء انظر : عبد المولى ص١٥٩.

(٥٣) الكامل جـ١ ص ٦٣ ، ابن العديم جـ ٢ ص ١٧ – ١٨ .

(٥٤) من تلك الوساطات وساطة نقيب النقباء الذي اشرنا اليه في الهامش رقم (٥٣) ولكنها لم تنجح ، راجع عبد المولى ، ص ١٧٦.

(٥٥) عبد المولى ، المصدر نفسه ، ص ١٧٧.
(٥٦) عبد المولى ، المصدر نفسه ص ١٧٩ ، وراجع ابن العديم ج ٢ ص ٢٣.
(٥٧) ابن القلانسي ص ١٠١-١٠٣ .
(٥٨) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٤ ، عبد المولى المصدر نفسه ص ١٨٠ .
(٥٩) انظر
(٦٠) ابن العديم ج ٢ ص ٤٨و٤٩ ، ابن الاثير ج١٠ ص ٩١ ، ابن القلانسي ص ١٠٨ ابو الفداء م١/ج٢ ص ١٤٩.
(٦١) حدثت مواجهة بين الاخوة عند قنسرين فانتصر سابق لان الاتراك بزعامة احمد شاه وخليفة بن دملاج ساعدوه ، انظر ابن العديم ج٢ ص٥٤-٥٥ ، وعبد المولى ص ١٨٣-ص-١٨٤.
(٦٢) ابن العديم ج ٢ ص ٦٨ - ص ٦٩ ، ابن الاثير ج ١٠ص١١٥ . هناك خلاف حول استلام العقيلي لحلب هل هو عام ٤٧٢هـ/١٠٨٠ م أم ٤٧٣هـ/١٠٨٠/١٠٨١ م .
(٦٣) بعد استلام العقيلي لحلب ارسل الى السلطان ملكشاه يسأله أن يقره على نيابة حلب على ان يضمن له خراجها فاجابه السلطان الى ما طلب انظر : ابن الاثير ج ١٠-ص١١٥ ، ابن خلدون ج٤ ص ٢٧٥ ، وكذلك عبد المولى.. ص١٨٦ .
(٦٤) ابن العديم ج ٢ص ٧٠ ، عبد المولى ..ص ١٨٩ ولكن الامور لم تستقر في حلب بسقوط الامارة المرداسية في السنوات التسع التالية ، حيث جرى الاقتتال بين شرف الدولة مسلم وسليمان بن قتلمش على حلب حيث قتل شرف الدولة في ذلك الاقتتال الا أن تتش سرعان ما قتل سليمان وفي النهاية أخذ السلطان ملكشاه حلب وسلمها الى قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م والد عماد الدين زنكي .
(٦٥) الانطاكي ص ٢٧٠ - ص ٢٧١ ، المقريزي : المخطط ج٢ ، ص ١٦٩ ، ويقال ان هذه الاتفاقية جاءت بتوجيه الوزير الفاطمي نجيب الدولة أبي القاسم علي بن احمد الجرجرائي (٤١٨-٤٣٦ هـ/١٠٢٧-١٠٤٥ م) وينسب الجرجرائي الى جرجرايا وهي بلد من أعمال النهروان الاسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي .
(٦٦) انظر عبد المولى ص٦٦ .
(٦٧) ابن العديم ج١ ص ٢٣٨-٢٣٩ ، وحول عدد الجيش الذي يورده ابن الاثير (ج٩ ص٤٠٤) وهو ٣٠٠ الف جندي فهو عدد لا يصدق ويميل الباز العريني في كتابة الدولة البيزنطية ص ٦٨١ بانه ثلاثين الف والامر نفسه نجده عند محمد الشيخ في كتابه الامارات العربية ص١٥.
(٦٨) ابن العديم ج ١ص ٢٣٩ .
(٦٩) ابن العديم ج ١ ص ٢٤١ .
(٧٠) الانطاكي ص ٢٥٥-ص٢٥٦ ، ابن الاثير ج٩ ص٤٠٥ ، ابن العديم ج١ ص٢٤١-ص٢٤٢ .
(٧١) ابن الاثير ج ٩ص ٤٠٥ ، عبد المولى ص٦٨.
(٧٢) الانطاكي ص٢٦٧-٢٦٨ ، عبد المولى ص ٧١ .
(٧٣) ابن العديم ج ١ ص ٢٤٦ - ص ٢٤٧ ، الانطاكي ص ٢٦٠ .
(٧٤) انظر : عبد المولى ص٧٢ و ص٧٣.
(٧٥) في هذه الفترة كانت السلطة بمصر في يد الوزير الجرجرائي لان الخليفة المستنصر كان عمره سبع سنوات فعمل هذا الوزير على التقرب من أمير حلب المرداسي راجع: المقريزي الخطط ج ٢ ص ١٩٦ - ١٧٠ ، ابن تغري بردي ج ٥ص١ .
(٧٦) ابن القلانسي ، ص ١٠٦ ، ابن الاثير ج٩ص ٢٣٤ ، ابن خلدون ج ٤ص ٢٧٤.
(٧٧) موقعه منازكرد أو ملازكرد من المواقع الحاسمة في التاريخ وقد كانت كارثة على الروم البيزنطيين ، فابيد جيشهم واسرامبراطورهم. وقد ترتب عليها تأسيس كثير من الامارات السلجوقية على حساب البلاد البيزنطية .
(٧٧أ) ابن الاثير ج١٠ ، ص٣٩ ، المكين بن العميد: تاريخ المسلمين ص ص ٢٨٠-٢٨٢ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٧٥ .
(٧٨) ناصر خسرو : سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٤٥.
(٧٩) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ، ص٣٠٦-٣٠٨ .
(٨٠) حتى فيليب : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور كمال اليازجي ، بيروت ١٩٥٩ ، ج١ ، ص ص ٢١٤-٢١٥ .

الملحق الثاني

القاب وكنى واسماء بني مرداس ومدد حكمهم وبعض الملاحظات عنهم

مسلسل	اللقب	الكنية	الاسم	سنة بدء الحكم	الوضع السياسي	ملاحظات
١	اسد الدولة (الاول)	ابو علي ابن الزوقلية	صالح بن مرداس	٤١٥هـ /١٠٢٥م	تحت حماية الروم	قيام الامارة
٢	شبل الدولة	ابو كامل	نصر الاول ابن صالح	٤٢٠هـ /١٠٢٩م	تحت حماية الروم	حكمة الاول
٣	معز الدولة	ابو علوان	ثمال بن صالح	٤٢٩هـ /١٠٣٨م	تحت حماية الروم	
ـ	عضد الدولة	ابو منصور	انوشتكين الدزبري	٤٢٩هـ /١٠٣٨م	احتلال فاطمي	
٤	معز الدولة	ابو علوان	ثمال بن صالح	٤٣٣هـ /١٠٤٢م	تحت التبعية الفاطمية	حكمه الثاني. تنازل عن حلب في سنة ٤٤٩هـ (١٠٥٨م) فاقطعه الخليفة الفاطمي المستنصر عكا وبيروت وجبيل (جبلة).
ـ	مكين الدولة	ابو علي	الحسن بن علي بن دينار بن ملهم العقيلي	٤٤٩هـ /١٠٥٨م	احتلال فاطمي	
٥	عز الدولة وشمسها	ابو سلامة	محمود بن نصر	٤٥٣هـ /١٠٦١م	مستقل	حكمه الاول
٦	معز الدولة	ابو علوان	ثمال بن صالح	٤٥٣هـ /١٠٦١م	مستقل	حكمه الثالث. استرد ملكه بعد أن عزله المستنصر عن اقطاعه.
٧	اسد الدولة (الثاني)	ابو ذؤابة	عطية بن صالح	٤٥٤هـ /١٠٦٢م	مستقل	انقسمت الامارة في نهاية عهده الى قسمين حكم منهما عزاز واعمال الفرات ولما فقد ملكه فيما بين سنتي ٤٦٠هـ (١٠٦٨م) و ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) لحق بالروم ومات بالقسطنطينية في سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٣م) .
٨	عز الدولة وشمسها	ابو سلامة	محمود بن نصر	٤٥٧هـ /١٠٦٥م	مستقل	حكمه الثاني في حلب واعمالها الجنوبية فقط . وفي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م خضع للسلاجقة .
٩	جلال الدولة	ابو المظفر	نصر (الثاني) بن محمود	٤٦٧هـ /١٠٧٥م	تحت التبعية السلجوقية	
١٠	عز الملك	ابو الفضائل	سابق بن محمود	٤٦٨هـ /١٠٧٦م	تحت التبعية السلجوقية	الى سنة ٤٧٢هـ (١٠٨٠م)

(عن كتاب بنو مرداس الكلابيون للدكتور محمد أحمد عبد المولى)

إسبانيا وشمال افريقيا *

(من حل الخلافات دبلوماسيا الى الإدارة الاستعمارية)

بقلم : فكتور مرا لس لزكانو
ترجمة : د. ميلود سفاري
معهد علم الاجتماع ـ جامعة قسنطينة ـ الجزائر

مرحلة حل الخلافات دبلوماسيا (١٧٦٠ ـ ١٨٣٠) :

مرت العلاقات بين اسبانيا والايالات العثمانية ، طرابلس وتونس والجزائر وبينها وبين سلطنة المغرب ، بتغيرات هامة خلال القرن التاسع عشر . فبعد أن كانت هذه العلاقة ذات طبيعة عادية بين دول ذات سيادة عبر وساطة الباب العالي ـ بالنسبة للايالات التابعة للامبراطورية العثمانية ـ فانها تحولت الى ما يمكن وصفه بالعلاقة الاستعمارية ، أعنى أنها أصبحت تخضع لعلاقة عابرة يحكمها المزاج ، متجاهلة بذلك المصالح القائمة بين هذه الدول التي كانت على درجات متفاوتة في السيادة على ترابها وسكانها وثرواتها واستقلالها في اتخاذ القرارات ، أكثر من خضوعها للقواعد التي تحكم العلاقات بين الدول في التمتع بالسيادة الكاملة وبالتالي التساوي في الحقوق والواجبات. فكيف جرى هذا التحول .. ؟ .

باختصار ، يلاحظ أن عددا من الوزراء والملوك الاسبان ـ فرديناند السادس Ferdinand VI وتشارلز الثالث Gharles III قد حاولوا تمتين العلاقات التي تربط اسبانيا بالمغرب خاصة أثناء حكم محمد بن عبد الله (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠) ، وكان الاهتمام الرئيسي للاتفاقيات والمعاهدات التي أمضاها ممثلو الدولتين ـ بعد اجراء كافة التعديلات الضرورية ـ على ثلاثة أنواع :

آ ـ إقرار حالة السلم بين الدولتين ، وحالة السلم هذه كثيرا ما تم خرقها منذ أن تولت الاسرة العلوية الحكم في المغرب في ١٦٣٠ .

دراسات تاريخية ، ٣٧ و ٣٨ ، أيلول ـ كانون الاول ١٩٩٠

* المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٣١ ـ ٣٢ ، السنة العاشرة ـ كانون الثاني ـ ديسمبر ١٩٨٣ ص ٣٣١ ـ ٣٣٥ .

ب ــ تحسين التبادل التجاري للبضائع عبر البحر بين موانىء المملكتين طبقا لما تمليه الأسباب الجغرافية لتدعيم المصالح التجارية لكل أمة : طنجة ، تطوان ــ خلال معبر المضيق ــ مزغان (الجديدة) وموغادور (الصويرة) في الجانب المغربي ، الى قادش ، الجزيرة ، مالاقا ، المرية ، في الجانب الاسباني .

جـ ــ تحصين المراكز الاسبانية في سبتة ومليلة ، وهي المراكز المتبقية بعد انسحاب القوات الاسبانية من وهران سنة ١٧٩٢ والذي وضع نهاية للمصالح الاسبانية على خطوط بسواحل المغرب خلال مواجهتها الطويلة مع البحرية التركية في الفترة بين القرنين ١٦ و ١٧(١) .

ويمكن القول بأن العلاقة بين بلاطي مدريد وفاس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت تحكمها قوانين دولية تخرق في الممارسة أحيانا . فالاتفاقيات والمعاهدات التي أبرمت بين المملكتين في ١٧٦٧/١١٨١ هـ ، و ١٧٨٠ /١١٩٤ هـ ، و ١٧٨٥/١١٩٩هـ ، ١٧٩٩/١٢١٣ هـ قد ضمنت في العشريات اللاحقة للنصف الثاني من القرن التاسع عشر علاقات طبيعية كتلك التي كانت سائدة بين الأمم آنذاك(٢) .

لقد حاولت إيالات طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والوزير الاسباني للدولة والشؤون الخارجية تطبيع العلاقات أثناء حكم تشارلز الثالث Charles III ولم تكن الطريقة التي تم بها تحقيق هذا الهدف نابعة من رغبة ملحة وانما أملتها الضرورة ، وتمثلت في التوثيق الكلاسيكي للروابط الدبلوماسية بين اسبانية والامبراطورية العثمانية . ان المعاهدة التي أبرمت في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٧٨٢ بين مبعوثي مدريد واسطنبول قد حققت تحسنا في الروابط السياسية والتجارية والبحرية بين عدوتين تقليديتين في القرون الماضية هما اسبانيا وتركيا(٣) . ومن بين ما تضمنته هذه المعاهدة البند السابع عشر الذي ينص على ((أن الباب العالي يخبر الايالات العثمانية في شمال افريقيا ، الجزائر وتونس وطرابلس ، بمعاهدة السلام الجارية التي تم التوصل اليها بين بلاطي اسبانيا والباب العالي العثماني ، وبما أن الايالات المشار اليها لها هي الاخرى حق اقامة السلام ، فان عليها اقامة السلام مع القوة الاوربية المذكورة ، والباب العالي يبارك هذا السلام ولسوف يصادق عليه . وللبرهنة على هذه النية فانه يوصي الايالات الثلاث بترسية أواصر الصداقة والسلام مع اسبانيا عن طريق ثلاثة فرمانات امبراطورية ترسل الى الوزير الاسباني في حال طلبها من كل منهم))(٤) .

والحقيقة أن معاهدة السلام قد تم توقيعها سنة ١٧٨٤ مع طرابلس وسنة ١٧٨٦ مع الجزائر وسنة ١٦٨١ مع تونس ، وبالتالي استطاعت الدبلوماسية الاسبانية أن

تحقق واحدا من الاهداف السياسية البارزة للبلاد على الصعيد الخارجي ، أي تنظيم العلاقات مع الجيران الجنوبيين للمملكة المنتشرين عبر المغرب ، وهي منطقة ربطت اسبانيا بعلاقات كانت من القوة بقدر ما كانت مليئة بأحداث ظلت تحل بالحرب حينا وبالمفاوضات الدبلوماسية أحيانا أخرى(٥) .

والواقع أنه بعد حل الخلافات التي ما فتئت تكدر صفو العلاقات العادية بين اسبانيا وأقاليم المغرب الاسلامي ـ خاصة سلامة الملاحة في مياه المتوسط الغربية وأمن الرعايا المغاربة والاسبان والسلك القنصلي المقيم على طرفي بحر AL- Boran* سؤال يبقى مطروحا : كيف حدث أن العلاقات التي سبق وصفها تحولت الى علاقة شبه استعمارية ؟ وأية قوة ان كانت هناك ... ؟ قوة أدت الى احداث هذا التغيير ؟

لنلق الآن نظرة على العالم المحيط باسبانيا وشمال افريقيا لنرى ما اذا كانت هناك قوى محيطة ، فقد تلقي الساحة المتوسطية بأكملها الضوء على المسألة .

من فض النزاعات دبلوماسيا الى الادارة الاستعمارية (١٨٣٠ ـ ١٩٠٦) :

كان القرن التاسع عشر مرحلة للتوسع الخارجي لكثير من الدول الاوروبية بغض النظر عن الاسباب الكامنة وراء هذا التوسع ** وكنتيجة لهذا فقد حرصت القوتان على تقاسم بعض الاهداف الاستراتيجية خاصة في شمال افريقيا(٦) مما أدى الى وضع مجلسي وزراء البلدين على أهبة الحرب كما حدث في فاشودة مثلا ، سنة ١٨٩٨ . لقد كان حوض البحر الابيض المتوسط مبتغى لكل من بريطانيا وفرنسا كما أن التنافس لتحقيق سيطرة حاسمة على البحر القديم استمرت طيلة القرن التاسع عشر بالرغم من أن بريطانيا أخذت الصدارة فعلا في التجارة البحرية مباشرة بعد الحرب النابولونية ، ولم تتخل عنها الا بعد ١٩١٨ عندما أخفقت المانيا ـ مؤقتا ـ في أن تضع أسطولها على قدم المساواة مع الاسطول البريطاني(٧) .

ان مجرى المنافسات الدولية للحصول على التفوق في المياه المتوسطية من سنة ١٨٣٠ الى بداية القرن العشرين زاد من حدة جشع الاوروبيين وطمعهم في الساحل الافريقي وشواطىء بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وجاءت النتيجة النهائية لهذه المنافسة ـ على الاقل بين بريطانيا وفرنسا ـ في ربيع ١٩٠٤ عندما توصل كل من اللورد لانسداون Lansdowne ايرل كرومر ، القنصل العام بالقاهرة الى تحالف ودي

---

* الطرف الاقصى من المتوسط .

** كانت بريطانيا وفرنسا على رأس القوى الاستعمارية مقارنة بعدد البلدان والشعوب التي كانت تحكم من لندن وباريس .

مع وزير الخارجية الفرنسي ثيوفيل ديلكاسية Théophile Delcassé والسير بول كامبون Paul Gambon سفير الجمهورية في لندن .

وهكذا تم تدبير ما سمي بالاتفاق أو الوفاق الودي Intente Cardiale وقد جاءت السيطرة الانجلو - فرنسية على مصر والمغرب المتفق عليها سنة ١٩٠٤ لتختم يومئذ الصراع الطويل على السيادة في شمال افريقيا . وأثناء ذلك أدت الضغوط الاستعمارية الاوروبية من جهة وزيادة ضعف سيطرة الامبراطورية العثمانية على إيالاتها البعيدة من جهة أخرى الى سقوط إيالتي الجزائر (١٨٣٠) وتونس (١٨٨١) اللتين أخضعتهما قوات الحملة الفرنسية ومكر الدبلوماسية الغالية (الفرنسية) . أما المنطقة الثالثة في المغرب الاسلامي التي سقطت في يد الاوروبيين (الاوصياء) فكانت الامبراطورية الشريفية - أي المغرب الاقصى ، وهي أرض أقيمت عليها الحماية الفرنسية الاسبانية في نهاية سنة ١٩١٢ .

أمم تتراجع في أوروبا وأخرى تزداد سيطرة ، كلها أساءت حكم المجتمعات الاسلامية التي كانت تحاول مواجهة حرب المجتمعات الاوروبية الغربية المصنعة(٨) فماذا عن اسبانيا كصلة وصل طبيعية بين أوروبا الغربية وشمال افريقيا ؟

ان العلاقات بين اسبانيا (وشمال افريقيا) - بلدان المغرب الاسلامي قد تطورت بشكل متناقض طيلة القرن التاسع عشر ، ولا ننسى أن بعض الوجوه القيادية السياسية والعسكرية من منتصف القرن ، كانت تود أن تكون اسبانيا قوة أوروبية من الدرجة الاولى متناسين أن الاحلام وافكار الاماني تؤدي الى الاخفاق عندما لا تملك الوسائل لتحقيق توقعاتها ، وذلك لأن تدخل اسبانيا في الشؤون الداخلية للمغرب أسفر عن تجربة مريرة .

من المؤكد أن المغرب كانت الهدف الرئيسي الاوحد المحبذ للسياسة الخارجية الاسبانية التي تنتهجها تجاه جيرانها الجنوبيين فيما وراء مضيق جبل طارق منذ سنة ١٨٦٠ . ان فكرة التدخل في الشؤون الداخلية للامبراطورية الشريفية التي تبنتها فئة قليلة من العسكريين والسياسيين (والافريقيين) . قد تفوقت على المشاعر والعواطف الرافضة لهذا التدخل التي سادت بقوة عند طائفة أخرى من السياسيين والمثقفين وجمهور المواطنين الاسبان . فلا بد إذن من القول بأن الاوساط الاسبانية المؤيدة لسياسة التدخل في الشؤون المغربية لم تكن أبدا متينة ايديولوجيا لذلك كان عليها أن تواجه المعارضة في البيانات المكتوبة وفي المظاهرات الشعبية على الاقل بعد سنة ١٩٠٩ . ولا يمكن نكران أن بعض القوى الداخلية من المجتمع الاسباني هي التي دفعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالبلاد الى شمال المغرب ، وقد أشرنا الى أن سياسة

اسبانيا تجاه المغرب قد أصبحت استعمارية بشكل واضح سواء من خلال ما كان يجري على شاطىء البحر المتوسط أو باندفاع القوى الوطنية المقتنعة بالبرنامج الذي طرحه Souedad de Africanistas y Colonistos ـ الذي تم انشاؤه في بداية الثمانينات من ١٨٨٠ ـ (٩) .

وقد طرحت المسألة منذ احتلال جيوش الجنرال أودنيل O' Donnell لتطوان في ربيع ١٨٦٠ كحملة تأديبية لاعادة الاعتبار لشرف الملك والبلاد وقد تضمن السؤال المطروح آنذاك : هل يجب على اسبانيا أن تأخذ دورا أكثر جيوية في المناقصة ـ الانجلو ـ فرنسية للسيادة على شمال افريقيا ـ أي المغرب ـ لتدافع عن وجهة نظر شبه الجزيرة ؟ أم أن عليها أن تحترم الوضع الراهن ، وتحافظ على أمن الدولة المجاورة ، بل وحتى اعلان نفسها المدافع الاوروبي عن هذا المبدأ ؟.

لقد كانت القائمة بالاعمال ميري اي كولوم Merry y. Colom على اتصال دائم بوزيرها في مدريد منذ أن اخذ بزمام الامور بعد معركة تطوان ، وقد وضعت مرة حيثيات المسألة في الصيغة التالية : (يسير المغرب منذ ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠ الى انهياره الذي هو حسب رأيي غير قابل للعلاج ، فالجهود الدبلوماسية بامكانها أن تؤخر هذا التصدع شيئا ما لكن الداء ليس له دواء والحكومة الاسبانية التي توليه أهمية خاصة يتوجب عليها أن تتقدم خطوة خطوة في مسيرة الاحداث)(١٠) . إننا لنجد هنا نداء ذكيا للاهتمام بالاوضاع الداخلية المتردية للسلطنة،وتذكيرا لحكومة شبه الجزيرة بالواجبات التي يفرضها الجوار والروابط التاريخية . واذا كان هذا المنحى في سياسة التدخل قد استمر ، علنا أو سرا ، الى نهاية القصة ، فان النظرة المتحفظة أي الرافضة للتدخل قد وجدت لها مرتعا بين عدد من الاسبان ، بعضهم من أبرز الشخصيات في صنع الدولة الليبرالية مثل الزعيم المحافظ كانوفاس ديل كاستيللو Canovas del Castillo فبعد سنوات من مهمة ميري أي كولوم ، وجد كانوفاس أن عليه ان يدعم الاطروحة الرافضة للتدخل أمام غرفة المندوبين في البرلمان الاسباني مصرحا بأن: (الحكومة تعتبر امبراطورية المغرب دولة ذات سيادة .. وهي لا تستطيع إذن أن ترفع راية تشتيت الوحدة الداخلية للمغرب المحمية في ذاتها علما بأنه في مقدورها أن تحدث في تلك الامبراطورية خللا بواسطة التوسع الذي يمنحه لها حق الحماية والى حد الآن ليس في مقدورها أن تعلن لكل تابع للسلطنة بعض التذمر من ذلك الحكم ، وكذلك التوجه الى السلطات الاسبانية والمطالبة بانفصال مقاطعتها عن تاجنا هكذا بكل بساطة)(١١) .

على عكس النداء الاول نجد هنا تصريحا بالغ الوضوح لاطروحة الرافضين للتدخل في الشؤون التشريعية .

منذ الاحتفال بمؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ لضبط حق الوصاية على الرعايا الشريفيين من قبل السلطات القنصلية الاوروبية الى المصادقة على القرار النهائي لمؤتمر الجزائر سنة ١٩٠٦ المتعلق بتمويل المخزن وسبل المحافظة على النظام العام والامن الشخصي في الموانىء والمدن الرئيسية في المغرب فان التدخل الانجلو ـ فرنسي في شمال افريقيا عموما وفي شؤون السلطان المغربي عبد الحفيظ (١٩٠٨ ـ ١٩١٣) خاصة كان يتجه نحو فرض الحماية الفرنسية الاسبانية على المغرب .

وهكذا فان العنصر الاضعف من بين الدول الاستعمارية الاوروبية ـ وهي اسبانيا ـ قد حولت عن اقتناع وسبق اصرار نمط علاقتها مع جارتها الجنوبية ... التي كانت دولة كاملة السيادة اسميا .

وهكذا أيضا قدر على اسبانيا أن تصبح سيدا على شعب الريف ولو أن واقع الحال برهن على أن هذا السيد لم يكن على ذلك المستوى من اللين ، كما أن التلميذ (الشعب) كان أكثر تمردا مما كانت تفترضه وتتوقعه الاوساط الحكومية في شبه الجزيرة .

الحواشي

(١) انظر :
M - Laurido. Diaz - El - **Sultanato de. Sidi Muhommed. b. Abdellah.** Granada. 1970 .

ولنفس الكاتب :
Marruecos en la Sugunda mitad del Sigho XVIII, Madrid. 1978.

(٢) صورة شاملة عن الموضوع في
Fe. Byandel. **al - Mediteraneo y el - Mundo meditrranes en la época. de Félipe. II** . Mexico. V.II. pp. 278 - 79 -
El - Korro , and M. de epalza **Oran et l' Ouest Algérien au XVIIIéme Siécle , Alger 1978** .

(٣) M. ARRIBAS PALAU « La documentation del - Archivo Historico National Relativa al. Norte de. Africa. - **Revista del. Instituto de estudios islamicos, v. XX (1979 - 1980) p. 78** .

(٤) الجزء الاكبر من مراسلات القناصلة الاسبان في عموم شمال افريقيا يوجد في :
« Seccion de Estado » **Archivo Historico National** , Madrid .

اما عن هذه الفترة فيما قبل الاحتلال هناك ٦٩ رزمة خاصة بالجزائر (١٧٨٤ ـ ١٨٤٩) ، ١٨ رزمة خاصة بتونس (١٧٨٠ ـ ١٨٤٠) ، ١٣ رزمة خاصة بطرابلس (١٧٨٠ ـ ١٨٤٠) و ٨٠ رزمة خاصة بالمغرب (١٧٧٠ ـ ١٨٤٠) .
انظر :
Leon. Tello - **Indice Général de La Seccion de Estado, Madrid.**, 1973 .

(٥) R. Robinson and. V. Gallagher **« Africa and the Victorians » The Official Mind of imperlia-lism** London, 1981 .

(٦) P. Kennedy. **The Rise of Anglo German Antagonism** - (1860 - 1914) - London 1980 - pp. 464 70 .

(٧) من أجل وجهة النظر المحلية ، انظر :
Abdellah Laroui , **L' Histoire de Maghreb.**
Paris , 1970 - pp. 23 - 26 . and 271 . وما بعدها .

(٨) من أجل كافة القضايا المتعلقة بالموضوع انظر:
V. Morales Lezcano , el - Colonialismo, Hispano - Francés en Marruccos (1898 — 1927) . Madrid . 1976 pp. 21 - 46 .

(٩) « Correspondencia del **Encargodo** de. Negocios de Espana en Tanger » disp. No 61 (4 oct. 1864) bundle. No 1638 , in **Morroco Correspondence ... Archivo del. Ministerio de Asuntos Exteriores.**

(١٠) **Diaro de Sesiones del Congreso Legislatura. 1879 - 80 - pp.** 1769 - 76 .

(١١) لهذه الفترة شبه الاستعمارية في العلاقة بين اسبانيا وشمال افريقيا (١٨٤٠ — ١٩١٢) هناك مئات الوثائق في
«Correspondencia Con Consulados.
١٢ رزمة خاصة بالجزائر ، ٥ خاصة بتونس و ٢ خاصة بطرابلس و ١٧ خاصة بالمغرب وفي
Seccion de Politica Exterior
(قسم السياسة الخارجية) ٩ رزم خاصة بالجزائر ، ٣ خاصة بتونس وطرابس و ١١ رزمة خاصة بالمغرب .

Archivo del Ministerio de Asuntos Exteriores , Madrid.
M.J. Lozano and E . Romera , **Gnia del Archivo del Ministerio de Asuntes Exteriores,** Madrid 1981 .

* * *

قراءة في خمسة مجلدات عــن ماري

COMPTES RENDUS

M. A. R. I. 1—5

الدكتور فيصل عبد الله
جامعــة دمشــق

ما تزال الدراسات التاريخية حول مدينة ماري ومحفوظاتها المسمارية تنهـال علينا بلغات متعددة يصعب حصرها . ومن المعروف أن الآثاريين والمؤرخين الفرنسيين لهم الباع الاطول في هذه الدراسات بحكم اكتشافهم للمدينة منذ الثلاثينات واصدارهم ترجمات لمحفوظاتها في سلسلة قاربت الثلاثين جزءا تحمل اسم المحفوظات الملكيـــة لمـاري (ARM) . زد على ذلك الدراسات المنشـورة في دوريات عديدة في أنحـاء العالم . اضافة الى سلسلة جديدة ، هي موضوع قراءتنا هذه ، تحمل اسم :

M.A.R.I. = MARI Annales de Recherches Interdis ciplinairs

صدر من هذه السلسلة الجديدة حتى الآن خمسة مجلدات نعرض فيما يلي لأهم محتوياتها . وأهميتها لا تكمن في كونها تخبر عن ارثنا الكبير فحسب ، بل ان الدراسات المستنتجة من النصوص المسمارية تعكس لنا مجتمعا واحـدا لم تنقطع صـلاته منذ خمسة آلاف سنة على الاقل وهي تاريخ ظهور الكتابة المسمارية السحرية .

١ ـ دراسات المجلد الاول M.A.R.I. 1

وننقل للعربية العناوين مع أهـم الافكار :

١ ـ جان مارجورون Margueron, J.,

« تقرير أولي عن حفائر موسم عام ١٩٧٩ في ماري » ص ٩ ـ ٣٠

حيث تم اكتشاف جانب هام من الهندسة المعمارية تعود لبدايـة الالف الثاني ق.م ، ومجموعة من الرقم الفخارية المكتوبة بالمسمارية ـ الاكادية ذات اللهجة المارية الغربية (نسبة الى ماري) ، وهي تعكس تنظيمات المدينة في العصر الاموري في سورية وبلاد الرافدين عامة .

---

٢ ـ بارايـر ، د ، PARAYRE. D.

«الرسوم الملونة المزاحة من مكانها في الصالة ١٠٦ من قصر ماري ، نظرة جديدة» ص ٣١ ـ ٧٨ .

تعد الدراسة بحد ذاتها جزءا من تاريخ الفن القديم في بلادنا ، أو تاريخ الرسم الملون على الجدران . وهذا الرسم ، الذي يزين جدران احدى صالات قصر ماري ، يعد من أقدم الرسوم الفنية في العالم وهو مرسوم على طبقة من الجبس وتحتها طبقة من الطين . وقد نفذ الرسم بعد جفاف هاتين الطبقتين ، ويصور مشهدا دينيا يمثل الاله والملك بزي لا نجد فيه غرابة أمام أزيائنا التقليدية ، ورأس ثور ذي قرنين كبيرين، اضافة الى الحاشية المرافقة .

٣ ـ **جان ماري ديوران** DURAND. J. - M.

« سومريون ، أكاديون ، في بلاد أمورية .. وثيقة قضائيـة واحدة من عصـر ماري المبكر » ص : ٧٩ ـ ٨٩ .

تظهر أسماء علم سومرية وأكاديـة في وقت كانت فيـه ماري تحت سـيطرة الاموريين وهذا ليس الا دلالة على الامتزاج والاختلاط بين مختلف فصائل سـكان بلادنا القدماء ، تجمعهم لغة القربى ، وعادات وحياة مشتركة .

يزودنا هذا النص بمعلومات عن كيفية البيع بحضور الشهود للتصديق ، واخرى عن حياز المرأة ملكية خاصة ، منذ هذا الوقت المبكر أي نهاية الالف الثالث ان لم يكن قبل ذلك . (ن. نفسه ص ٨٣) .

ولديوران دراسة ثانية هي : **« قراءة ثانية للمجلد الثامن من محفوظات ماري الملكية** ĀRM VIII, » ص ٩١ ـ ١٣٥ ويقول فيها : انه استطاع خلال اقامته في حلب في ايلول ١٩٧٩ أن يعمل في متحفها من أجل أن يعيد تصنيف ولصق هذه المجموعة من محفوظات ماري التي نشرت سابقا ، وقد برهنت اعادة التصنيف هذه على مدى دقة النشر التي تم سابقا . وقد ذكر أن كثيرا من الدراسات حول هذه النصوص لم ترجع الى الاصل وانما اكتفت بما يسمى transcription أي كتابة الاكادية بأحرف لاتينية .

٤ ـ **دومنيك شاربان** CHARPIN. D.

« معبد كاخات من خلال وثيقة غير منشورة من ماري » ص ١٣٧ ـ ١٤٧ .

كانت مدينة كاخات تتبع مملكة شمسي ادد الآشورية ، ومن ثم زمري ليم في ماري . هذه الوثيقة هي وصف هندسي وبالمقاييس لمعبد المدينة .

٥ ـ موريس بيرو BIROT. M.

هذا العالم الجليل الذي أمضى حياته في دراسة نصوص ماري المسمارية ، ونشر بعض مجلداتها . ينشر لنا هنا بقية من نص سبق نشره في الصفحة ١٤٩ــ١٥٠ .

٦ ـ جاك م. ساسون SASSON J. M.

ودراسته بالانكليزية (علما بأن الدراسات السابقة جميعها بالفرنسية) وهي بعنوان «**رؤية للقيامة في ماري**» ص ١٥١ ـ ١٦٧ .

وهي دراسة للنص ARMX : g ، وهو واحد من الوثائق المسمارية التي كتبها كهان المعابد وكان أكبرهم على مايبدو يحمل اسم / نبو / أي نبي وهذا النبو أو النبي، هو الذي يرى ويكتب رؤياه للملوك أو للشخصيات . والنص **هو رؤيا « النبو »** التي نقلتها شبتو (بنت ملك حلب ياريم ليم وزوجة زمري ليم ملك ماري) الى زوجها الغائب في المعارك لكي تطمئنه أن الاله وملائكته مصممون على حماية مدينة ماري وان أحدا لا يستطيع المساس بها . تعكس هذه الرؤية التي يعود تاريخها لاكثر من أربعة آلاف سنة على الاقل ، جانبا من الفكر الديني الذي انتقل فيما بعد الى الادبيات التوحيدية ، وهي حماية الاله للبشر ومدنهم ، ووعده بذلك وعدا أكيدا. **فالوعد الالهي يحقق الطمأنينة** في نفس البشر قديما ، وهو ليس الا محاولة لخلق توازن نفسي بين الانسان والصعوبات التي تواجهه **وهو لا يعني ـ أي الوعد الالهي ـ حقا في التملك كما تدعي الصهيونية في فلسطين اليوم** .

٧ ـ بايير :

« من الفرات الاوسط الى لورستان : أختام على شكل خواتم اعتبارا من نهاية الالف الثاني ق.م » ص ١٦٩ ـ ١٨٩ .

وهي دراسة قيمة لخواتم عديدة نقش عليها شارات أصحابها ، وهي تستعمل كأختام شخصية وكعادة معروفة حتى عند أسلافنا الاقرب .

٢ ـ دراسات المجلد الثاني
M. A. R. I. 2

١ ـ جان مارجورون :

« تقرير اولي عن حفائر موسم ١٩٨٠ » . ص ٩ ـ ٣٥ .

٢ ـ بايير . د :

« دراسة طبقات حفائر ماري » . ص ٣٧ ـ ٦٠ .

٣ ـ **دومنيك شاربان :**

« **اعادة قراءة المجلد الثامن من محفوظات ماري ARM VIII** » (**تتمـة**) . ص ٦١ ـ ٧٤ .

٤ ـ **شاربان وديوران :**

« **دراسة فيما يتعلـق بمحفوظـات سومو يامان** » (وهـو أحـد شخصيات المدينـة) . ص ١١٧ ـ ١٢١ .

٥ ـ **ديـوران :**

« **اعادة قراءة المجلد الثامن من محفوظات ماري ، رقم ٢ : اشغال المعـدن في ماري** » . ص ١٢٣ ـ ١٣٩ .

٦ ـ **ديـوران :**

العنوان السابق رقم ١ : « **رسالة من موكانيشوم** (موظف كبير في قصر ماري)، ثم **رسالة من نومو شدا ـ نهراري ...** » ص ١٤١ ١٦٣ .

٧ ـ **مارك لوبسو :** LEBEAU M :

« **ماري عام ١٩٧٩ . تقرير أولي عن الفخار** » . ص ١٦٥ ـ ١٩٣ .

٨ ـ **ماترن . ج . ب .** MATERNE. J.-P.

« **سنة كاخات في السلم الزمني من حكم زمري لم** » . **ص ١٩٥ ـ ١٩٩** .

٩ ـ **بيك .م ، و ، ويجاند .ي** Pic.M. & Weygand. I. :

« **قطعة طينية من ماري تمثل الالهة عشتار** » . **ص ٢٠١ ـ ٢٠٩** .

هذا بالاضافة الى عدد من الدراسات المصغرة تتعلق بفهرسة محتويات قصر ماري ، وأسماء القرابة وما الى ذلك . وعدد آخر من الملاحظات الصغيرة تتعلق بأعمال البحث الجديد في محفوظات ماري .

٣ ـ دراسات المجلد الثالث
M. A. R. I. 3

١ ـ **جان مارجورون :**

« **تقرير أعمال الحفائر في ماري لعام ١٩٨٢** » .

٢ ـ شـاربان :

((كتابات من العصر الاشوري)) . ص ٤١ ـ ٨١ .

ولهذه النصوص ، التي تنشر لاول مرة ، أهمية خاصة بالفكر الديني القديم ، وتفيد من أجل الدراسات المقارنة التي تتعلق بالديانات في مجتمعنا القديم والحديث. ويلاحظ مترجم هذه النصوص استخدام الفعـل الاكادي Krb Karabum ويقابلـه بالعربية / قرب / وهنا يعبر النص عن « التقرب » الى الاله . ويعكس نمط كتابـه النص قرب هذه الفترة الاشورية من عصر يخدون ليم / والد / زمري ليم . كمـا يعكس اسلوبها في التعبير عن نمط التفكير في العصر الاكادي السابق . وخاصة فيما يتعلق بلقب الملك .

٣ ـ شاربان .

((وثائق جديدة لمستودع الزيت في عصر اشور)) . ص ٨٣ـ١٢٦ .

ويتضمن عشرات النصوص التي تسجل توزيع الزيت الخاص بالبيوت المقدسة والالهة وأصحاب المقامات من الرجالات في عصر آشور . ولهذه الدراسة اهمية خاصة في فهم مكانة الزيت واستخدامه في الطقوس الدينية الشرقية فيما بعد وحتى وقتنا الحاضـر .

٤ ـ ديوران

((ثلاث دراسات عن ماري)) . ص ١٢٧ـ١٨٠ .

وتتعلق الاولى باعطاء الاسم للاطفال في قصر ماري . والملاحظ ان الطفل لا يعرف باسمه ، بل باسم امه حتى يكبر ويدب على قدميه ، وقد اظهرت هذه الملاحظة وثائق توزيع المؤن في قصر ماري. والثانية تتعلق بترسيم الطفل وهو طقس يبدو من خلال خلع ثياب جميلة عليه لاول مرة . ولا توجد للاسف معلومات اضافية عن هذا الطقس التكريسي الهام ، والذي لا بد أن يكون على صلة ببعض طقوس التكريس الموجودة في مذاهبنا اليوم .

والقسم الثالث من هذه الدراسة الهامة للاستاذ ديوران تتعلق بالاحتفالات في قصر ماري وخاصة في زمن **يسمع ادد الذي كان منصرفا بكل وضوح لحيـاة الترف واللهو** ، وهو ما تعكسه رسائل التنبيه المرسلة اليه من أبيه شمش ادو .

تتضمن هذه الدراسة معلومات عن **الحفلات الموسيقية** التي تقـام في القصر ، ومكان فرقة العزف ، ووجود مغنين ومغنيات الخ .، ومعلومات عن حالـة الطقس عندما يتخذه الناس مدخلا للحديث، كما في بعض الرسائل بين زوجة ملك ماري وزوجها.

وتسجل لنا بعض النصوص سقوط حبات البرد الكبير في ماري منذ أربعة آلاف سنة، وهو ما يحدث في الجزيرة في الربيع . وهناك معلومات اخرى تفيد ان الاحوال الطبيعية لم يطرأ عليها تعديل كبير في المنطقة ، سوى استغلال الانسان للارض ، وتضاؤل نسبة الغابة والمروج .

وفي مؤخرة هذه الدراسة مجموعة فقرات تتعلق بدراسة نصوص هامة حول الحياة الدينية في ماري ، في طليعتها الاستخارة والتأمل استشارة أو استيحاء من الله من أجل اتخاذ موقف في الازمات الصعبة وخاصة الحروب .

٥ ـ جان روبير كوبر Kupper J. R. :

« ملاحظات تتعلق بالتأريخ والترتيب الزمني من خلال وثائق المجلد ٢٢ من محفوظات ماري » ص ١٨١ـ١٨٤ .

٦ ـ سيلفي لاكن باخر Sylvie Lackenbacher :

« وثيقة جديدة من اوجاريت(٢) ـ رسالة من ماري » ص١٨٥ـ١٨٩ .

تأتي أهمية هذه الدراسة،من أنها تضم نصا ينشر لاول مرة.وهو فريد من نوعه لانه الوثيقة الوحيدة التي تعود لنهاية القرن الثالث عشر ق.م (أي نهاية عصر ازدهار أوجاريت) ومع هذا فان هذه الرسالة ـ الوثيقة تحدثنا لاول مرة عن مكانة **آلهة ماري في اوجاريت** ، وهي مقدمة **يتلوها حديث عن نقل احصنة ، أو خيول ، بين ماري** واوجاريت . مما يؤسف له أن النص فقدكثيرا من أسطره نتيجة عوامل الزمن .

٧ ـ هنري ليميه Henri Limet :

« وثائق تتعلق بالحديد في ماري » ص ١٩١ـ١٩٦ .

وهي توضح بأن الحديد كان معروفا منذ وقت مبكر في ماري ، ولكنه كان قليل الاستعمال لانه ثمين جدا واغلى من الفضة بثماني مرات . ويستغرب الباحث رفض معظم المؤرخين قبول فكرة انتشار الحديد في سورية والرافدين قبل القرن الثاني عشر ق.م .

٨ ـ جان مارجورون :

« ضريح كبير في ماري » ص ١٩٧ـ٢١٥ .

وتصف اكتشاف ضريح هام أثناء الحفر ومراحل الكشف عنه وصور كافية لاعطاء فكرة عن ضخامته .

٩ ـ مارك لوبو :

« **الفخار في بعض أضرحة ماري** » . ص ٢١٧ ـ عن الفخار وأنواعه وتزييناته .

١٠ ـ بياتريس بيير Péatrice, Pierre :

« **رسوم تزيينية في ماري والشرق الادنى** » وتوضح الباحثة أهمية الرسم الجداري ودفته في تلك الفترة القديمة .

والدراسة مرفقة بما يلزم من الجداول والاحصاءات المقارنة بالاضافة الى الرسوم التي عثر عليها وهي غاية في الدقة وحسن التعبير . ووضعت الباحثة الى جانب هذه التزيينات القديمة سجادة حديثة لتظهر مدى التقارب في التزيين بين القديم والحديث أي استمرارية الفن وعدم انقطاعه على مر العصور .

ويضم هذا المجلد عددا من الدراسات الصغيرة وملاحظات هامة تعترض الباحثين في عملهم فيؤثرون نشرها بسرعة لتعم فائدتها ، ثم تنشر فيما بعد في دراسات موسعة، وخاصة ما يتعلق بكتابات أو تزيين الاختام أو بعض طبعاتها ، وكسر النصوص الصغيرة . وفي البحث ملاحظات حول كلمات أكادية وردت في نصوص قيد الدراسة.

٤ ـ دراسات المجلد الرابع (١٩٨٥)
M. A. R. I. 4

لهذا المجلد أهمية خاصة ، لانه يضم مجموعة دراسات لأشهر المختصين بمخطوطات ماري ، نشرت بعد ندوة عقدت في ستراسبورغ ١٩٨٣ ، **بمناسبة مرور خمسين سنة على اكتشاف المدينة وبدء التنقيبات فيها** . ونشرت دراساتها عام ١٩٨٥ ضمن السلسلة M.A.R.I ذاتها .

أما الدراسات فهي :

١ ـ **المقدمة : « ماذا حدث بعد خمسين سنة من التنقيب في ماري ؟ »** :

ان حصيلة هذا العمل ذات شقين ، يتعلق الاول منهما بعلم الآثار ، أي التنقيب ونتائجه ، والثاني بالنصوص المكتشفة ونسخها من الالواح الفخارية وتصويرها، ومن ثم قراءتها بحروف أبجدية حديثة (لاتينية) . وأخيرا ترجمتها الى لغة حية (وهي الفرنسية لان البعثة المكتشفة هي صاحبة هذا الحق) . وهذان هما الفرعان الرئيسيان من علم التاريخ القديم بصورة عامة ، وهما محور المقدمة التي كتب شقها الاول عالم الآثار والمدير الحالي لحفائر ماري جان مارجورون وكتب الثاني جان ماري ديوران ، وهو مترجم وقارىء نصوص ماري ـ في هذه الفترة طبعا ـ والاثنان يعرضا نتائج أعمال البحث خلال خمسين سنة والمشكلات الرئيسية التي حلت ، والاخرى التي ما زالت مستعصية على الحل .

٢ ـ **بول سان لافيـل Paul Sanlaville :**

يبدأ المجلد بدراسة **لجغرافية ماري** (ص ١٥ـ٢٦) . وهذا أمر طبيعي لمثـل هذا المجلد الذي يلخص تاريخ ماري عبر ألف سـنة تبدأ منذ أواسـط الالف الثالث ق.م وتنتهي قبيل منتصف الالف الثاني ق.م .

٣ ـ **برنـار جيـير Geyer, B. :**

« التشكلات والتوضعات الجغرافية في وادي الفرات ، في عصر ماري » . وهي دراسة عن التحولات الجغرافية في بعض مواقع ماري ، ومحاولة لفهم علاقـة الانسان بالبيئة من حوله . (ص ٢٧ ـ ٣٩) .

٤ ـ **أندريـه فينيه Finet, A.**

« ماري في وسطها الجغرافي » دراسة جغرافية تاريخية تكشف عما كان عليـه الوضع الجغرافي من خلال الوثائق المكتوبة . وخاصة ما يتعلق بالنهر (الفرات) الذي كان يستخدم للملاحة بشكل مكثف .

يضم القسم الثاني من هذا المجلد الرابع الدراسات التخصصية ، مرتبة وفـق قدم الموضوع في السلم الزمني . ولهذا فان القسم الاول يحمل عنـوان ماري وإبلا وقد بتنا جميعا نعرف شـيئا عن إبلا نظرا لما اكتسبته من شـهرة ولأن اكتشافها حل كثيرا من المشاكل التاريخية المعلقة ؛ ولكنه أثار مشكلات أخرى بعضها علمي وآخر مغرض ومصطنع . وكلمة قصيرة في هذا المجـال ، **ان الرأي العام المحلي والدولي يفتقر الـى معلومات صحيحة وموثقة عـن إبلا ، لأسباب عديدة ، في طليعتها عدم مشاركة باحثين عرب في أعمـال التنقيب وترجمـة النصوص مباشرة . وثانيها عدم وجود سياسة اعلامية تثقيفية تاريخية .**

يضاف الى ذلك ظروف عمل الاختصاص من حيث كثرة النصوص وتنوعها ، من احصائية وادارية ، وهي مصدر معلومات هام للتاريخ وعلم الاجتماع في بلادنا . وتتطلب دراسة كل هذا الحجم وقتا طويلا وعددا كبيرا من الباحثين .

تبدأ الدراسات عن ماري وإبلا بدراسة :

٥ ـ **الفونسو اركـي Archi, A. :**

« المعاصـرة بين ملـوك ماري وملوك إبـلا Ebla في الالف الثالث ق.م » ص ٤٧ ـ ٥١ .

والحقيقة انه لا توجد وثائق أكيدة في محفوظات ماري أو في محفوظات إبلا عـن

معاصرة بين ملكين من ملوك ماري أو إبلا ، كما قـد يوحي عنوان الدراسـة .
ويعلق الباحث بقوله : « انه من المستحيل تتبع الاحداث السياسية في ماري من خلال وثائق إبلا » ومعظم ما نشر حتى الآن يحتاج الى مزيد من الوثائق لتدعيمه وخاصة قراءة بعض الاسماء ، والكلمات ، ولذا فاننـا نلحظ استخدام التعابير الاحتمالية . مثل . . . ممكن ، ويظن ، ويعتقد وهكذا .

ويعقد الباحث كلامه قائلا : « في كل الاحوال ، لم تتشكل بعد معطيات نهائية من أجل التأريخ الزمني في الفترة المبكرة » . وكما نعلم فاننا حتى الان لا نسـتطيع الجزم في تدمير المدينة أو على الاقل انهاء دورها الرئيسي وهل قام بهذا العمـل ملوك سومريون أو أكاديون ومتى ؟ ومن ؟ . هنالك اشارات من كـلا الطرفين السومري والاكادي على تعامله مع مدينة إبلا . . **أو ادعائه الهيمنة عليها وعلى ماري** . ولكن هذا يحتاج الى تأكيد وتأييد آخر . وخاصة أن محفوظات إبـلا أو ماري لم تقدم مثل هذه القرائن حتى الان . وليس هـذا لب المشكلة . **اذ أن المصادر الانسانية في محفوظات إبلا وماري هو الاهم** . ولذا فان الدراسات يجب أن تتركز على معطيات النصوص الاجتماعية واللغوية ، **وان لا يسيل حبر كثير على حوار من أجل قراءة اشارة ، أكثر من اجراء مقارنة بين نمط الحياة الزراعية أو الاجتماعية وما نحن عليه اليوم .**

٦ ـ الفونسو اركـي (دراسة ثانية) :

« أسماء العلم في ماري وإبلا في الالف الثالث » ص ٥٣ ـ ٥٨ .

دراسة مقارنة للاسماء المستعملة في المدينتين . وغياب بعضـها في احداهما ، ومعانيها ، وبالتالي امكان تحديد لهجة خاصـة لكل مدينة . وتضـم الدراسة جدولا بمئات الاسماء .

٧ ـ ديتـز أوتو ادزار Edzard , Dietz :

« ما يسمى (تاج ـ ج Tag. Ge) ومسائل أخرى » ص ٥٩ ـ ٦٢ .
وهو محاولة للتعرف على اشارة مهشمة Ta + X حيث يقترح امكانيات أخرى لقراءة هذه الاشارة السومرية المفقودة (x) بعد أن قرأها ج. دوسان GE كما هو في العنوان .

٨ ـ الفونسو اركـي (دراسة ثالثة) :

« الاتصالات السياسية والاقتصادية بين إبلا وماري » ص ٦٣ ـ ٨٣ .

وكما يصرح الباحث بأنه لا توجد الا وثيقة واحدة في إبلا (ن ص ٦٣) التي تشهد

على أعمال سياسية أو عسكرية بين ماري وإبلا . ولهذا يجب **الحذر من مغبة تضخيم دور إبلا العسكري أو السياسي**.أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فلا شك بأن الامر مختلف وتشكل النصوص في هذا المجال **مصدرا من الطراز الاول** للتعرف على الواقع **الاقتصادي والاجتماعي في سورية في ذلك الزمن** ، ولا يعني هذا وجود شواهد مباشرة على تبادل اقتصادي مع ماري اذ يعود الباحث ليذكر بأنه لا يوجد الا نص واحد الذي يمكن اعتباره دليل اتصال اقتصادي بين إبلا وأحد ملوك ماري إبلول إيل Iblul Il وهو عبارة عن سجل دفع الضريبة لهذا الاخير ومقدارها (٣٥ر٧٣) كغ فضة و ٠٩ر١٠ كغ ذهب وتغطي فترة أربعة أعوام ؟ (ن.ص ٦٥) .

٩ ـ فرانس بينوك Frances Pinnock

« التجارة في فترة إبلا ـ سورية . المبكرة » . (بالانكليزية) ص ٨٥ ـ ٩٢ .
يبرهن فيه الباحث على أهمية دور إبلا التجاري في شمال سورية والرافدين خلال الربع الثالث من الالف الثالث ق.م . ونظرا لأهمية هذا الدور فان الاكاديين حاولوا كما جاء في كتاباتهم وضع نهاية لإبلا بالقوة (ن.ص ٩٢) .

١٠ ـ لوبو :

« تقرير أولي الفخار في احدى مواقع ماري في الالف الثالث ق.م » .

١١ ـ جان أوت J. Oates, :

« السلم الزمني في تل براك ـ في الالف الثالث ق.م » ص ١٣٧ ـ ١٤٤ .
وتتحدث الدراسة عن نتائج تأريخية في الالف الثالث اثر حفائر في تل براك شمال سورية ، وهو موقع أكادي يعود لعهد نارام سين .. الذي (يفترض) أنه قد هاجم إبلا وأنهى دورها الاقتصادي في المنطقة . ويعتقد بأن تل براك يمثل منطقة ومدينة **لها نفس دور ماري (وسط حوض الفرات) وإبلا سورية** الشمالية الغربية .

١٢ ـ جان ماري ديوران :

يتناول القسم الثالث من المجلد الرابع هذا ، موضوعا دقيقا وغامضا الى حد ما في تاريخ ماري ، من سقوط دولة أكاد الى ظهور سلالة يخدون ليم ، وتقدر بنحو أربعة قرون من نهاية الالف الثالث ق.م . وتسمى فترة **شكانكو** Shakkankku وهو اسم الحكام الذين يفترض أنهم حكموا ماري خلال هذه الفترة . وقد تناول هذا الموضوع جان ماري ديوران بدراسة مطولة بعنوان: «الوضع التاريخي

لـ (شكانكو) . نظرة جديدة » . ص ١٤٧–١٧٢ . ويخلص الباحث الى نتيجة يعتقد فيها أن هذه الفترة المظلمة (من حيث توافر الوثائق) **هي المسؤولة عـن العظمة التيوصلت اليها ماري ، وخاصة قصرها الكبير الذي حكم منه زمريليم المشهور** . وانه وأجداده ومجموعة قبائل الحنانيـين في شـمال شرق الفرات قد عرفوا كيف يكونوا الورثة الحقيقيين لعصر شكانكو . ولم يعش الاموريون لوحدهم في ماري ، بل هناك مجموعة قبائل أخرى عاشت في أطرافهـا تعادل بابل وآشور وتتكلم لهجة أكادية ليست بابلية ولا آشورية .. تظهـر في بعض الوثائق المسماة شكانكو . ولا شك أن دراسة هذه الوثائق (المنشورة سابقا) ستعيد ترتيب كثير من معارفنا عن ماري ، كما يقول جان ماري ديوران .

١٣ ـ دومينيـك بيـير Beyer, D. :

استكمالا لبحث جان ماري السابق المستند الى النصوص ، تستند دراسة بيير هذه الى مجموعة من طبعات الاختام التي تشمل كتابة بعض الاسماء من هـذا العصر « **وثائق جديدة مصورة** Iconographie **مـن عصر شـكانكو في مـاري** ص ١٧٣ ـ ١٨٩ .

١٤ ـ كلاس . ر . فنهوف Veenhof, Klaas R.

« **الاسماء والالقاب في العصر الآشوري المتاخر وماري** » ص ١٩١ .

وهي دراسة للاسماء التي تنتهي بـ ليم ، Lim والتي تحفل بها نصوص ماري وكذلك الالقاب والوظائف الآشورية المتأخرة .

١٥ ـ موريس بيرو :

« **حوليات آشورية في ماري** » . ص ٢١٩ ـ ٢٤٢ .

وتعتبر هذه الحوليات من أقدم ما يتوافر عن بلاد الرافدين من معلومات عـن حكامها وشخصياتها في هذه الفترة .

١٦ ـ دومنيـك شـاربان :

« محفوظات من عصر آشور في قصر ماري » . ص ٢٤٣ ـ ٢٦٨

هي مجموعة نصوص آشورية وجدت في أثناء الحفائر في قصر ماري ، اقتصادية وادارية ، تتضمن أسماء سنوات عديـدة صنفها الباحث وقدم عنها هـذه الدراسة المطولة .

تل ليلان ـ شوباط انليل :

١٧ ـ هارفي فايس .Weiss, H :

من المعروف أن هذا المؤرخ والمنقب الامريكي الاستاذ في جامعة /يل/ Yale وهو الذي يدير حفائر تل ليلان شمال سورية ـ قرب القامشلي ، قد تنبأ مع آخرين بأن هذا التل هو المدينة القديمة المسماة شوبات ـ انليل Shubat - Enlil وهي أقدم عاصمة آشورية ، أي عاصمة شمش أدد ، منذ نهاية القرن العشرين ق.م . وصدق تنبؤه من خلال اكتشاف نصوص مكتوبة ومزيد من الدلائل الاثرية . كل هذا يقدمه في دراسة مطولة بهذه المناسبة تحت عنوان :

« تل ليلان وشوبات انليل » ص ٢٦٩ ـ ٢٩٢ .

تجدر الاشارة هنا الى أنه لم يعثر على نص واضح يدل على اسم المدينة شوبات انليل ولكن يبدو (وليس أكيدا) أن للمدينة اسما آخر معروفا من خلال وثائق ماري هو أبوم ، كما ظهر ختم يحمل اسم خادم لشمش أدد اضافة الى أختام وآثار أبنية تدل على أن المكان قد استخدم في عصر شمش أدد تحت اسم شوبات انليل . وتبقى القضية مطروحة للنقاش حتى تتوافر أدلة أكثر دقة .

١٨ ـ ديوران وشاربان :

يقدم هذان الباحثان والاستاذان في جامعة باريس الاولى ، بحثا آخر في هذا المجلد بعنوان :

« استيلاء زمري ليم على السلطة » ص ٢٩٣ ـ ٣٤٣ .

ولهذا الموضوع أهمية خاصة . فهناك مسألة عودة زمري ليم للسلطة وطرد الآشوريين من ماري حيث قتل ملكها السابق يخدون ليم ، والجهة التي ساعدت زمري ليم في هذه العودة ، وأين كان خلال فترة استيلاء الآشوريين على ماري ؟ يحاول كل من شاربان وديوران الاجابة على هذه المشكلات من خلال مراجعة نصوص قديمة سبق نشرها ، ومن خلال نصوص لم تنشر بعد .

استمرارية فن العمارة منذ خمسة آلاف سنة حتى اليوم :

١٩ ـ أوليفيه أورانش .Aurenche, O :

ويأتي القسم الرابع ليعالج موضوعات تتعلق بقصر ماري وعلاقته بالمدينة بالذات ويبدأ أورانش بدراسة تحت عنوان :

« الملاحظات البشرية(العرقية) واثرها في فهم الاوابد القديمة : قصر ماري ، وقصور الشرق الاوسط المعاصرة ». (ص ٣٤٧ ـ ٣٧٤) .

انه لمن النادر أن نقرأ دراسات من هذا النوع ، أي **مقارنة القديم القديم .. بالحديث الذي نعيش فيه اليوم** . هذه الدراسة الجريئة تقدم لنا محاولة جادة لقراءة **الفن المعماري القديم** من خلال ملاحظات الباحث للفن المعماري الحديث . ويخلص البحث الى النتائج التالية :

١ ـ **ان نتائج الكشف الاول المقارن ، بين الفن المعماري القديم في ماري ، والهندسة** المعمارية القائمة ، ايجابية .

٢ ـ ان جميع الوظائف لقصر ماري قد وجدت مثيلاتها في مجمعات معمارية معاصرة .

٣ ـ ان نسبة الاختلاف بين وظيفة معمارية أو أخرى هي أقل من نسبة التقارب .

٤ ـ على الرغم من الاختلاف في تكوين الفراغ بين بناء وآخر ومنطقة وأخرى ، فاننا نجد دائما عاملا يلبي حاجة تنظيم اجتماعي ذي أصول حضارية متشابهة ، مثل **فصل الجنسين ، رجالا ونساء ، وفصل** الفراغ وفق الترتيب الاجتماعي : سيد ـ عبد مع كل ما يتطلب ذلك من تكوين .

٥ ـ ان العوامل الاجتماعية التي أثرت على تكوين الفراغ والبناء في **حضارات الرافدين** نجدها في **الحضارة العربية الاسلامية** التي تلتها في الوسط الجغرافي ذاته في المشرق العربي .

٦ ـ ان ما تقدم من عوامل مقارنة قد توصل اليه جان مارجورن ـ مدير حفائر ماري ـ في دراسة خاصة نقلها الينا أورانش ، بعد أن أضاف اليها ملاحظتين هامتين وهي أن البناء التقليدي قديما وحديثا **والمقصود بالتقليدي البناء الزراعي ، الرافدي والاسلامي)** . يترك فراغين للحيوانات ، وآخر لوسائط النقل ، وثالثا لممارسة أنشطة فصلية بين الشتاء والصيف . وهذه الملاحظات صحيحة وهي في صلب تكوين البيت الزراعي . والبيوت العربية بصورة عامة .

تلك هي باختصار أهم العوامل والملاحظات التي توصل اليها أورانش وقبله جان مارجورون فيما يتعلق بصلة الفن المعماري القديم بالحديث أو استمراريته في الحاضر . لم يكتف الباحثان بمعلومات النصوص وهي الاساس في فهم وظائف الفراغ في بناء لم يبق منه سوى ركام .. بل استندا على معلومات دقيقة مستمدة من مخططات الابنية القديمة التي تم رسمها بدقة ، اثر عمليات التنقيب ، ونعلم أن قصر ماري الذي يعتبر أكبر قصر قديم في العالم (أكثر من ٢٠٠ صالة ومكان) ما يزال يقدم المزيد من

المعلومات المعمارية القديمة . ولقد افاد الباحث من كل هذا وقدم مقارنة مع أبنية معاصرة نراها في معظم أرجاء الوطن العربي فأخذ أبنية من اليمن والمغرب ، وقارنها مع بقايا قصر ماري ، فاتت بنتائج ايجابية . وهذا طبيعي لأن الانسان لم ينقطع عن التواجد على هذه الارض منذ وصلتنا أقدم وثائقه المكتوبة .وهو الانسان الذي تجسده اليوم حضارة العرب ، بكل أبعادها وتعدد مذاهبها وأفكارها .

٢٠ ــ دومنيك بيير :

وتأتي دراسته ، الى حد ما ، ضمن اطار فن البناء ونظمه ، وهي تتعلق بنظام أغلاق الابواب في قصر ماري الكير ، من خلالالنصوص أو الاثار المتبقية التيتشهد على ذلك . والدراسة بعنوان :

« اغلاق ــ أقفال الابواب في قصر ماري » ٣٧٥ ــ ٣٨٤ .

٢١ ــ جان ماري ديوران :

يعود الينا ، ثانية وثالثة ، هذا الباحث الذي ينتج من الدراسات بغزارة ودقة تجعلانه في المرتبة الاولى بين الباحثين المعاصرين عن ماري ، بدراسة دقيقة ومفصلة بعنوان : **((نساء قصر ماري في عهد المملكة القديمة في الرافدين ــ الاعلى))** . ص ٣٨٥ ــ ٤٣٦ .

تعتمد الدراسة على المعلومات المستخلصة من سجلات توزيع المواد التموينية ، وخاصة الزيت . ونعلم من خلال ذلك أن ملك ماري يشمخ أدد قد استقر في قصرها عقب هزيمة يخدون ليم ومقتله مع زوجته وأولاده . ثم نعلم أنه تزوج من ابنة ملك قطنة (قرب حمص) نحصل على معلومات أخرى تتعلق بزيجات بين موظفين كبار ونساء من العائلة الملكية . ونعلم بوجود نساء يحملن أسماء أجنبية : مثل شيوارم . اتوك . مينازي . الخ وهذا طبيعي لان شمال سورية كان وما يزال موضع التقاء واحتكاك بسكان الاناضول قديما وحديثا . ونعلم أن زمري ليم قد حافظ على نساء خصمه يسمخ ادد بعد طرده بالاضافة الى أخريات كن يعشن في كنفه في قسم الحريم من القصر الكبير .

٢٢ ــ ساسون ، جاك :

دراسة أخرى (بالانكليزية) لهذا الباحث والاستاذ في جامعة كارولينا . بعنوان: **((سنة قام زمري ليم بتقديم عرش عظيم الى ((الاله)) شمش في (مدينة) مخنوم))** . وهي اعادة نظر في تأريخ احدى سنوات ماري . وقسمها الاول بعنوان : حضور الملك : ونتعرف على نشاطات الملك خلال هذه السنة ، وتشمل مختلف جوانب الحياة في

القصر ، بالاضافة الى الغزوات والفتوح التي لم تكن لتهدأ في زمنه ، ولا في زمن من سبقه أو أتى بعده .

٢٣ ـ شـاربان :

ويأتي هذا الباحث والعالم الشاب في مرتبة ديوران من حيث الانتاج والبحث والمشاركة في الحفائر وهو أستاذ مادة الدراسات المسمارية في السوربون ، ودراسته الجديدة بعنوان : « محفوظات أصقدوم Asqudum الورع في بناء المنطقة آ من ماري» ص ٤٥٣ ــ ٤٦٢ .

وجدت مجموعة من أكثر من مئـة نص تتعلق بهذا الرجـل المتدين . وقد درس شاربان هذه النصوص الجديدة من حيث زمنها ومضمونها ، ويتعلق بادارة القصـر وملكـه ، وانتهى الى النتائج التالية : كان اصقدوم وعائلته وخدمه يعيشون في هذا المكان أو البناء في مدينة ماري في مطلع عهد زمري ليـم ثم حل محلهم فيما بعد آخرون لا تتوافر معلومات عنهم . ساعد هذا **الاكتشاف على فهـم طبيعة حياة الاسـرة في مجتمع ماري** . وتساعدنا بعض النصوص التـي تحمل أسماء دينية على عقد مقارنات مع أسـماء الالهة في مدن أخرى .

٢٤ ـ كوبـير ، جان روبـير Kupper , J.R :

سبق ذكره ، وهو من المخضرمين في علم دراسات ماري وله باع طويل في دراسة حياة البدو في عصرها ، وكتاب شهير عن البدو الاموريين في عصر ماري . ويقدم لنـا في دراسة جديدة هنا موضوعا بعنوان :

« المدينة والملكة في ماري ــ التنظيم المدني في عصر ماري » . ص٤٦٣ــ٤٦٦ .

يستعرض فيها النصوص الاداريـة المتعلقة بالقصر والمدينـة والريف وقراه ، والمسؤوليات الملقاة على عاتق كل موظف وفق هذا التسلسل ، ويتابع هذا الوضـع ، وفق معطيات النصوص ، منذ العصر الاشوري المبكر في ماري حتى زمري ليـم .

✻ يأتي القسم الخامس من هذا المجلد الكبير ليضم الدراسات المتعلقة بالفـن والعمارة ونشاط الفنانين .

٢٥ ـ ونيفرد أورتمـان **Orthmann, W.** :

« الفن الاكادي في شـمال سورية وماري » . ص ٤٦٩ ـ

ونقطة الانطلاق من هذه الدراسة هي مجموعة قطع نحتية لتمثال وجـد خـلال حفائر حلاوة Halawa ١٩٨١ ــ ١٩٨٢ . ويمثل بقايا من ثلاثة مشاهد دينية احتفالية.

والمشهد الثالث الاكثر تهشيما ، يسمح برؤية قائد مركبة وظهر دابة الجر وهي (حمار) على الاغلب . وهذا المشهد معروف في العصر الاكادي . وتؤدي نتائج الفحص الدقيق للاشخاص وملابسهم وأدواتهم الى أن المشهد خاص بشمال سورية نفسها ويمكن مقارنته بانتاج سومري في العصر الحديث (السومري) أي نهاية الالف الثالث ق.م. ونرى وجوه الرجال المضخمة والمخيفة مماثلة لوجوه منحوتات في مناطق أخرى من سورية . مثل إبلا . من جهة أخرى فان الفن السوري في العصر الاكادي اقل وفرة منه في عصور أخرى والسبب هو نقص الشواهد لا أكثر . **لاننا نجد أن الفن ينهض في عصور لاحقة وخاصة إبلا وماري ،** وتتوافر كثير من الشواهد عليه .

٢٦ ـ بيير اميه : ودراسته بعنوان :

« أختام ماري ـ ملاحظات ونقد » ص ٤٧٥ ـ ٤٨٥ .

تعتبر ماري أقدم موقع أعطى لسورية أكبر مجموعة من الاختام وطبعاتها ، وكونت فكرة عن حضارة سورية المبكرة وأعطتها هوية ذات شخصية متميزة عن سومر وأكاد ونلحظ ذلك في اكتشافات لاحقة ، في تل خويرا وإبلا .. مما أثبت أصالة الفن التصويري النحتي السوري القديم . وتعد هذه الدراسة تطويرا لهذه الفكرة من خلال العودة الى منقوشات ومنحوتات ماري التي تعود للالف الثالث ق.م. ونجد فيها تقديما مصورا لمعظم هذه الاختام والنقوش .

٢٧ ـ مارجورون :

ودراسته بعنوان : « **بعض الملاحظات على معابد ماري** » ص ٤٨٧ ـ ٥٠٧

يخلص فيها الباحث للقول ان المشكلات التي يطرحها فن العمارة الديني ، أي فن بناء المعابد ، تتعلق بعدم وجود مثال كامل نستطيع فيه التميز بين **فن عمارة سوري وآخر رافدي !** ورغم هذا فان معبدا من الطراز الذي وجد في ماري (معبد دجن ويعود للفترة ما قبل شروكين ـ صرجون) ، له ما يقابله بالشكل في سورية ، في رأس شمرا وفي آلالاخ . ويتابع الباحث قوله : **لا يمكن تحديد استقلالية تامة عن الرافدين في مجال البناء الديني في ماري** . واذا أردنا البحث في هذه الاستقلالية ، علينا العودة الى معابد سورية الوسطى والغربية .

٢٨ ـ هنري ليمه Henri Limet :

« الحلي والمجوهرات في ماري »

ويبدو أن ماري كانت بارعة في هذا المجال فقد قدمت لنا النصوص ثبتا بالمواد

المستخدمة في صناعة المجوهرات والحلي ، وأسمائها ومناسبات اهدائها . وقدمت لنا الحفائر بعض أمثلة منها محفوظة في متاحفنا ومتاحف العالم . أما أهم المعادن والاحجار المستخدمة في التصنيع فهي الذهب والفضة والبرونز . واللازورد والعقيق ..الخ.

*** القسم السادس من هذا المجلد الرابع من M.A.R.I عنوانه : مشكلات دينية**

٢٩ ـ ويلفرد جورج لامبيرت Lambert , Wilfred. G.

دراسة بعنوان : ((مجمع ماري الديني)) • (بالانكليزية) • ص ٥٢٥ ـ ٥٣٩ •

من أولى الملاحظات التي يسجلها المرء في الحياة الدينية القديمة في ماري هو تقديم **الاضاحي من الخراف الذكور** • هذا التقليد ما يزال قائما في حياتنا الدينية ولم يتغير « كعادة » مع تغيير المعتقدات وتطورها . وتقدم لنا نصوص ماري أسماء أكثر من ٢٥ اسما الهيا مقدسا ، أهمها شمش ، سين (القمر) أدد (الرعد والمطر) ، عشتار ، ايـا ، نينخور ساجا .. الخ ، **وهناك عشرات الاسماء الدينية الاخرى التـي تعكس بمعانيها اللغوية فكر الانسان ومخاوفه وتطلعاته وآماله •**

وتبدأ هذه الدراسة بتقديم دقيق للالهة وأسمائها وأصولها . وهو ما يقودنـا الى ملاحظة هامة مفادها أن اله أية مدينة قد يعبد في مدينة أخرى بغض النظر عـن الاختلاف والتناحر السياسي . **فجميع الالهة مقدسة • والجميع يقدمون لها الاضاحي والابتهالات • ولم يبدأ تميز اله على بقية الالهـة ، وبالتالي بروز مجموعـة بشريـة ومحاولة تفضيلها على أخرى الا في غضون أواخر الالف الثاني ق•م وهو الوقت الذي يفترض أن فيه ظهرت فكرة التوحيد عند الاسرائيليين القدماء •**

والجدير بالملاحظة أن الاضاحي تؤكل بعد ذبحها في بلاد الرافدين لدى سـومر وأكاد • في حين تحرق عند الكنعانيين (وفق المؤلف ن•ص ٥٢٨) وبهذا المعنـى فان تواصل العادات والتقاليد لما ينقطع في مجتمعنا خلال خمسة آلاف سنة ، **وان الاصالة الاجتماعية والثقافية المعاصرة تمتد الى تلك الحقب البعيدة في الزمن** • وهـو ما لم يدركه البحث المعاصر في الاصالة العربية ـ برأينا على الاقل ـ •

ان مجمع ماري الديني يضم أسماء آلهة من مختلف مناطق شمال سورية وهي بلا شك متأثرة بالثقافة السومرية بشكل واضح بفضل اختراع هؤلاء الكتابة . وقد كان مجمع المدن السورية الشمالية بشكل عام منظما ومعروفا في كل مدينة من المدن. اذ أن لكل منها اله رئيسي والى جانبه مجمع • ويعكس لنا ترتيب هـذه المجمعـات الدينية وطقوسها **التواصل الثقافي والروحي بين سورية وسومر** في ذلك الوقت . نجد هذا في أسماء آلهة سومرية في معابد سورية والعكس صحيح أيضا . ولهـذا فان أي حديث عن مجمع ديني في سورية أو الرافدين لا يكتمل ما لم نتطرق الى الجانب الاخر.

ويرى الباحث أن للمعبد دور اقتصادي هام في حياة سومر . ولذا فقد حظي بتنظيم أدق وأشمل ، في حين قام الاكاديون بسحب هذا الامتياز من المعبد . ونقلوا الانشطة الاقتصادية الى القصر لا بل ان صرجون ـ شاروكين أسس مدينة جديدة ليدير منها امبراطوريته . وهكذا يرى المؤلف أن ناطقي الاكادية وفروعها قد أعطوا المعبد ومجماعته أهمية أقل من العهود السومرية السابقة .

ونلاحظ ظهور نصوص جديدة تحمل اسم اله اسمه اتور ـ مير Itur - Mer ويستخاص الباحث بعد نقاش طويل أن معناها هو بوابة ـ ماري . وانها اسم اله قديم يكتب هكذا (d)Itur — Mer **وهو اصل اسم مدينة ماري** . كما يظهر اسم **نهر الخابور** في نصوص قديمة بابلية ومارية **هكذا** (d)hu — bu — ur **أي اله نهر الخابور** .

٣٠ ـ أندريه فينيه :

« شمش اجي ـ كور : عين البلاد » ص ٥٤١ ـ ٥٤٣ :

ربما كان عنوانا غريبا لهذه الدراسة وهي محاولة لغوية مقارنة بين السومرية والاكادية لمعرفة معنى المقطعين السومريين Igi - Kur اجي ـ كور . وفي النتيجة فان شمش اجي ـ كور هو اله و « عين البلاد » وهو ملك السماء والارض .

٣١ ـ بيير بورد روي Bordreuil , P. :

« اشتارت المارية وآلهة اوجايت » :

وهنا يعبر الباحث عن مقدار انتشار عبادة آلهة ماري « اشتارت » التي وصلت الى أوجاريت على الساحل السوري . وتظهر في النصوص الى جانب ايل = اله ، وبعل Baal فهذه الالهة الرافدية أشتار Ashtar التي سميت أيضا فيما بعد إشتار Ishtar ، قد عرفت في ماري تحت اسم سومري (d) MUS . ZA . ZA وهي **اشتار ـ عَشتارت** Attart أو عِتارت Ittart المؤنثة في مجمع أوجاريت الديني .

وهكذا نستطيع التأكيد ان الافكار والعبادات كانت تنتقل من الرافدين الى سورية وسواحلها ومنها كانت تنتقل الى عالم بحر ايجه منذ فجر حضارته المتاخر بالنسبة لسورية والرافدين .

٣٢ـ أندريه لومير Lemair , A.

« ماري ، التوراة والعالم « السامي » الشمالي الغربي » ص ٥٤٩ ـ ٥٥٨ .

والغاية هنا محاولة فهم التوراة على ضوء معطيات شواهد مستقلة من ماري . ويبدأ الباحث بالملاحظات التالية :

١ ـ التوراة لم تذكر اسم ماري .

٢ ـ نجد في نصوص ماري اسم مدينة تقع على نهر الاردن وهي حاصور Hasura

٣ ـ اهتمام المتخصصين بالدراسات التوراتية . اقتصر فقط على دراســة مسائل النبوة والتنبؤ التي تطرقت اليها بعض نصوص ماري . وكذلك قصة الوعد ، ليظهروا أن الوعد ذو رمز الهي موجـود في تراث حضارة المنطقة منـذ أقـدم العصور . والوعد الالهي لا يمكن أن يكون وثيقة تملك كما تدعي «الصهيونية» .

٤ ـ تذكر نصوص ماري مدينة حران وناحور في أعلى الرافدين ، وهي مدن ذكرت في نصوص التوراة على أنها من أصول ابراهيم (عليه السلام) وعائلته . ولكـن هذه المدن بالذات لم تقدم أي شاهد على ذلك .

٥ ـ وجود تواصل لغوي وخاصة على مستوى الاسـماء بين بعض أسماء التـوراة ومثيلاتها في ماري . وهذا أمر طبيعي وموجود حتى في أسماء وقتنا الحاضر . وكذلك في كثير من الافعال والاسماء في العبرية كما هي الحال في العربية .

٦ ـ نلمس على المستوى الاجتماعي وجود تقابل دائم بين بدو متنقلين وحضر مستقرين وهي ظاهرة موجودة في التوراة ونصوص ماري والقرآن الكريم (فيما بعد) .

٧ ـ ظهور النبوة في وقت مبكر في ماري ، كما أن المعجزات لم تكن متوقفة على الكهنة والانبياء بل يمكن أن تحدث مع أناس عاديين كما في أمثلة من نصوص ماري .

أما نقد طريقة التقرب من دراسات التوراة ـ ومعطيات النصوص القديمة كماري وغيرها فهي :

١ ـ ان جميع المعطيات التي تدل على أحداث التوراة التقليدية تدل بشكل غير مباشر أن أقدمها ، لا يعود ، لابعد من الفترة الامورية (عصر ماري وما قبل) . وأنــه ما من باحث يستطيع أن ينفي أو يؤكد بشكل قاطع صحة هذا الاستنتاج .

٢ ـ لهذا السبب نجد انه ، عقب كل اكتشاف هام لنصوص مسمارية وغيرها مثـل أوجاريت ، وماري ، وإبـلا ، نجد سعي التوراتيين الحثيث لايجاد معطيات توراتية ، لاسباب معروفة ، وهي اثبات قدم التراث التوراتي على غيره .

ان مثل هذه المحاولات التي يمكن أن تسمى « مركزية الثقافة التوراتية » التي يغامر من خلالها بعض المختصين بخيالاتهم فقط تؤذي منهجية البحث العلمي ، وتؤدي الى نتائج مغلوطة .

٣ ـ الحذر والحذر التام هو ما يجب أن يلتزمه دارسو التوراة ومؤرخو النصوص

المسمارية . فكل منهم يعمل في عالم مختلف جغرافيا ومنهجيا ومجال المقارنة ضيق جدا .

٤ ـ من وجهة النظر هذه ، فان حران وناحور مذكورتان في النصوص المسمارية وموجودتان قبل تدوين التوراة بقرون طويلة كما أن ذكر حاصور في نصوص ماري ، لا يعطي أحداث التوراة تأريخا لها في عهد كتابة نصوص ماري ... وهكذا . بل بالعكس ان غياب اسم ماري وحاصور من التوراة يدل على حداثة هذا الاخير وقدم ماري وحاصور .

٥ ـ ليس من الضروري أن كل المجتمعات التي تجمع بين البدو والحضر، يجب أن توضع في نفس الزمن . أي مجتمع التوراة القبلي ـ ومقابله في ماري ؟. وهكذا الحال بالنسبة لظاهرة النبوءة . فليستالنبوءةوقفا على التوراة. بل نجدصورا مشابهة في ماري وليس بالضرورة أن تكون الاولى أصل الثانية أو العكس. لنذكر محاولة لجعل زمري ليم نبيا معاصرا لعمون . (انظر ص ٥٥٥).

٦ ـ ليست « العبرية » التوراتية هي الوحيدة والاقدم والمهيأة للدراسات المقارنة . فهناك الاوجاريتية والعربية ولهجات الجنوب التي أثبتت مكانتها في صدر العائلة اللغوية القديمة لبلاد الرافدين .

٧ ـ اذا كان لا بد من المقارنة مع لغة قريبة وقديمة في آن معا . فلا بد من العودة الى الارامية التي تغطي فترة الالف الاول ق.م. وتضم « لهجة التوراة » الى جانبها .

٨ ـ يجب مقارنة نصوص ماري مع نصوص أوجاريت التي تقع في فترة الالف الثاني وليس مع نصوص التوراة التي كتبت بعد منتصف الالف الاول ، ومع الارامية القديمة في الالف الاول ، اذ يجب أن تكون قريبة جدا من لهجة ماري ، لانها استخدمت في الالف الثاني في منطقة ماري .

وهكذا يجب أن لا تخضع الدراسات المقارنة بين النصوص القديمة والتوراة الى تضخيم يتعدى الحقيقة والواقع . وان الدراسات المقارنة بين ماري وغيرها تحتاج الى تحليل دقيق ويجب مقارنتها مع المحيط الاقرب ، مع أوجاريت مثلا ، وتل العمارنة ، وإبلا أولا .

القسم السابع والاخير هو بعنوان « ماري بين سورية والرافدين »

٣٣ ـ ستيفانيا مازوني : Stefania Mazzoni

ودراستها : « فخار الفرات الاعلى في فترة البرونز ٤ » . ص ٥٦١ ـ ٥٧٧ .

تظهر مدى التنوع في صناعة الفخار التي كانت منتشرة في ســورية في النصــف الثاني من الالف الثالث ق.م .

٣٤ ـ هيرمان جاش Gasche , H.

« تل الدير وأبو حبا » Tell - ed - Der et Abu Habbah **ص ٥٧٩ ـ ٥٨٣ .**

دراسـة حول حفائر جديدة قرب بغداد في حوض الفرات .

٣٥ ـ داود أوتز Oates , D.

« شريط من المدن في بلاد الرافدين » ص ٥٨٥ ـ ٥٩٤ :

تتعلق الدراســة بمجموعة من التـلال والمدن المنتشرة في أعلى الجزيرة والفرات من الناحية التاريخية والجغرافية والاثرية .

٣٦ ـ بارتل هرودا Berthel Hrouda

« حول مشكلة الحوريين » ص ٥٩٥ ـ ٦١٣ « بالالمانية » .

تتعلق الدراسة بالعناصر الحورية ، ذات اللغة الهندو ـ أوربية ، والتي تسربت الى حضارة الرافدين بدءا من القرن الخامس عشر ق.م ووجدت آثارها في آلالاخ . ومن ثم في الدولة الميتانيــة .

٣٧ ـ كريستين كسبنسكي وأوليفيه لوكونت Kepinski , C. : Lecomte, O.

« ماري وحردوم Haradum **» ص ٦١٥ ـ ٦٢١ .**

وهو موقع أثري وسط حوض الفرات في العراق ، يقدم بعض المعلومات الاثرية عن فترة نهوض ماري .

المجلـد الخامس ـ ١٩٨٥ ـ

يضم المجلد الخامس من هذه المجموعة دراسـات تاريخية وأثرية يبدؤها جــان مارجورون بدراسة حول حفائر ١٩٨٤ في ماري ص (٥) تليها البحوث :

١ ـ **الفونسو آركي : (لغوي بعثة تل مرديخ ـ إبلا الايطالية حاليا) .**

وعنوان الدراسة : « اللقبان ان En **ولوجــال** Lugal **في إبـلا وهديـة الملك كيش » ص ٣٧ ـ ٥٢ .**

ويوضح لنا اركـي أن لقب لوجال بالسومرية يقابله ملك بالإبلاتية .
Nam - en = ma - li - gu - um/malikum

. أي ملك = لوجال . وملك الابلائية هي ذاتها العربية)

يحلل لنا اركي أكثر من ثلاثين نصا تسجل مواد نسيجية ومعدنية ثمينة ؛ ذهب وفضة. مع ذكر آخر ملكين من ملوك ابلا وهما ابريوم Ibrium وإبي ـ زكير Ibbi - Zikir أحد الارساليات موجهة الى « اموتي ملك أرواد » !

Amuti Lugal A- ra - a - du (ki)

وهناك عشرات الاسماء من المدن والملوك لا نعرف أين تقع مدنهم ! وبعضها معروف مثل حران . وكيش التي يرد ذكرها أكثر من ثمانين مرة .

٢ ـ ماري تيريز بارليت Barrlet, M.T.,

« على هامش دراسة بعض طبعات الاختام من قصر ماري » ص ٥٣ ـ ٦٤ :

دراسة مقارنة لقراءة نص ختم يحمل عبارة إله الاموريين / حامل سلاح الحرب في يده / المخلص من الخطيئة .

٣ ـ شـاربان :

« الواح ـ مسمارية ـ من ماري ، ما قبل شروكين ـ صرجون » ص ٦٥ ـ ١٢٧

وهي أقدم نصوص يتم الكشف عنها من خلال حفائر ماري منذ ١٩٧٤ . وتتكون لغتها من لهجة مارية غربية مع السومرية التصويرية . وهي قريبة من كتابة ولهجة إبلا في الالف الثالث ق.م ولكنها لا توضح من خلال الاسماء الى أي عهد أو ادارة يمكن أن ترد وهي مجرد تسجيلات لمواد تموينية موزعة على أشخاص مجهولي الهوية .

٤ ـ شاربـان :

دراسة أخرى بعنوان : « شوبات ـ انليل وبلاد أبوم » ص ١٢٩ـ١٤٠

Subat Enlil et Lepas d'Apum

وهي دراسة مقارنة هدفها الاستدلال على الاسم الحقيقي القديـم لتل ليلان . ويخلص الباحث الى أن اسم تل ليلان هو على الاغلب شوبات انليل ولكن قبل وصوله الى هذه النتيجة سال كثير من الحبر .

ونظرا لاهمية هذه العاصمة « شوبات انليل » والتي عرفت بأنها تل ليلان (قرب القامشلي ـ قحطانية) ولأنها أول عاصمة لدولة آشورية بزعامة شمش ـ أدد (القرن التاسع عشر ق.م) فاننا نقدم هنا ملخصا وافيا لمراحل التعرف عليها كمـا وردت في دراسة شاربان الانفة الذكر .

١ ـ عرفت شوبات انليل Shubat - Enlil من خلال نصوص ماري . وعدت من أهم عواصم الشرق القديم التي لا يعرف موقعها . وراح الباحثون يفترضون لها مكانا وفق معطيات النصوص ، فظهرت التخمينات التالية : ١ ـ اسم آخر لآشور . ٢ ـ في قلب تل شكر بزر (شمال سورية) ٣ ـ وأول من اقترح لهـا تل ليلان مكانا هو فالكنر . Falkner , M وهي الفرضية التي حازت أكثر الاصوات .

٢ ـ تل ليلان ، لا يمكن أن يكون شوبات انليل الا اذا كان شمشي أدد قد استقر فيها بعد أن كانت مسكونة قبله ، ولها الاسم ذاته أو اسم قديم آخر . أي ان شمشي أدد لم يؤسسها مجددا . لأن تل ليلان يحوي طبقات تعود للالف الثالث ق.م ويفترض أن الملك الاشوري قد استقر فيها في غضون أواخر القرن التاسع عشر أي بداية الالف الثانية ق.م .

٣ ـ الاسم الاخر لـ شوبات انليل :

يظهر من خلال بعض النصوص اسم مدينة هامة تدور حولها خصومات وحروب اسمها شخنا Sehna (غير معروفة الموقع) ويقوم على رأسها رجل مسمى كونـام Kunnam ، ويبدو تارة كزعيم لمدينة شخنا ومرة أخرى زعيما لمدينة شوبات انليل! وهذا ما يجعل شاربان يعتقد بأن شخنا وشوبات انليل اسمان لمدينة واحدة . زد على ذلك أن شخنا مذكورة في نصوص تعود للالف الثالث ق.م ! وهذا هو وضع تل ليلان في طبقاته القديمة .

٤ ـ اكتشف في تل ليلان عام ١٩٨٢ طبعة ختم تحمل اسم ايا ـ ابوم Haya - abum (خادم أدد) . وختم آخر باسم ابيل ايليشو بن ألي ـ بانيشو خادم توروم ناكتي ! ونعلم فيما بعد من نصوص ماري ان ايا أبوم هو ملك بلاد آبّوم (بشد الباء) . والسؤال هنا هل تل ليلان هي شوبات انليل أو أبوم ؟

٥ ـ عاصمة أبا أبوم (بدون شد الباء) :

وهو ملك بلاد أبوم (بشد الباء) ، ويضاف الى ذلك أنه ذكر في رسالة الى زمري ليم أن « أيا أبوم : سليم ، وكذلك حال المدينة شخنا ، وكذلك مدن بلاد أبوم ، وكذلك خدم سيدي ، كلهم بحالة جيدة » .

والنتيجة هي أن أيا أبوم يحكم بلاد أبوم من عاصمة اسمها شخنا . من جهة أخرى هناك نص يقول : « وصلني خبر من شوبات انليل ؛ لاوينا ـ أدو قد قتل أيا ـ أبوم ويانوخ سامار قد تم توقيفه » . وهنا نعلم أيضا أن مقتل أيا أبوم ـ وتوقيف الاخر قد تم في مدينة شوبات انليل ! ونعلم قبلا أن يانوخ سامار كان محاصرا في شخنا،

مما يقربنا قليلا من هوية المدينتين (شخنا وشوبات انليل) . ونعلم من نصوص ثانية أن شخصا اسمه شبرام Subram ، هو حاكم شوبات انليل ، ويتبع رجلا اسمه أتمروم ! ونعلم أن هذا الاخير قد قتل ملك أبوم وهو أيا أبوم وهكذا نرى أن شبرام **حاكم مدينة شوبات انليل** ، ويمكن أن تعرف بأنها **عاصمة بلاد أبوم ، وهي بنفس الوقت شخنا ، بشكل غير مباشر ؟**

٦ ـ توروم ناكتي Turumnakti

هناك معلومة من نص تقول : « هل استطيع قتل توروم ناكتي وأعيد بلاد أبوم الى جانب شوبات انليل » . ومعلومة أخرى تقول : « قرني ـ ليم ، قد دفن توروم ناكتي في أبوم . وقد جمع الملوك ناحية شوبات انليل وجعلهم يندبونه أي يحزنون عليه . وبحضور قرني ليم فقد تم تنصيب ابن **توروم كملك على شوبات انليل** » .

٧ ـ نهاية قصة شوبات انليل : بعد أن يهزم شمشي أدد وبنوه أمام تصاعد قوة زمري ليم وبابل ، تعود المدينة (شوبات انليل) الى بلاد أبوم كعاصمة لها تحت سلطة زمري ليم في ماري . بعد معارضة من قبل ساميا « خادم سمسي أدو » وملك أبوم . بعد موت توروم ناكتي يتم تنصيب ابنه ولكنه يهزم من قبل زمري ليم ويضع مكانه أيا أبوم ، الذي قتل فيما بعد .

بعد بضعة أشهر ، يصبح « كونام » سيد شوبات انليل ويعرف باسم سوكال عيلام . وترتهن بلاد أبوم بمملكة اتامروم ، نظرا لتحول شوبات انليل الى مركز ثانوي . ولم تقدم لنا نصوص ماري معلومات عن شوبات انليل / شخنا بعد غزوها من قبل حمورابي البابلي .

وينتهي شاربان الى القول بأن المسألة محصورة في طرفين :

١ ـ **ليلان = شوبات انليل** أو **ليلان = أبوم** وهذه لم يعد لها معنى **لأن ليلان لا يمكن أن تكون الا شوبات انليل : « والعلم عند الله » !** لأن الخبر اليقين يبقى بانتظار نتائج حفائر تل ليلان والحصول على مزيد من النصوص التي تؤيد هذه النتيجة كما حدث في ماري وأوجاريت وأخيرا إبلا . فكم من المعطيات قد تبدلت بعد اكتشافات أكثر وضوحا ودلالة .

٥ ـ دومنيك كولون Collon , D.

دراسة بعنوان : « إشار ـ ليم Isar - Lim »

ظهر هذا الاسم (اشار ليم) في محفوظات ماري كموظف كبير في عصر سومو يامان أحد قادة شمشي أدو ، وقائد فرقة بابلية في زمن زمري ليم . ويحاول كولون في هذه

الدراسة تتبع هذه الشخصية ، مفترضا أنها هي ذاتها في كل مرة ، واثبات ذلك من خلال المقارنة والاستنتاج . ويتوصل الباحث الى رسم شجرة النسب لهذا الرجل الهام ويجلعه ملك / بلاد /خانا / !

٦ ـ ديوران :

ويعود الينا بدراسة مطولة بعنوان : **«وثائق تخص تاريخ مملكة الرافدين العليا»** ص ١٥٥ ــ ١٩٨ .

ينشر ديوران وثيقة هامة : تقول بأن شمشي ادد ملك آشور قام برحلة الى أجاد / أكاد Agadé ،وهي عاصمة شروكين ــ الاكادي ، ويقول فيها : « أعيش في أجاد » وهذا يعني أن للرحلة أهمية خاصة في نظر العاهل الاشوري . ويبدو أن ابنه يسمخ أدو قد قام ، برحلة مماثلة . أضف الى ذلك مجموعة من المعلومات حول حروب الملك الاشوري في الشمال والشمال الشرقي .

ثلاث طرق من الفرات الى قطنة ــ قرب حمص ــ عبر البادية :

وقد عبر عن هذه الطرق كاتب النصوص في ماري ــ عصر يسمخ أدو ، بأنها : الاول أو الاعلى ــ وهو الابعد عن ماري . والثاني الاوسط ، ثم الادنى الاقرب من ماري. والاول هو الذي يتبع حوض الفرات الاعلى . وهي الطرق التي استخدمها الرومان ثم العرب سواء في الذهاب الى الجزيرة العليا أو العودة منها ! ومن ثم تعبر البادية ، أما عن طريق تدمر ــ قطنة (حمص) أو الرصافة ــ السعن ــ السلمية ــ قطنة .

لقد تمكن ديوران من الكشف عن قطع من الرسائل واستطاع ترجمتها والحاقها بأصلها الذي نشر ناقصا من قبل . وهكذا ينشر رسالة تحت رقم (Arm V 7 + A. 1882) بعد أن اكتملت لتعطينا معلومات أوضح عن نهاية عهد شمشي أدد ، وخصومته مع سومو ايبوخ ملك حلب ، وحوار ابنه يسمخ ادو مع حليفه ملك قطنة من أجل مواجهة خطر حلب .

٧ ـ ديوران . ودراسة أخرى بعنوان :

« أشباح مدن في سورية وفي أمكنة أخرى » . ص ١٩٩ ــ ٢٣٤ .

التموين بالملح في الالف الثاني ق.م ؟ يقدم لنا ديوران ترجمة ونقدا لبعض النصوص التي تذكر اسماء بعض المدن في شمال سورية وتذكر في الوقت نفسه نقل حمولات (على الحمير) لمادة الملح . .من مدينة « قطارة » Qattara . والجدير بالذكر أنه ليس بامكان أي كان أن يذهب الى المالح ويأخذ ما يشاء بل كانت تخضع ــ الى حد ما ــ الى ادارة المدينة أو الملك .

وهناك نصوص أخرى تتعلق بابنين لشمش أدد قبيل وفاته . وأخرى بحصار ماري في عهد يشمخ ادو ، وكذلك حصار مدينة تدعى بكرام . بالاضافة الى نصوص تتعلق بأعمال وأحداث صغيرة ومتفرقة حيث ترد فيها أسماء مدن كثيرة معظمها مجهول الموقع حتى وقتنا الحاضر .

٨ ــ ماريا إلز Ellis , Maria de Jong

« الإلهة كيتيتوم Kititum **تتحدث الى الملك ابال بي إل »** IBALPIEL :

(معجزة الهية من موقع حفائر Ishchali **قرب بغداد) ص ٢٣٥ ــ ٢٦٦ .**

ورد في نصوص الرافدين والشرق بصورة عامة صور أدبية مختلفة لوسائط اتصال العبد بربه ، وهي الاحلام ، والرؤى ، ثم النبوءة . وقد وردت معجزة الالهة كتيتوم ، التي تكلمت مع الملك ابال بي إل في مدينة اشنونا شرقا) وبذلك يتأكد انتشار هذه الظاهرة ؛ النبوءة والمعجزة في بلاد الرافدين وليس في ماري غربا وحسب .

ونظرا لما قد يثير هذا النص من اهتمام تقدم له ترجمة الى العربية :

١ ــ الى الملك ابا بي إل .
٢ ــ هكذا « تحدثت » الإلهة كيتيتوم .
٣ ــ أسرار الالهة .
٤ ــ قد سكنت بي .
٥ ــ فيما يتعلق بذكر .
٦ ــ اسمي بفمك .
٧ ــ فما كان . (أي لم يحدث من قبل) .
٧ــ٨ ــ أسرار الالهة . أفتحها لك .
٩ــ١٠ ــ وبرغبة الآلهة وبأمرة
١١ ــ الإله آنو ، فالبلاد
١٢ــ١٣ ــ ستعطى لك لتحكمها .
١٤ــ١٥ ــ وستجمع البلاد ، أعلاها وسفلاها .
١٦ــ١٧ ــ وتأخذ خيرات البلاد ، أعلاها وسفلاها .
١٨ ــ وثروتك لن تنتقص .
١٩ــ٢١ــ وأينما وضعت يدك ، سيتم الخير والسلام .
٢٢ــ٢٤ ــ وأنا ، الإلهة كيتيتوم ، سأقوي عرشك
٢٤ــ٢٥ ــ لقد أسكنت فيك ملائكة الرحمة (لتحميك) .
٢٦ ــ واذناك .. لتسمعاني !

٩ ــ بيلو فرنزارولي Fronzaroli , P.

« الضمائر في ابـلا » ص ٢٦٧ ــ ٢٧٤ .

وهي دراسـة لنصوص جديدة يدرس الباحث الضمائر التي وردت فيها .

ضمير الرفع المفرد : هو (ˇsu ، شـو) و Su - i - LUM (هـو إلـه) وفق دراسات بعض الباحثين ولكن يعتبر الباحث هذا أنه اسم موصول « سو » كما في المثال التالي : She/Shu / u - wa - i - de - an/al(6)-gal .

الشـعير الذي وعدت ، جاهز .

وبنتيجة البحث نستطيع استخلاص الجدول التالي (ص ٢٧٣) :

	الفاعل/ضم	المفعول/فتح	المجرور/كسر	
مفرد مذكر	شو Shu	شـا Sha	شي She شا تي Sha - ti	
مفرد مؤنث	شا ــ دو Sha - du	شا ــ دا [Sha - da]		
مثنى	شـا [Sha]			Sha - a
جمع مذكر	شو ــ دو [Shu-du]			Shu - ti
جمع مؤنث	شا دو Sha - du			Sha - ti

١٠ ــ برنار جيير و جـان ــ ي ، مونشامبير
Bernard Geyer ; J - Y . Menchambert

« قمة السوزا في حوض الفرات الاسفل ــ سورية » . ص٢٧٥ــ٢٩١ .

ويتحدث الباحثان عن المصادفات التي اقتادتهم من ماري الى هذا الموقع قرب البوكمال حيث كان أحد المهندسين قد كشف عن عدد من الجرار أثناء عمليات بنـاء ومن ثم قاد الباحثين الاثريين الى المكان ، وتم الكشف عن مجموعة أخرى من الاواني الفخارية وبقايا بناء تدل على قدم الموقع ، ومروره بعصور تبدأ من عصـر البرونز القديـم .

١١ ــ جيير ومونشامبير :

((تقرير عن عمليات كشف أثري وجغرافي في حوض الفرات ــ قرب ماري)) . ص ٢٩٣ ــ ٣٤٤ .

وغاية البحث هي معرفة المحيط الجغرافي لماري ، والتلال الاثرية المحيطة بها التي نقبت والتي ما تزال مطمورة . وتنظيم خرائط بمجاري المياه وقنواتها القديمة والحديثة معا .

١٢ ــ فرانسيس يوحنا Joannés F.

((نسخ بالمسمارية للمجلد ٢٣ ــ ٢ من محفوظات ماري)) ص ٣٢٥ ــ ٣٧٩ .

وهو نشر حديث لنصوص هذا المجلد مع تصحيح لقراءة بعض الاشارات

والنصوص (من الرقم ٩١ ــ ٢٤٥) أي نحو ١٦٤ نصا ومضمونها اقتصادي واداري بحت ، ولكنه يضم أسماء أشخاص ومدن كثيرة .

١٣ ــ برنار لافون Lafont , B.

((نسخ بالمسمارية للمجلد ٢٣ ــ ٣ من محفوظات ماري)) ص ٣٨١ ــ ٤٠٨ .

وهو ذات العمل السابق أي اعادة نسخ النصوص باليد وتقديم بعض التصحيحات لقراءاتها السابقة والنصوص تبدأ من الرقم ٢٤٨ ــ ٤٢٧ .

١٤ ــ ي . ج . لامبرت :

((عبارات من لغة مجهولة)) ص ٤٠٩ ــ ٤١٤ .

تعددت اللغات واللهجات التي تحدث بها الناس في الشرق القديم ، وبخاصة في بلاد الرافدين . مما اضطر الكتاب أو النساخ الى اقتناء قوائم بالكلمات الاجنبية ومقابلها من الكلمات المناسبة بلغتهم الام . وهي ليست معجما بالمعنى الحديث ، وان كانت هي اقدم المعاجم ، بعد قوائم بالكلمات التي يستخدمها الناسخ الاكادي أو غيره .

وكان الحكام والملوك بحاجة الى مترجمين . وقد حفلت النصوص بأسماء بعضهم وأقدمهم يعود للعصر الاكادي وهو : **شو إيليشو** Shu - i - li - shu **مترجم ملوخا** eme - bal me - luh - ha(ki) .

لا نعرف شيئا عن لغة ملوخا (يظن أنها في وادي السند بالهند) ولا عن موقعها حتى اليوم . ولم نعثر على أي قائمة لعبارات مقارنة مع السومرية أو الاكادية لهذه اللغة .

ويقابل الكلمة السومرية « مترجم » eme - bal ، الكلمة الاكادية ترجمانو Turgumannu أي ترجمان التي انتقلت الى العربية وأخواتها ، ويعتقد الباحث أن الكلمة ليست من الجذر رجم Rgm الاكادي وانما هي من الكلمة الحثية تركميا Tarkummiya التي تعني : أعلن ، ترجم ..

أما المرات الذي ذكر فيها استخدام « مترجم » في النصوص الاكادية فهو يدلنا بالطبع على عدد اللغات التي كان يتحدث بها الناس آنذاك في منطقة الرافدين وما جاورها .

وقد ورد ذكر قرابة ثلاثة عشر مترجما لثلاث عشر لغة وهي :

1	Ahlamû	أرامي	8	Kimahi	كنعاني
2	Akkadû	أكادي ــ بابلي	9	Kutmuhu	؟
3	Amurru	أموري	10	Lullubû	؟
4	Elamtu	عيلامي	11	Marratum	فارسي ؟
5	Gutium	غوطي/جوتي	12	Meluhha	؟
6	Hatti	حثي ؟	13	Subartu	؟
7	Kassu	كاشي			

وهكذا نجد أن هناك لغات تحدث بها الناس قديما ولها مترجمون ، ولدينا منها بعض العبارات التي جاءت عن طريق القوائم التي استخدمها الكتاب ، ولكننا للأسف لا نملك نصوصا مباشرة تساعدنا على فهمها ولذلك ستبقى خافية علينا الى أن تحين الفرصة وتظهر من خلال التنقيب الاثري .

١٥ ــ لــوبــو :

« تقرير أولي عن الفخار في المستوى الاولي من ماري (١٨٧٤ ــ القسم ب( )». ص ٤١٥ ــ ٤٦٢ .

وهو تقرير مطول ومصور عن أنواع كسر الفخار التي وجدت في هذه السوية .

١٦ ــ مارجورون :

« جديد ... حول باحة النخيل ــ قصر ماري » ص ٤٦٣ ــ ٤٨٢ .

ويقدم فيه الباحث اعادة وصف لهذه الباحة الجميلة مع صورة حية ، واعادة

ترميم تظهر فيه ملامح فن البناء الرافدي ، الذي يعد أصلا لفنون العمارة في الحضارة العربيـة والعالمية .

١٧ ـ مارجورون :

((البحث عن المدن والمباني حول ماري)) . ص ٤٨٣ ـ ٤٩٨ .

وهي دراسة جغرافية تاريخية جديدة لموقع ماري وللمواقع المحيطة بها .

ويخلص الباحث الى نتيجة مفادها أن **ماري قد أسست كمدينة جديدة منذ عصر السلالات الباكر (بداية الالف الثالث ! في هذا الموقع . وانها عمرت وفـق مخطط وتنظيم هادفين**، يشهد على ذلك قناتها وآثار جدار / سور يحيط بها ، وان **منظـر المدينة ((الحديثة))** في الالف الثالث كان **يدل على تفكير منطقي متجانس** . ويعتقـد مارجورون استنادا الى ملاحظات ميدانية ، بوجود مدينة أخرى قريبة مـن ماري ، **كانت تقوم بهذا الدور قبلها** ، وان هذا الموقع **ربما يكون تل الرمـادي** . والخلاصـة الاخيرة أن تأسيس **ماري يمثل قوة الحضارة وتفتحها** التـي ظهرت في الالف الرابـع وتوجت في بداية الالف الثالث ببناء هذه المدينة .

١٨ـ سيسيل ميشيل .Michel, C

((نسخ مسمارية للمجلد ٢٣ ـ ١ من محفوظات ماري)) .

وتبدأ هذه النصوص من رقم ١٠ ـ ٩٠ وهي تنسخ وتنشر بعد تصحيح ما وقع سهوا من قبل أوائل الناسخين عند اكتشاف ماري .

١٩ ـ لوسيو ميلانو .Milano, L

وعنوان بحثه : ((مخصصات الطعام في إبـلا)) :

(حسابات أولية لقوائم مخصصات الطعام في قصر إبلا

من خلال المحفوظـات رقم L. 2712) ص ٥١٩ـ٥٥٠

ينشر ميلانو عشرات النصوص الابلائية مترجمة الى الانكليزية وهذه النصوص ليست الا ((فواتير قطع)) أو تسليم للمواد التموينية وخاصة الحبوب من مستودعات القصر الملكي الى أصحاب الاستحقاق .

ويرد في جميع النصوص العبارات ذاتها ، ولنأخذ هذا النص مثالا :

٨٤٥ جوبار (وحدة كيل بحجم الجرة أو التنكة) حبوب (أو شعير)	1) 8 mi - at 45 She gü - bar

حصة قصر الملك	2) She-ba é en
١١٠ جوبار حبوب :	3) 1 mi-at 10 she bar
حصة زوجة الطحان (أو الطحانة) !	4) she- ba dam-Kikken
٥٠ جوبار حبوب :	5) 50 she lar
حصة « زوجة » أو « امرأة » من بوزوجا (مكان)	6) She-ba dam Bù-Zu-ga[ki]
٥٠ر٢٠ جوبار حبوب ..	7) 20 $_1/_2$ She bar

وهكذا اذا أردنا أن نجمل العبارات التي تأتي في معظم هذه النصوص فهي كالآتي :

١ ــ قصر الملك	é en	بالسومرية
٢ ــ امرأة . مؤنث	dam	بالسومرية
٣ ــ موظف (مرتبة)	ib - ib	بالسومرية
٤ ــ موظف (مرتبة)	a - am	بالسومرية
٥ ــ مورّد ــ متعهد ــ	ú - a	بالسومرية

تأتي أهمية هذه النصوص من خلال دراستها بهدف التعرف على تنظيم الحياة في مجتمع ابلا ، ويأتي هذا النوع من المصادر في طليعة الوثائق المباشرة التي يعتمد عليها مؤرخو التاريخ القديم .

فمن خلال هذه الدراسة نتعرف عن نظام توزيع المواد التموينية في القصر . وعلى أسماء الموظفين ومراتبهم ويأتي الملك بالمرتبة الاولى . ونتعرف على أسماء بعض المدن التي قد تكون موجودة أو معروفة على الاقل ... ونستطيع من خلال هذه الكلمات أيضا اجراء مقارنات لغوية مع أخوات إبلا من اللغات الاحدث . اذ نلاحظ ورود كلمة mi - at في أكثر من سطر وهي مائة بالعربية . وكذلك She ليست الا شعيراً .. وهكذا ...

٢٠ ــ بياتريس بيير Pierre, B. :

« رسوم تزيينية في ماري والشرق الادنى » ص ٥١ ٥ــ ٥٧٦

يوجد على واجهة احدى باحات قصر ماري بقايا شريط تزييني مرسوم على

طبقة من الطين تغطي الجدار . ويريد الباحث هنا تحديد عمر زمني تقريبي لهذا الرسم ، وفحص نوعية الطين المستعمل في القصر u ، واجراء مقارنة مع رسومات جدارية من الالف الثاني في سورية وبلاد الرافدين وكذلك في بحر ايجه . والغاية من هذه المقارنة هي التعرف على رؤية الفنان القديم للفراغ ودور العناصر التزيينية في املائه وخطوطه العريضة التركيبية مع النظر بعين الاعتبار للفروق الزمنية .

ويخلص الباحث الى أنه ، **لا توجد عناصر تصويرية تقليدية وتزيينية** وهو ما يسمية الباحث iconographie ونقول بالعربية « إيقونه » أي صورة مقدسة أو « نصمة » وهي نادرة الاستعمال . كما أن ماري لم تكن منفردة بمثل هذا النوع في الشرق ـ وان كانت أقدم مثال على ذلك ـ بل أحد النماذج التزيينية التي يأتي بعدها تزيينات قصر آلالاخ . **أما مقارنة هذه الرسوم مع رسوم من بحر ايجه (قصر كنوسوس)** الذي يعود الى فترة أحدث (نهاية الالف الثاني) فالامر غير جدير بالمقارنة لانه مختلف كليا .اذ ان الرسم في هذه الفترة أخذ شكلا تصويريا دقيقا ومعبرا (لا نراه في فترة ماري المبكرة ، وسنراه في أعمال فنية أخرى ، في آشور وبابل ، في عصور لاحقة .

٢١ ـ جاك ساسون Sasson, J.

« سنة تقديم زمري ليم صنما لمعبد أدد في حلب هي السنة الاولى من حكمه »
ص ٥٧٧ ـ ٥٨٩

من المعروف أن كتاب النصوص المسمارية ، كانوا يضعون تاريخ النص في نهايته، والصيغة هي : سنة (ذهب الملك الى حرب عيلام مثلا ، شهر كذا ، يوم كذا .) هذه هذه طريقة وضع التاريخ في ذلك الزمن ولذا فانعلينا أن نجمع هذه السنوات من خلال النصوص التي تخص كل ملك وبالتالي اقامة سلم زمني يمكن ربطه مع التسلسل الزمني لماقبل الميلاد .

يحاول الباحث هنا وضع « سنة تقديم زمري ليم صنما لمعبد أدد في حلب » في سلم سنوات حكمه .

٢٢ـ بيير فيلارد Villard , P. :

« صراع بين السلطات حول مياه البليخ » .

تروي احدى رسائل ماري قصة خلاف على مياه نهر البليخ منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة !! نقدم هنا بعض مقتطفات منها نظرا لطرافتها وجديتها في آن معا :

« الى مولاي ، قل هذا :

هكذا تحدث يسمخ أدو ، خادمك .

فيما يتعلق بمدينة توتول ، فقد سبق أن :

لاؤم و ماشوم وماشيا قد قابلوا مولاي ،

وقد أمرهم مولاي بما يلي :

اعطوا مياه البليخ كلها الى توتول ،

من اجل أن نحصد أرضا مفلوحة واسعة .»

● ولكن ما الذي حدث ؟ .. تتابع الرسالة في مكان آخر :

« ولكن » ايلي أوري « قد ذهب الى «زالباخ» وقام بسد مياه البليخ علينا »

... فكتبت له ، فكان جوابه كالآتي : هل تعتقد أنني أفعل هذا بدون مشورة مسؤولي /رئيسي « اشكور لوتيل » ؟ انه هو الذي أمرني ، وأنا قمت بسد المياه ..»

ويتساءل كاتب الرسالة موجها كلامه الى مولاه :

« هل يمكن أن تكون هنالك قناة / نهر ويشرف على ادارتها اثنان ؟ »

ويتابع قائلا :

« مولاي يجب أن تبعث بأوامرك الصارمة الى اشكور لوتيل حتى لا يحتج علينا، ويعيد المياه الى توتول !! » .

من الواضح أن توزيع مياه البليخ يخضع لرقابة وادارة صارمتين باشراف الملك، فلا يستطيع أحد التصرف بها الا بمعرفته ، وعندما يحدث خلاف ما كما هي الحال بين المسؤولين ، فالمرجع هو أوامر الملك !!

● يضم المجلد الخامس الى جانب البحوث المطولة آنفة الذكر عددا من زوايا البحوث ، التي تنشر أولا بأول لتعطي لمحة سريعة عما يعده الباحث من عمل . ويأتي ضمن ذلك ترجمات لبعض سطور من النصوص . أو الاختتام . وكلها هامة وجديرة بالمعرفة لباحث التاريخ القديم .

تنفيذا لبرنامج التعاون بين جامعتي دمشق وشيكاغو ، أقمت في معهد الدراسات الشرقية في شيكاغو حيث انجزت هذه الدراسة وغيرها . فشكرا للمسؤولين في الجامعتين .

د. فيصل عبد الله